دولة الإمارات العربية المتحدة
حكومة دبي



سلسلة
الدراسات الأصولية
« ١٧ »

الإبهاج في شرح المنهاج

شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ

تأليف

شيخ الإسلام علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى ٧٥٦هـ
وولده تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى ٧٧١هـ

دراسة وتحقيق

الدكتور أحمد جمال الزمزمي
الدكتور نور الدين عبد الجبار صغيري

الجزء الأول

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

أصل هذا الكتاب

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

من جامعة أم القرى بمكة المكرمة


الإبهاج في شرح المنهاج

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

الإمارات العربية المتحدة - دبي - هاتف: ٣٤٥٦٨٠٨ ، فاكس: ٣٤٥٣٢٩٩ ، ص.ب: ٢٥١٧١

الموقع www.bhothdxb.org.ae البريد الإلكتروني irhdubai@bhothdxb.org.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

نستفتح بالذي هو خير، حمداً لله ، وصلاةً وسلاماً على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عباده الذين اصطفى.

وبعد:

فيسر دار البحوث أن تقدم للباحثين والقراء هذا الكتاب ((**الإبهاج في شرح المنهاج**)) لتقي الدين وابنه تاج الدين السبكي في سلسلة الدراسات الأصولية ضمن سلسلة ((**الدراسات الأصولية**)) وتكمن أهميته في أنه تضافرت جهود الأب والابن على شرحه، فخرج في حلّة موشاة بمنهجين أصيلين في الدراسات الأصولية، ويمكن أن يصنف هذا الكتاب ضمن سلسلة الكتب التي تخصصت في تخريج الفروع على الأصول، فقد أكثر التاج السبكي من التفريعات على القواعد الأصولية، كما أن هذه الطبعة تميزت بإخراج النص إخراجاً قريباً جداً من نص المؤلف، وتميزت أيضاً بالتصحيح والتدقيق والتنقيح واعتمادها على نسخ خطية، كما ستعرفه في قسم الدراسة، فتميزت بذلك عن جميع النسخ المطبوعة.

وهذا التقديم مقرون بالشكر والعرفان لأسرة ((**آل مكتوم**)) حفظها الله، التي ترعى العلم، وتشيِّد نهضته، وتحيي تراثه، وتؤازر قضايا العروبة والإسلام، وعلى رأسها صاحب السمو **مكتوم بن راشد بن سعيد آل مكتوم**، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء ، حاكم دبي الذي أنشأ هذه الدار لتكون منار خير، ومنبر حق على درب العلم والمعرفة، تجدد ما

اندثر من تراث هذه الأمة، وتبرز محاسن الإسلام، فيما سطره الأوائل وفيما يمتد من ثماره، مما تجود به القرائح، في شتى مجالات البحوث الإسلامية، والدراسات الجادة، التي تعالج قضايا العصر، وتؤصل أسس المعرفة، على مفاهيم الإسلام السمحة، عقيدةً وشريعةً، وآداباً وأخلاقاً ومناهج حياة، مستلهمة الأدب القرآني في الدعوة إلى الله على بصيرة.

﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل ١٢٥

وكذلك مؤازرة سمو الشيخ **حمدان بن راشد آل مكتوم** نائب حاكم دبي ووزير المالية والصناعة، والفريق أول سمو الشيخ **محمد بن راشد آل مكتوم** ولي عهد دبي وزير الدفاع.

سائلين الله العون والسداد، والهداية والتوفيق.

ولا يفوت الدار أن تشكر من أسهم في خدمة هذا العمل العلمي من العاملين بالدار وهما:

مساعد باحث: الشيخ / **محمد سعد خلف الله الشحيمي** الذي قام بإخراج وتنسيق الكتاب، ومراجعته وتدقيقه، وتصحيح التنضيد.

مساعد باحث: الشيخ / **عمر محمد سيد عبدالعزيز** الذي قام بإعداد الفهارس العلمية والفنية للكتاب.

ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن يعين على السير على هذا الدرب، وأن يتواصل هذا العطاء من حسن إلى أحسن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دار البحوث



مقدمة المحققين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، نحمده على عظيم نعمائه، ونبرأ إليه من الحول والقوة ونخلص القول بأنه لا إله إلا الله شهادة الموحد المستبصر، غير المتوقف المتحير، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده الأمين على وحيه، ورسوله الصادع بأمره ونهيه، المؤيد بجوامع الكلم، المبين للناس ما نزل إليهم بلسان عربي مبين، فيه المحكمُ، يعرفه السامعون، ومتشابه، لا يعقله إلا الراسخون، فصلي اللهم عليه وعلى آله المتبعين لسنته وأصحابه المنيبين لشريعته، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من نعم الله أن وفقنا إلى طريق العلم ووجدنا من يشجعنا عليه، ثم إن العناية بكتب التراث لاسيما الشرعي منها، واجب منوط بالعلماء وطلاب العلم؛ إذ هم الفئة القادرة والمعنية بذلك.

وإن حياة المسلمين المعاصرة ليست مقطوعة الجذور ولا مجهولة الأصول، لذلك فقد بات من الضروري، والمطلوب بإلحاح اليوم أكثر من أي وقت مضى الاهتمام بتراثنا المخطوط ونشره، خاصة ونحن في ظل

العولمة الثقافية التي تريد أن تجتث ما بقي من تراث الأمم لتجعلها بلا ماض، همها بطونها وشهواتها، حياة بدون قيم ولا مبادئ. فالاهتمام بتراثنا الغاية منه وصل الماضي بالحاضر، وصلا منطقياً ووجدانياً في صورة متسقة منسجمة، نخضع بها تراثنا إلى تمحيص عميق بفكر لا يتعصب لقديم ولا يفتتن بجديد، يعتمد الرأي متى أثبته الدليل، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، وشهدت له الشريعة بالاعتبار، ويثق في الرواية متى سلمت من القدح والشذوذ والعلة.

وبكلمة مختصرة ينبغي أن ننظر لتراثنا النظرة الواعية الثاقبة، البعيدة عن التحامل والهوى والتعصب.

وبناء عليه فإنه ينبغي التنقيب عن المخطوطات الضرورية التي تكمل النقص الذي تعانيه المكتبة الإسلامية العربية...

وإيمانا بهذا المنهج، وترسيخاً لهذا المبدأ، فقد أخذت الجامعات على عاتقها هذه المهمة، وتحملت هذه الأمانة، ممثلة في مجالسها العلمية عبر الأقسام والكليات. وعنيت بعلوم الشريعة ومنها علم أصول الفقه الذي نعتقد أن مباحثه تمثل قمة الفكر التي أنتجه وأبدعه العقل المسلم.

فإحياء كتب الأصول هو إحياء لمنهج البحث الإسلامي الذي يُكَوِّنُ المنظومة العقلية لمنهجنا الفكري المتميز، والذي ينبغي أن يكون بديلاً عن المنطق اليوناني، وعن المنهج الغربي ذي الأصول الوثنية.

فتراثنا الشرعي الضخم الذي خلفه علماؤنا السابقون جيلاً بعد جيل

يحتاج منا إلى جهود متلاحقة ومتواصلة لحفظه وصيانته من العبث والتحريف.

ولذا كان القيام بتحقيق التراث هو عملية الصيانة لهذا التراث والمحافظة عليه جديداً حياً نقياً، ولا يخفى على ذي لب أن دراسة علم تحقيق النصوص على الشكل الصحيح، لمن الأمور التي تساعد على تحقيق هذه المهمة.

وهناك أمران لابد من مراعاتهما ـ في جملة أمور مهمة ـ في هذه المهمة الخطيرة:

١- تعلم علم الخط العربي وأطواره عند العرب: إذ تعلم الخط وأطوار نشوئه لهو في غاية الأهمية لفهم النص وقراءته على الشكل الصحيح، بل ولتحديد زمن كتابة النسخة المخطوطة في أي مرحلة من المراحل.

ثم هناك أنواع من الخطوط من الخط المشرقي والمغربي وما يتفرع عن ذلك، فما لم يدرس هذا العلم دراسة وافية كيف يمكن قراءة النصوص القديمة على الشكل الصحيح ومن المحافظة عليها من غير تحريف ولا تبديل!

٢- التعرف على مصطلحات الأقدمين من النساخ والعلماء في كتاباتهم: وإن تعرف المحقق على مثل هذه المصطلحات لما يساعد على فهم تلك الرموز التي توجد في النسخ القديمة. وقد ضرب لذلك أمثلة الأستاذ المحقق عبدالسلام هارون في كتابه الفذ تحقيق التراث.

وقد وقع الاختيار على كتاب **الإبهاج في شرح المنهاج لتقي الدين وابنه تاج الدين السبكي** لما له من الأهمية، فهو من كتب الأصول المهمة، نظراً لأن المنهاج من الكتب المعتمدة والمهمة في الفن، والشارحين إمامان في الفن، وباقي العلوم العقلية والنقلية. وبصفة مختصرة نعرف بالشارحين وبالكتاب.

أما الشارحان فهما:

تقي الدين وابنه تاج الدين السبكي.

فأما الوالد فهو تقي الدين علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي أبو الحسن، تقي الدين: شيخ الإسلام في عصره، ولد في سبك من المنوفية بمصر وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام، وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ، واعتل فعاد إلى القاهرة، فتوفي فيها سنة ٧٥٦هـ.

وأما الابن فهو تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ولد بالقاهرة المعمورة سنة سبع وعشرين وسبعمائة (٧٢٧م) تلقى العلم كأبناء زمانه وفتح عينيه على بيت يموج بالمعرفة، ورأى وفود العلماء تنسل إلى مجلس أبيه، ينهلون عليه، فلا غرابة إذن أن يبدأ العلم مبكراً، كان من أعظم رجال تلك الأسرة السبكية الذين ذاع صيتهم في دولة المماليك لامتيازهم في العلم وفي مناصب التدريس والقضاء، ورغم أنه لم يعش إلا نحو أربعة وأربعين عاماً، لكن حياته كانت ملأى بالإنتاج

العلمي مما بوأه مقاعد القضاء والفتوى والتعليم. كان فقيها أصولياً ومتكلماً محدثاً بارعاً مؤرخاً. توفي رحمه الله سنة ٧٧١هـ

وأما الكتاب فهو:

الإبهاج في شرح المنهاج للتقي السبكي وابنه التاج رحمهما الله، يعد من كتب الأصول المهمة؛ نظراً لأن المنهاج من الكتب المعتمدة والمهمة في الفن، والشارحين إمامان في الفن وباقي العلوم العقلية والنقلية.

ويعد متن البيضاوي من المتون التي استوعبت جميع أبواب أصول الفقه الإسلامي المقارن على طريقة الجمهور وناهيك بالبيضاوي حفظا وإتقاناً وتحقيقاً للمسائل، فلا يقتحم شرح متنه، ولا تحدثه نفسه الولوج في أعماقه إلا ممن أنس في نفسه المقدرة على ذلك. والتقي والتاج جديران بهذا الوصف فقد شرحاه شرحاً يفوق كل وصف، من حيث الإتقان والعزو إلى المصادر وتفريع المسائل خاصة الفروع الشافعية، فعد بذلك مرجعاً للشافعية وغيرهم في علم تخريج الفروع على الأصول، فهو كتاب جدير بالتحقيق.

وقد اعتمدنا في تحقيقه على أربع نسخ خطية: اثنتين منها قديمتين كتبتا في حياة المؤلف التاج السبكي رحمه الله، والثالثة متأخرة جدا كتبت في القرن الرابع عشر الهجري، والرابعة لم يكتب عليها تاريخ النسخ ولا من هو الناسخ.

ويشتمل عملنا في هذا الكتاب قسمين: قسم الدراسة وقسم التحقيق

كما سنعرفه في الخطة التالية.

أولاً: قسم الدراسة، ويشتمل على جانبين:

الجانب الأول: ترجمة المصنف والشارحين، وهو يتضمن بابين:

الباب الأول في ترجمة الإمام البيضاوي.

ويحتوي هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: التعريف بالمصنف، ويشتمل هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول: في اسمه ونسبه،ومولده ووفاته.

المبحث الثاني:في نشأته، ورحلته وشيوخه، وتلاميذه.

الفصل الثاني: حياته العلمية وآثاره ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ثقافته الواسعة، والعلوم التي برز فيها وفاق.

المبحث الثاني: تقلده منصب القضاء.

المبحث الثالث: مؤلفاته العلمية.

الباب الثاني: ترجمة الشارحين ويحتوي هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: بيان العصر الذي نشأ فيه الشارحان.

ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الحياة السياسية.

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الحياة العلمية والدينية.

الفصل الثاني: التعريف بالشيخ الإمام الحافظ تقي الدين السبكي.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: ولادته ونشأته.

المبحث الثالث: طلبه للعلم وشيوخه.

المبحث الرابع: تلاميذه.

المبحث الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

المبحث السادس: قوته في المناظرة.

المبحث السابع: فصاحته وبلاغته.

المبحث الثامن: أخلاقه وعبادته.

المبحث التاسع: مصنفاته.

المبحث العاشر: وفاته والرؤى التي رئيت له.

المبحث الحادي عشر: مراثيه.

الفصل الثالث: التعريف بالإمام الحافظ تاج الدين السبكي.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: ولادته ونشأته.

المبحث الثالث: طلبه للعلم وشيوخه.

المبحث الرابع: تلاميذه.

المبحث الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

المبحث السادس: مناصبه العلمية.

المبحث السابع: فصاحته وبلاغته.

المبحث الثامن: حفظه.

المبحث التاسع: أخلاقه وصفاته.

المبحث العاشر: محنته.

المبحث الحادي عشر: مصنفاته.

المبحث الثاني عشر: وفاته.

الجانب الثاني: دراسة منهج الكتاب: ويتضمن المباحث الآتية.

المبحث الأول: توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفيه.

المبحث الثاني: الملاحظات العامة على كتاب الإبهاج.

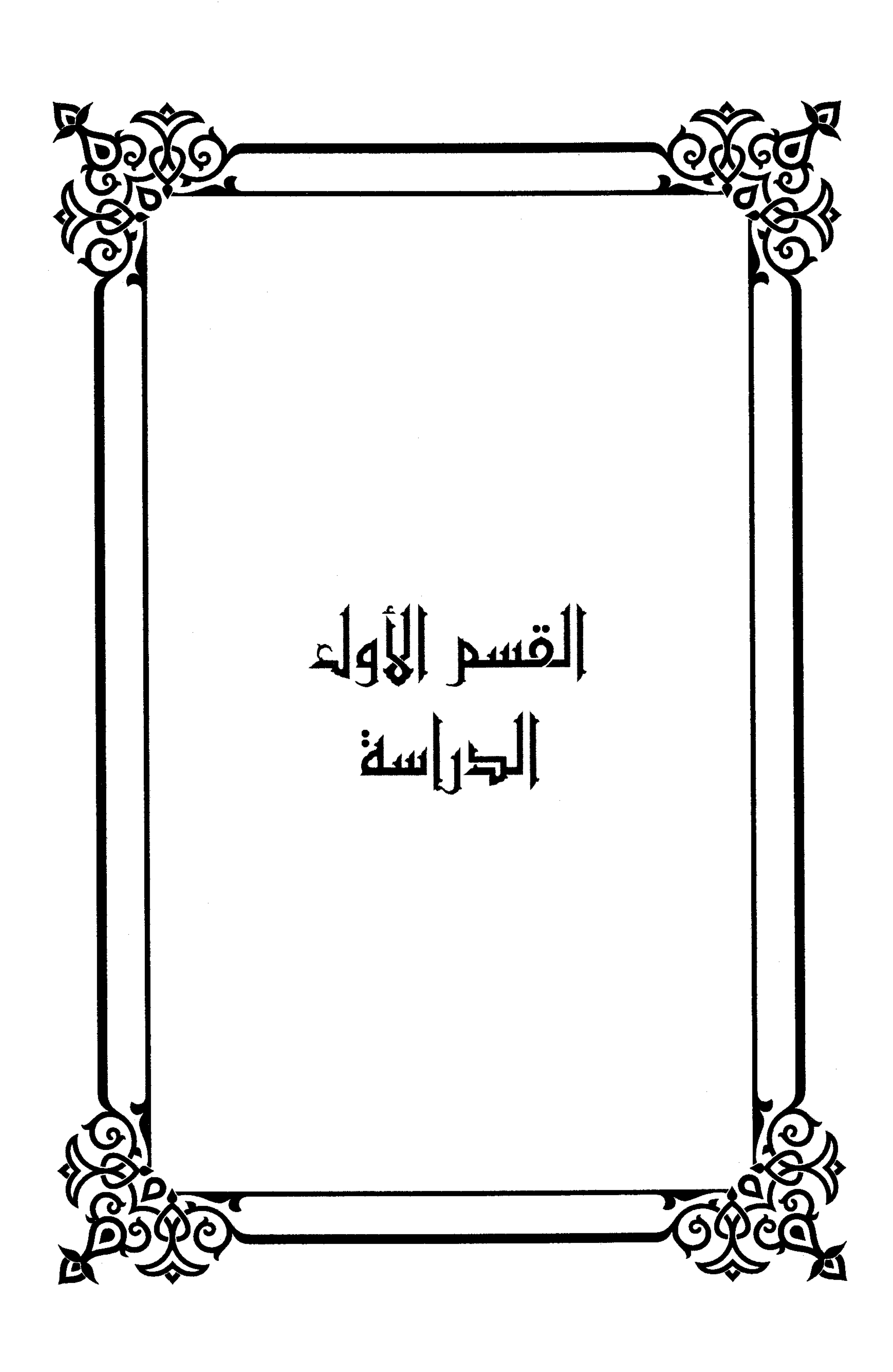
المبحث الثالث: المنهج الذي اتبعه التاج في شرح الكتاب.

المبحث الرابع: مصادر الشارحين في الكتاب.

المبحث الخامس: بيان منهج المحققين في التحقيق.

المبحث السادس: وصف النسخ المعتمدة في التحقيق.

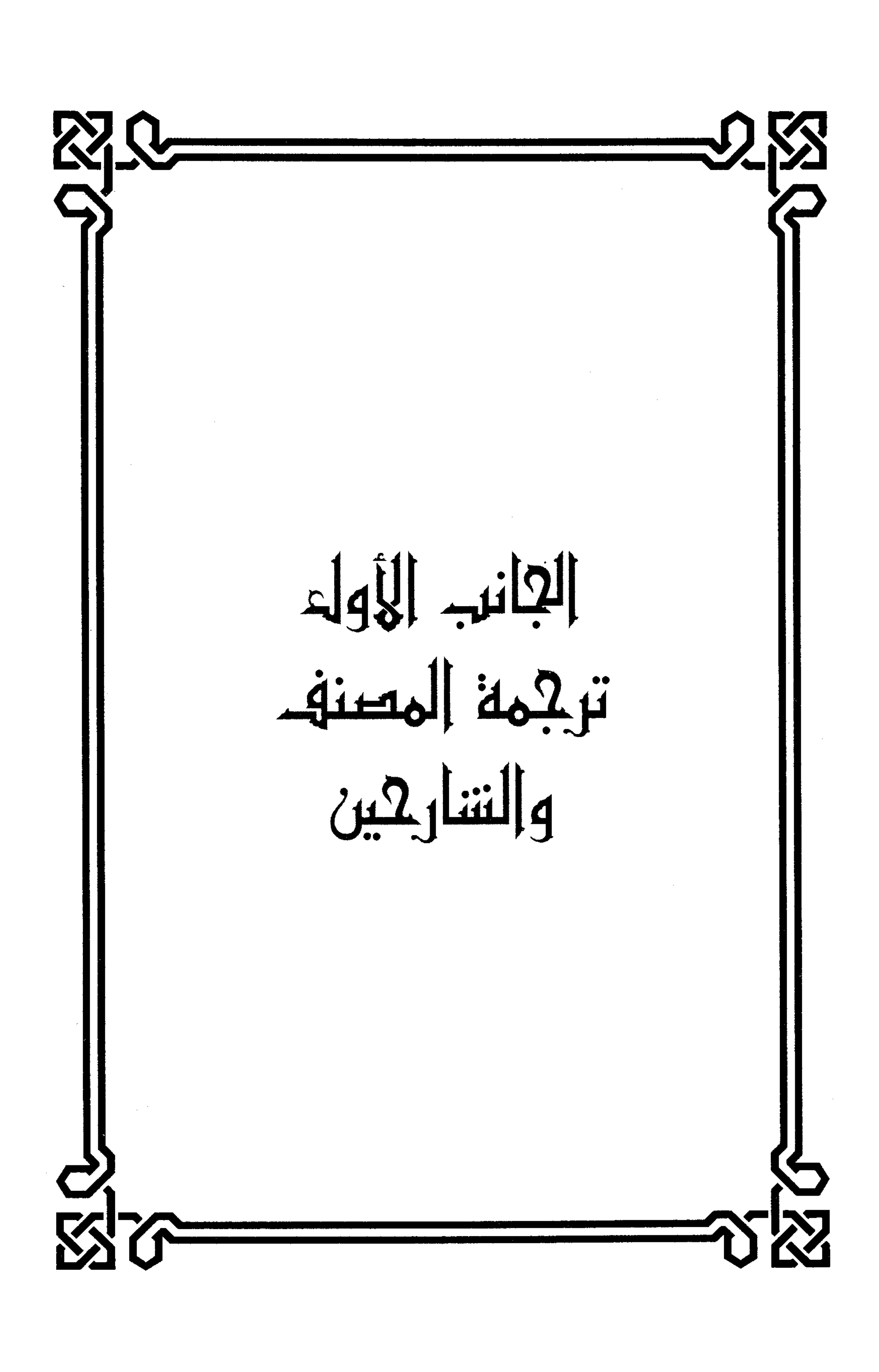
المبحث السابع: بيان المصطلحات التي استخدمها الشارح.



القسم الأول

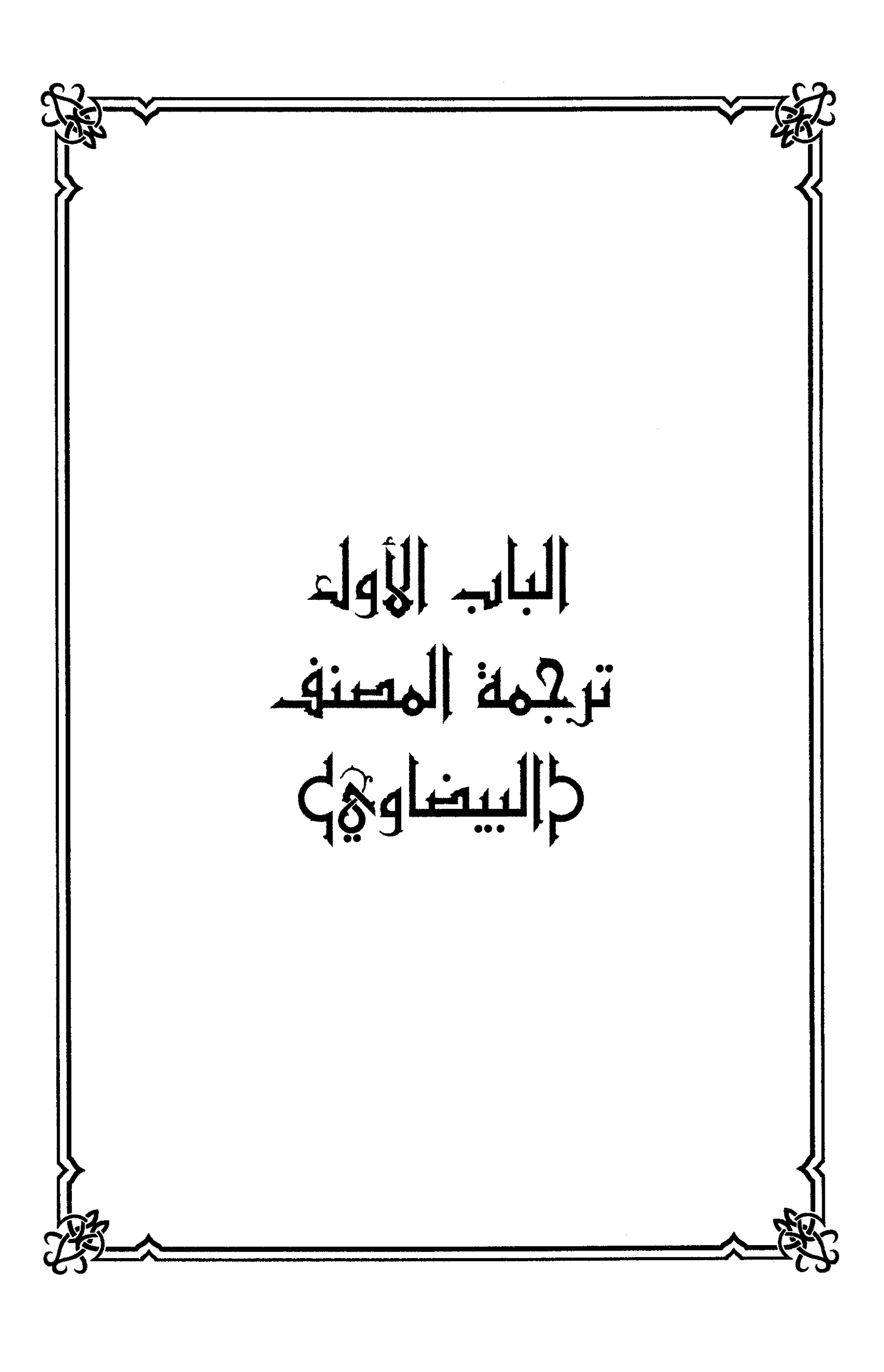
الدراسة





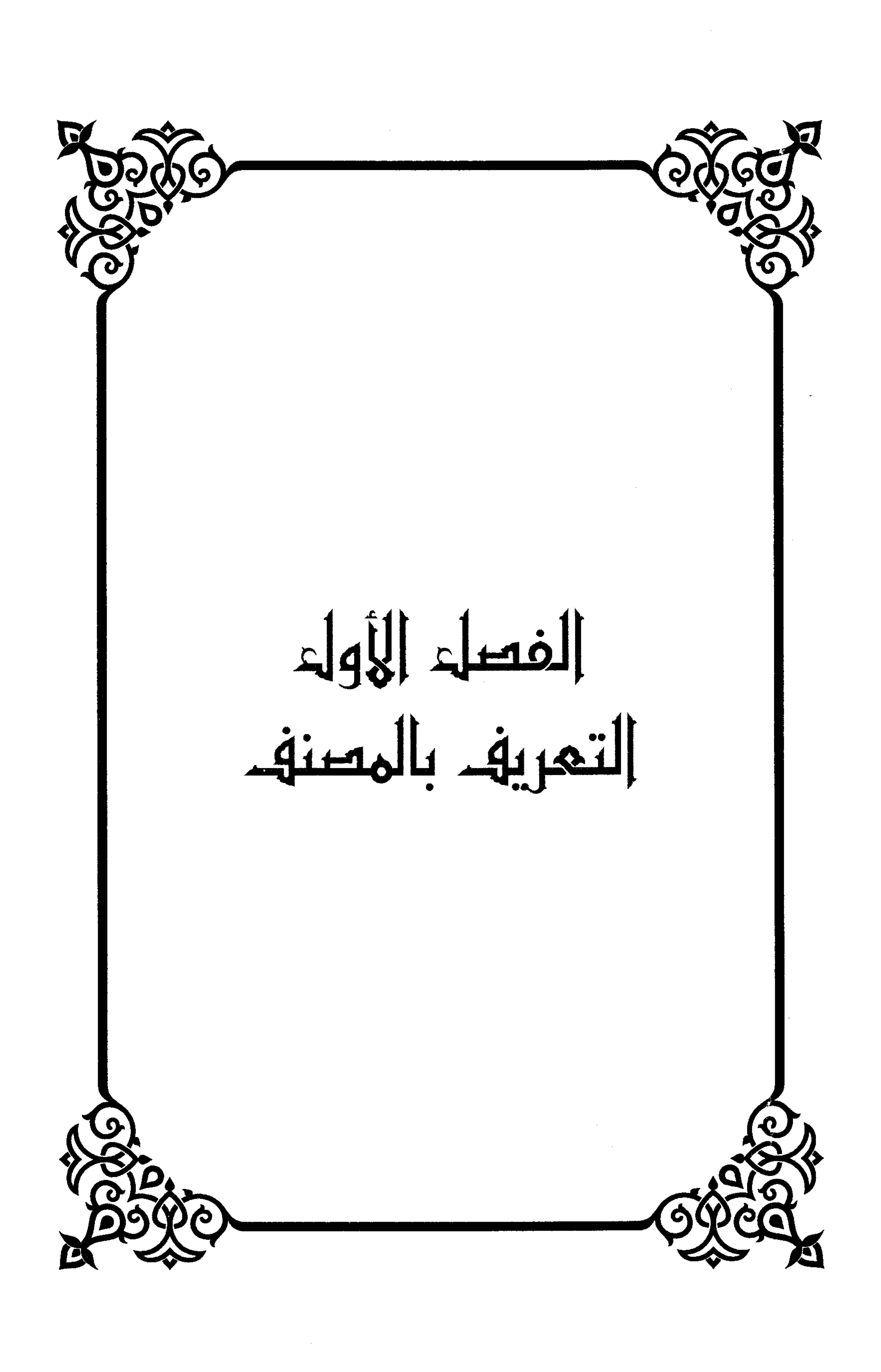
الجانب الأول
ترجمة المصنف والشارحين





الباب الأول
ترجمة المصنف
البيضاوي





الفصل الأول
التعريف بالمصنف

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ومولده ووفاته[1]

١ - اسمه ونسبه:

هو الكريم قاضي القضاة ابن الكريم إمام الملة والدين ابن الكريم قاضي القضاة ابن الإمام صدر الدين:

عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو الخير، ناصر الدين، البيضاويُّ مولداً، الشيرازيُّ نشأة، التِّبْريزيُّ وفاةً، الشافعيُّ مذهباً، الأشعريُّ عقيدة.

القاضي، الفقيه، المفسِّر، الأصولي، النحوي، المتكلم، المؤرخ، الملقَّب بناصر الدين، والمُكْنى بأبي الخير.

---

(١) انظر هذا المبحث في: الطبقات الكبرى ١٥٧/٨، البداية والنهاية ٣٢٧/١٣، طبقات الإسنوي ١٣٦/١، طبقات ابن قاضي شهبة ١٧٢/٢، بغية الوعاة ٥٠/٢، طبقات المفسرين ٢٤٢/١، شذرات ٣٩٢/٥، ذيل طبقات الفقهاء الشافعيين للعبادي ٩٤/٣، الفتح المبين ٨٨/٢، القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٣٨ - ١٣٩، مقدمة محقّق الغاية القصوى في دراية الفتوى ٥١/١.

٢ – ولادته ووفاته:

أولاً – ولادته:

ولد القاضي ناصر الدين البيضاوي في بلدة البيضاء[١] التابعة لمدينة شيراز ببلاد فارس، واشتهر بالنسبة إليها، كما عُرف بالشيرازيِّ نسبة إلى شيراز[٢] حيث كانت نشأته بها، وعُرِف أيضاً بالتِّبْريزيِّ نسبة إلى تِبْريز[٣] حيث كانت وفاته بها.

يقول الدكتور جلال الدين عبد الرحمن: «ولم يُشِر أحدٌ من المؤرخين – الذين كتبوا سيرته وترجموا له – إلى تاريخ ولادته، ولعل السبب في ذلك هو ما أصاب الناس من الحروب التي اجتاحت هذه

---

(١) البيضاء: مدينة مشهورة بفارس. قال الإصطخري: البيضاء أكبر مدينة في إصطخر، وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بُعد، ويُرى بياضها. وينسب إليها جماعة من العلماء. ا هـ.
انظر: معجم البلدان ١/٥٢٩.

(٢) شيراز: بكسر الشين، بلد عظيم مشهور، وهي قَصَبة ـ أي: وسط ـ بلاد فارس في الإقليم الثالث، وبها جماعة من التابعين مدفونون، وذمها البعض بضيق دروبها. وقد نسب إلى شيراز جماعة كثيرة من العلماء في كل فن، منهم أبو إسحاق الشيرازي وغيره.
انظر: معجم البلدان ٣/٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) تِبْريز: بكسر التاء، وسكون الباء، وكسر الراء، وياء ساكنة، وزاي. وهي أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء، ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وقد خرج منها جماعة وافرة من أهل العلم، منهم إمام أهل الأدب أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التِّبْريزي.
انظر معجم البلدان ٢/١٣.

المناطق في النصف الأول لهذا القرن[1]، وهو الوقت الذي كانت ولادته فيه. وما توصلنا إليه بعد الدراسة والبحث هو أن ولادته في البيضاء كانت أوائل القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - أو قبله بيسير.

فقد رحل أبوه بأسرته من البيضاء إلى شيراز في أوائل القرن، وكانت شيراز حينذاك عاصمة بلاد فارس، يحكمها الأتابك أبو بكر بن سعد بن زنكي بن مودود، الذي حكم فارس من سنة (٦٢٣ هـ - ١٢٢٦م) إلى سنة (٦٥٨ هـ - ١٢٩٣ م)، وكانت تتسم بالأمان والاستقرار، فقد رأى الأتابك أبو بكر أن من الحكمة أن لا يقف في سبيل التتار، فأرسل إليهم الهدايا الثمينة، والإتاوات، ودخل في طاعتهم، فلم يتعرضوا له بسوء[2]، فكانت شيراز ملجأً للعلماء الذين فروا من وحشية التتار باحثين عن الاستقرار، والبعد عن حياةٍ مليئةٍ بالخوف والقلق، فكانوا يجدون في شيراز البسطة في الرزق، والأمان في الحياة. ويُروى أنه كان لوالده عمر بن محمد منزلةٌ كبيرة عند الأتابك أبي بكر بن سعد، فجعله قاضي قضاة شيراز، مما حَبَّب إليه الإقامة بها.

وإذا كان المؤرخون يُجمعون على أنه ولد في البيضاء - فلابد أن تكون ولادته قبل رحيل والده وأسرته إلى شيراز»[3].

---

(١) أي: القرن السابع، والحروب هي حروب التتر.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ٩٤/٤.

(٣) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٣٧.

ثانياً – وفاته:

اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة القاضي ناصر الدين البيضاوي، لكن الذي ذكره الأكثرون أنه توفي سنة خمسٍ وثمانين وستمائة.

قال الدكتور علي محيي الدين القره داغي: «الذين قالوا: إن وفاته كانت في سنة (٦٨٥ هـ) أكثر من عشرين مؤرخاً ومترجماً، على رأسهم صلاح الصفدي[١] الذي عاش بين سنة (٦٩٦ – ٧٦٤ هـ) في كتابه الوافي بالوفيات[٢]، وابن كثير المتوفى في سنة (٧٧٤ هـ) في البداية والنهاية[٣]...»[٤].

وذهب ابن السبكي[٥]، والإسنوي[٦]، وغيرهما[٧]: إلى أن وفاته

---

(١) هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين. أديب، مؤرخ، كثير التصانيف المتعة. ولد بصفد بفلسطين سنة ٦٩٦ هـ. سمع الكثير، من مؤلفاته: شرح لامية العجم، وجر الذيل في وصف الخيل، وغيرهما. توفي رحمه الله سنة ٧٦٤ هـ.
انظر المعجم المختص للذهبي ص ٩١، البداية والنهاية ٣١٨/١٤، الدرر ٨٧/٢، شذرات ٢٠٠/٦.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات ٣٧٩/١٧.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٣٢٧/١٣.

(٤) انظر: مقدمة محقِّق الغاية القصوى في دراية الفتوى ٥٧/١.

(٥) في طبقاته الوسطى. انظر كلام محقِّق الطبقات الكبرى ١٥٧/٨.

(٦) هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي جمال الدين، أبو محمد، القرشي، الأُموي، الإسنوي، المصري، الشافعي، الإمام، العلامة، الفقيه، الأصولي، النحوي. ولد بإسنا سنة ٧٠٤ هـ. اهـ صنف التصانيف المفيدة النافعة، منها: الكوكب الدري، وطبقات الشافعية، ونهاية السول في شرح منهاج الوصول، وغيرها. توفي سنة ٧٧٢ هـ.

(٧) انظر طبقات الشافعية للإسنوي ١٣٦/١، طبقات ابن شهبة ١٧٢/٢، بغية الوعاة ٥١/٢، طبقات المفسرين للداودي ٢٤٣/١. انظر: الدرر ٣٥٥/٢، طبقات =

كانت في سنة إحدى وتسعين وستمائة.

وقد رجَّح الدكتور جلال الدين عبد الرحمن أنه توفي سنة ٦٨٥ هـ، لأن هذا رواية الحافظ الذّهلي[١] الثقة الذي كان معاصراً للقاضي البيضاوي، وقد اعتمدها الصلاح الصفدي المؤرخ الكبير، والمتثبت في روايته، وقد اقتصر عليها، ولم يشر إلى غيرها، فضلاً عن اعتماد أكثر المؤرخين لها[٢].

وقد أجمع المتقدمون والمتأخرون من المؤرخين له: على أن وفاته كانت في مدينة تبريز.

وذكر ابن كثير: أن القاضي ناصر الدين البيضاوي أوصى إلى القطب الشيرازي[٣] أن يدفن بجانبه بتبريز[٤].

= ابن قاضي شهبة ٩٨/٣، شذرات ٢٢٣/٦، الفتح المبين ١٨٦/٢.

(١) هو سعيد بن عبد الله الدهلي ـ بكسر الدال المهملة، وسكون الهاء ـ البغدادي، أبو الخير، نجم الدين. ولد سنة ٧١٢ هـ، ورحل إلى دمشق ومصر والإسكندرية في طلب الحديث، وكتب الكثير، وأتقن الفن، وتعب كثيراً. مات بالطاعون في خامس عشر ذي القعدة سنة ٧٤٩ هـ، وله ٣٧ سنة. انظر: الدرر ١٣٤/٢.

(٢) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي، قطب الدين الشيرازي، الشافعي، العلامة الكبير. ولد بشيراز سنة ٦٣٤ هـ، وأخذ عن أبيه وعمه وغيرهما في علم الطب، ثم رتب طبيباً بالمرستان وهو شاب، ثم سافر إلى نصير الدين الطوسي فقرأ عليه الهيئة، وبحث عليه في الإشارات وبرع، ثم سكن تبريز وأقرأ بها العلوم العقلية. ومن تصانيفه: شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح المفتاح للسكاكي، وشرح الكليات لابن سينا، وغيرها. مات في رمضان سنة ٧١٠ هـ.

انظر: الدرر ٣٣٩/٤، البدر ٢٩٩/٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية ٣٢٧/١٣.

قال الدكتور جلال الدين حفظه الله: «وجاء في ترجمة القطب الشيرازي: أنه أوصى أن يُدفن إلى جانب القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي. فأوصى كلٌ منهما بأن يُدفن إلى جانب صاحبه؛ لما كان بينهما من المودة»[1].

(١) انظر: القاضي البيضاوي ص ١٧١، وهو نقلاً عن منتخب المختار للسلمي ص ٢٢٨.

المبحث الثاني

في نشأته، ورحلاته، وشيوخه، وتلامذته

١ - نشأته:

نشأ القاضي ناصر الدين البيضاوي أول حياته في البيضاء، ثم رحل إلى شيراز، وهي حينذاك عاصمة بلاد فارس، ومقر حكم الأتابك أبي بكر بن سعد، وكانت ملجأ الأدباء والعلماء والشعراء الفارين من وجه المغول، وكان الأتابك أبو بكر يرحب بكل من يلجأ إليه، ويوسع عليهم في الرزق.

يقول الدكتور جلال الدين: «عاش صاحبنا في كنف أسرته - حياته الأولى - في البيضاء، ثم في شيراز، وقد اشتغل منذ الصغر بطلب علوم الأدب والعربية، والفقه وأصوله، والتفسير والحديث، والكلام والمنطق، والتاريخ على أعظم أئمة مصره، وعلماء عصره، كما تلقن عن أبيه العلوم والفنون المتنوعة»[1]، «وتخرج في الفقه والأصول، والأدب، والمنطق، والحكمة على الأسلوب الأعجمي، الذي يجمع بين العلوم المختلفة بالترقي

---

(١) انظر: القاضي البيضاوي ص ١٣٨.

في درجاتها المتقابلة، وتحقيق بعضها ببعض تحقيقاً يهدف إلى تكوين الملكة العامة، المتصرفة بالتحصيل والتحليل، والاستنتاج والبحث في العلوم على نسبة واحدة[1]، وتحرير قوالبها التعبيرية على منهج مُتَّحد، وأسلوب مُطَّرِد»[2].

وقد عاش البيضاوي في شيراز أكثر حياته حتى تولى منصب قاضي قضاتها، ثم صُرف عنه، فرحل إلى تبريز حيث كانت وفاته بها.

ولم يذكر أحد من المؤرخين - فيما نعلم - شيئاً عن أسرة القاضي ناصر الدين البيضاوي، فقد ظل ذلك أمراً بعيداً عن التاريخ[3].

٢- رحلاته:

يقول الدكتور علي محيي الدين حفظه الله: «نتيجة للغزو المغولي الدموي على البلاد الإسلامية، وإيقاع الدمار والخراب بها، مع أن شيراز كانت بمأمن من هذه الويلات - أصبح العلماء يقصدونها من كل فج عميق، وكان حاكمها الأتابك يشجع على العلم والعلماء، مما أدى إلى قيام نهضة علمية متطورة في شيراز وأنحائها، فاجتمع فيها كبار العلماء الذين أتوا من مختلف الأقطار الإسلامية؛ لذلك لم يحتج الإمام البيضاوي إلى رحلات علمية يقوم بها لأجل تحصيل العلم، إذ كبار العلماء قد أصبحوا

---

(١) أي: يحصل التحصيل والتحليل والاستنتاج والبحث في العلوم في آنٍ واحد غير متفاوت، فهو يحصِّل وفي الوقت نفسه يحلِّل ويستنتج.

(٢) انظر: التفسير ورجاله، لابن عاشور ص ٩٨.

(٣) انظر: القاضي البيضاوي ص ١٣٩، مقدمة محقق الغاية القصوى ٥٨/١.

في بلده، ولهذا لم نعثر في كتب الطبقات والتراجم النصَّ على أكثر من رحلتين له»[1].

أما رحلته الأولى: فكانت من البيضاء إلى شيراز، حيث رحل أبوه بأسرته فاراً من جحافل التتار.

أما رحلته الثانية: فهي من شيراز إلى تبريز عاصمة الإيلخانيين الذين أسلموا من المغول، واتخذوا تبريز عاصمة لهم، ولم نعثر في بطون كتب التراجم والطبقات على تاريخ لهذه الرحلة، لكنها كانت بعد أن تولى القضاء بشيراز[2]. وقد رجح الدكتور جلال الدين - حفظه الله - أن رحلته إلى تبريز كانت سنة ٦٨١ هـ، وذكر أدلة على ذلك[3].

والظاهر أن البيضاوي - رحمه الله - قد دخل تبريز قبل أن يرحل إليها ويستقر بها في آخر حياته، وذلك أن الإمام البيضاوي قد زار تبريز طلباً في قضاء شيراز، فأعطي ذلك، ثم عاد قاضياً على شيراز، ثم عزل بعد ذلك كما سيأتي، ثم رجع إلى تبريز وقضى فيها بقية عمره المبارك في الزهد والعبادة والتدريس والتأليف.

٣ - شيوخه:

نهل البيضاوي أول ما نهل من منهل والده العذب، لكن ذلك لا يعني أنه لم يأخذ من غيره، لا سيما وشيراز آنذاك تموج بعلماءٍ أعلام من كل

---

(١) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٥٩.

(٢) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٥٩.

(٣) انظرها في: القاضي البيضاوي ص ١٤٢ - ١٤٣.

الأقطار، فمن المستبعد جداً لعالم مثله فاق الأقران، وبزَّ أهل الزمان أن يكتفي بشيخ أو شيخين، بل لابد أن يكون مكثراً من الشيوخ، متتبعاً لهم ولو في الكهوف، ولكن الظاهر والله أعلم أن محن ذلك الزمان وتقلباته، وحروبه الطاحنة شغلت العلماء عن رصد مثل ذلك.

والذين نعرف أسماءهم من شيوخه هما: والده، والشيخ الكتحتائي.

أولاً: والده، وصورة من إجازته العلمية:

هو الإمام عمر بن قاضي القضاة السعيد فخر الدين محمد. وتلمذته على والده مما لا شك فيها، حيث يذكر البيضاوي في مقدمة «الغاية القصوى» أنه أخذ العلوم عن والده فيقول:

«إذا عرفت ذلك فاعلم أني أخذت الفقه عن والدي مولى الموالي، الصدرِ العالي، وليِّ الله الوالي، قدوةِ الخلف، وبقيةِ السلف، إمام الملة والدين، أبي القاسم عمر قَدَّس الله روحه، وهو عن والده قاضي القضاة السعيد فخر الدين محمد بن الإمام الماضي صدر الدين أبي الحسن علي البيضاوي قدس الله أرواحهم» ثم ذكر تتمة السند إلى الإمام الشافعي ﷺ، ومنه إلى رسول الله ﷺ [1].

ولم تذكر لنا كتب التراجم سيرة والده، ولا تاريخ ولادته ووفاته، والمعروف عنه أنه كان من المقربين للأتابك أبي بكر بن سعد، سلطان بلاد فارس آنذاك [2].

---

(١) انظر: الغاية القصوى ١/١٨٤ ـ ١٨٨.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية لبروكلمان ٤١٨/٤٥.

ثانياً – الشيخ محمد الكتحتائي:

هو العارف بالله ولي الله الوالي الشيخ محمد بن محمد الكتحتائي، لا يُعرف تاريخ ولادته ووفاته، وكل ما يُعرف عنه هو أنه كان أحد المقربين للسلطان المغولي أحمد أغا بن هولاكو[1] الذي أسلم وحسن إسلامه، وكان يأتي الشيخ محمد الكتحتائي في ليالي الجمعات المباركات بقصد الزيارة وذكر الله تعالى.

وقد ذكرت كتب التراجم قصة استشفاع البيضاوي بهذا الشيخ عند السلطان ليوليه قضاء شيراز، ولكن البيضاوي تأثر من كلام الشيخ، فترك القضاء وأقبل على ملازمة الشيخ وخدمته ليستفيد من تقواه وزهده، وليتخلق بأخلاقه، وقد صنف تفسيره بإشارة شيخه هذا[2].

٤ – تلامذته:

لم يحفظ لنا التاريخ إلا القليل من تلامذة البيضاوي رحمهم الله تعالى جميعاً، وهذا يدل على الغموض الذي اتسمت به هذه الفترة نتيجة لما أصاب الأمة من نكبة التتر التي تربو عن الوصف، وتفوق التخيل. وإمام كالبيضاوي، وعالم فَذّ مثله لابد وأن يتكاثر عليه طلاب العلم، وعشاق الفهم، ولا أدلَّ على ذلك من كتبه التي تركها وخلَّفها كيف تكاثر على شرحها والتعليق عليها العلماء، وأصبحت مرجعاً لمن بعده من الفضلاء،

---

(١) تقلد السلطنة أول سنة ٦٨١ هـ، وقتله ابن أخيه أوغون بن أبغا بعد مدة يسيرة من حكمه، أي: في سنة ٦٨٢ هـ. انظر: المختصر من أخبار البشر ١٦/٤.

(٢) روضات الجنات ١٣٤/٥، كشف الظنون ١٨٧/١.

هذا من أوضح الأدلة على مكانته العلمية في زمانه، وشهرته بين أهله بذلك، كيف وهو قاضي القضاة، الفقيه الأصولي المتكلم المفسِّر! فمثله في تلك الأزمنة التي تقدر العلم قدره، وتنزل العالم منزلته لابد وأن يكون طلابه كثر، ومريدوه وُفر. والذين نعرفهم من طلابه أربعة:

(أ) الشيخ كمال الدين المراغي:

هو عمر بن الياس بن يونس المراغي أبو القاسم الصوفي، كمال الدين. ولد بأذربيجان سنة (٦٤٣ هـ)، وقدم دمشق سنة (٧٢٩ هـ) وهو ابن نيف وثمانين سنة، وجاور قبل ذلك بالقدس ثلاثين سنة، وأقام قبلها بمصر خمس عشرة سنة[١]. قال الذهبي في معجمه: «كان شيخاً حسناً صالحاً خيراً له حظ من الاشتغال قديماً وحديثاً»[٢].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر نقلاً عن البدر النابلسي[٣] قال: «وسمع على القاضي ناصر الدين البيضاوي: المنهاج، والغاية القصوى، والطوالع»[٤].

وذكر تلمذته على البيضاوي الخوانساري حيث قال: «وأما طريقنا

---

(١) انظر: الدرر ١٥٦/٣.

(٢) انظر الدرر ١٥٦/٣.

(٣) هو القدوة الحسن بن محمد بن صالح القرشي المطلبي، بدر الدين النابلسي الحنبلي. ولد في أول القرن، واشتغل بالعلوم، ودَرَّس للحنابلة بمدرسة أم الأشرف بالتبانة. من مصنفاته: البرق الوميض في ثواب العيادة والمريض، وشمعة الأبرار ونزهة الأبصار، ومعجم شيوخ. توفي سنة ٧٧٢ هـ. انظر: الدرر ٣٦/٢، شذرات ٢٢٣/٦.

(٤) انظر: الدرر ١٥٦/٣.

إلى مصنفات الرجل (أي: البيضاوي) ومروياته - فإنما نرويها بأسانيدها المعتبرة عن شيخنا البهاتي رحمه الله... عن أبي الفضل بن حجر العسقلاني عن الميداني، عن عمر بن الياس المراغي عن القاضي ناصر الدين المذكور»[1].

(ب) الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني:

قال الدكتور علي محيي الدين حفظه الله تعالى: «ذكر ذلك العلامة أحمد بن عبد الرحمن الموصلي في إجازته للشيخ عماد الدين الأمهري حيث قال: والطريق الثاني أنني قرأت قراءة بحث على الشيخ الإمام العالم الكامل المحقّق المدقّق شمس الدين محمود الأصفهاني[2]، وهو بحثه عن والده القيم ابن أحمد، ووالده[3] على مصنفه القاضي ناصر الدين»[4].

(جـ) فخر الدين الجاربردي:

أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي، الإمام فخر الدين، نزيل تِبريز.

---

(١) انظر: روضات الجنات ٣/٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢) محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني، الملقب بشمس الدين، المكنى بأبي الثناء، الفقيه، الشافعي، الأصولي، النحوي، الأديب، المنطقي، الكاتب البارع. ولد بأصفهان سنة ٦٧٤ هـ، و نشأ بها، وقرأ على والده، وعلى جمال الدين بن أبي الرجاء وغيرهما. له مصنفات كثيرة، منها: تشييد القواعد في شرح تجريد العقائد، وشرح كافية ابن الحاجب، وشرح منهاج البيضاوي في الأصول، وغيرها. توفي رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٩ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٨٣، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/٧١، الدرر ٤/٣٢٧، الأعلام ٧/١٧٦.

(٣) أي: عبد الرحمن بن أحمد. فالضمير يعود على محمود، رحمهم الله جميعاً.

(٤) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٦٧.

تفقه على مذهب الشافعي، وفاق في العلوم العقلية[1].

قال ابن السبكي رحمه الله تعالى: «كان فاضلاً ديِّناً متفنِّناً، مواظباً على الشغل بالعلم وإفادة الطلبة. شرح «منهاج» البيضاوي في أصول الفقه، «وتصريف» ابن الحاجب، وقطعة من «الحاوي»، وله على «الكشاف» حواشٍ مفيدة، وقد أقرأه مراتٍ عديدة، بلغنا أنه اجتمع بالقاضي ناصر الدين البيضاوي وأخذ عنه، تُوفي بتبريز في شهر رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة»[2].

(د) زين الدين الهنكي:

ذكر الإمام ابن السبكي، والحافظ ابن حجر، وطاش كبري زاده عند ترجمتهم للقاضي عضد الدين الإيجي[3]: أنه تتلمذ على الشيخ زين الدين الهنكي تلميذ القاضي ناصر الدين البيضاوي. ولفظ «الهنكي» بالنون عند ابن السبكي وابن حجر، وبالباء الموحدة عند صاحب مفتاح السعادة، ولعلها تصحفت عن النون؛ إذ الأولان حافظان محققان[4]. ولم نعثر على ترجمة الشيخ زين الدين الهنكي.

---

(١) انظر: الدرر ١/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٩/٨ ـ ٩. وانظر ترجمته في: شذرات ٦/١٤٨، البدر ١/٤٧، الفتح المبين ٢/١٥٢.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، القاضي عضد الدين الإيجي. ولد بإيج من نواحي شيراز بعد سنة ثمانين وستمائة، وأخذ عن مشايخ عصره، وكان إماماً في المعقول قائماً بالأصول والمعاني والعربية، مشاركاً في الفنون. من مؤلفاته: شرح مختصر ابن الحاجب، والمواقف في علم الكلام، وغيرهما. جرت له محنة فمات مسجوناً في سنة ٧٥٦ هـ. انظر الدرر ٢/٣٢٢، الطبقات الكبرى ١٠/٤٦.

(٤) انظر: مفتاح السعادة ١/٢١١، والمرجعين السابقين.





الفصل الثاني
حياته العلمية وآثاره

المبحث الأول

ثقافته الواسعة والعلوم التي برز فيها

قال ابن حبيب الدمشقي[1]: «عالم نما زرع فضله ونَجَم، وحاكمٌ عظمت بوجوده بلاد العجم، برع في الفقه والأصول، وجمع بين المعقول والمنقول، تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته وفاه، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيزِ لفظُه المحررِ لكفاه»[2].

وقال السيوطي رحمه الله: «كان إماماً علامة، عارفاً بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق، نَظَّاراً، صالحاً، متعبداً، شافعياً»[3].

وقال الإسنوي رحمه الله: «كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً خيِّراً، صنف التصانيف المذكورة في أنواع العلوم»[4].

وقال ابن السبكي رحمه الله: «كان إماماً مُبَرِّزاً، نَظَّاراً، صالحاً،

---

(١) الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب بن عمر، المسند الأديب، المنشئ المؤرخ، بدر الدين ابن المحدث زين الدين. مولده في شعبان سنة عشر وسبعمائة. سمع من جماعة وأخذ الأدب عن ابن نباتة وغيره. من مؤلفاته تاريخ اسمه: «درة الأسلاك في دولة الأتراك». توفي بحلب في ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ. انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/٨٨، الدرر ٢/٢٩، البدر ١/٢٠٥.

(٢) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٢/١٧٢.

(٣) انظر: بغياة الوعاة ٢/٥٠، وكذا قال الداودي في طبقات المفسرين ١/٢٤٢، والصفدي نقله عنه الخوانساري في روضات الجنات.

(٤) انظر: طبقات الإسنوي ١/١٣٦.

متعبِّداً، زاهداً»[1] وسألقي بعض الضوء على علوم البيضاوي التي بَرَّز فيها وبَزّ، وألَّفَ فيها وفَذّ:

البيضاوي الأصولي:

يقول الدكتور جلال الدين عبد الرحمن حفظه الله: «درج القاضي ناصر الدين البيضاوي كأصولي على نهج الإمام فخر الدين الرازي، وتاج الدين الأرموي[2] وصنف على طريقتهما، وفي ظل تأليفهما جاءت تآليفه المشهورة في أصول الفقه، فشرح كلاً من «المحصول»، و «المنتخب» للإمام الرازي، وصنف كتابه «منهاج الوصول إلى علم الأصول» من كتابي «الحاصل» و «المحصول»، فكانا العمدة في اعتماده، والقدوة لآرائه وطريقته. كما شرح مختصر ابن الحاجب[3] الذي أعجبته طريقة الآمدي

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٥٧/٨.

(٢) هو محمد بن الحسين أو الحسن بن عبد الله، تاج الدين أبو الفضل الأُرْموي ـ بضم الهمزة وسكون الراء ـ نسبة إلى أرْمِيَة، مدينة عظيمة بأذربيجان. قيل: إنه ولد في سنة ٥٧٣ هـ، وتتلمذ على الإمام الرازي وهو من أكبر تلامذته. كان بارعاً في العقليات، عريض النعمة واسع الجاه، وفيه تواضع. من مؤلفاته: الحاصل من المحصول. توفي سنة ٦٥٣ هـ، وقيل: ٦٥٥ هـ، وقيل: ٦٥٦ هـ. انظر: مقدمة محقق كتاب الحاصل ٥٨/١ ـ ٦٠، ٥٦، ٨٥، ٩٧ ـ ٩٨، طبقات ابن قاضي شهبة ١٢٠/٢، طبقات الإسنوي ٢١٦/١، كشف الظنون ١٦١٥/٢، هدية العارفين ١٢٦/٦.

(٣) هو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، المشهور بابن الحاجب، الفقيه المالكي. ولد بإسنا ـ وهي بليدة صغيرة بالصعيد الأعلى من مصر ـ ثم انتقل به والده إلى القاهرة. كان رحمه الله إماماً فاضلاً فقيهاً أصولياً متكلماً نظّاراً متبحراً محققاً أديباً شاعراً. أخذ عنه كثير من العلماء منهم شهاب الدين القرافي وغيره. وقد صنف تصانيف غاية في التحقيق والإجادة منها: الكافية في النحو، =

في مصنفه «الإحكام في أصول الأحكام» فتتبعها في كتابيه: «المنتهى»، و«المختصر»، إلا أن صاحبنا لم يتأثر بها.

وقد اتخذ القاضي ناصر الدين البيضاوي طريقة الإمام التي اكتمل بها أصول الفقه، والتي جمع فيها بين طريقة الأشاعرة وطريقة المعتزلة، وأفرغ فيها الكتب المعتمدة الأربعة: «العهد»، و«المعتمد»، و«البرهان»، و«المستصفى»، وقد شُغف بها كل مَنْ جاء بعد الإمام الرازي، واتخذها القاضي ناصر الدين البيضاوي منهجاً له، فسار على غرارها»[1].

البيضاوي الفقيه:

أخذ البيضاوي الفقه عن والده، وقد أوردنا فيما سبق سنده في الفقه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد اختصر البيضاوي كتاب «الوسيط» للإمام الغزالي – رحمه الله – في كتابه «الغاية القصوى في دراية الفتوى». يقول الدكتور علي محيي الدين حفظه الله: «كتاب «الغاية القصوى» فيه الدلالة القصوى على مدى تمكنه من الاستنباط والترجيح، وما يتحلى به من قوة الأسلوب وجمال الرد»[2].

= والمقصد الجليل في العروض، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل، وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٦٤٦ هـ بالإسكندرية.

انظر: الديباج ٢/٨٦، وفيات ٣/٢٤٨، الفتح المبين ٢/٦٥.

(١) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٥٩.

وانظر أيضاً: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٨ - ٨١.

(٢) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٨١.

وقد شرح البيضاوي كتاب «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي[١] رحمه الله، في أربعة مجلدات، لكنه مفقود[٢].

البيضاوي المتكلم:

يقول الدكتور جلال الدين عبد الرحمن: «كما درج القاضي ناصر الدين البيضاوي على طريقة الإمام الرازي، وتاج الدين الأُرْموي – في أصول الفقه درج أيضاً على طريقتهما في أصول الدين، وصنف كتبه المشهورة: «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار»، و «الإيضاح»، و «مصباح الأرواح»، و «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى» – على طريقة الأُرْموي، وطريقة الرازي الذي يُعتبر إماماً في المعقولات»[٣].

والذي عُثر عليه من هذه الكتب الأربعة هو«طوالع الأنوار»، كما يقول الدكتور علي محيي الدين[٤]، و «الطوالع» مختصر في علم الكلام يقول الإمام ابن السبكي في حقه: «أما الطوالع فهو عندي أجل مختصر

---

(١) هو الشيخ الإمام المجتهد أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزأبادي الشيرازي الشافعي، نزيل بغداد الملقب بجمال الدين. ولد بفيروزأباد ـ بلدة قريبة من شيراز ـ سنة ٣٩٣ هـ. تتلمذ على أبي بكر البرقاني وأبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان وحيد عصره، وفريد دهره، ومستجاب الدعوة. من مصنفاته العظيمة: «المهذب في المذهب»، «اللمع»، و «شرحها» في أصول الفقه، «التبصرة»، وغيرها. توفي سنة ٤٧٦ هـ. انظر: سير ٤٥٢/١٨، الطبقات الكبرى ٢١٥/٤، طبقات الإسنوي ٧/٢، شذرات ٣٤٩/٣، الفتح المبين ٢٥٥/١.

(٢) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ٨١/١.

(٣) انظر: القاضي البيضاوي ص ١٦٢.

(٤) انظر: مقدمته على الغاية القصوى ٧٥/١.

أُلّف في علم الكلام»[1].

وقد شرح «الطوالع» شمس الدين الأصفهاني في كتابه «مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار»[2]، وهو مطبوع.

البيضاوي المفسِّر:

أقبل القاضي البيضاوي على تفسير القرآن في الحِقْبة الأخيرة من حياته، واعتمد في تفسيره على كتب ثلاثة: «الكشاف» للزمخشري[3]، و«التفسير الكبير» للرازي[4]، وتفسير الراغب الأصفهاني[5]. قال الحاج

---

(١) انظر: تعليق محقق الكتاب الطبقات الكبرى ١٥٧/٨، وهو نقلها عن «الطبقات الوسطى» للتاج رحمه الله تعالى.

(٢) انظر: مطالع الأنظار للأصفهاني ص ٤.

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري الخُوارَزْمي، أبو القاسم، وتلقب بجارالله لأنه جاور بمكة زماناً. ولد في رجب سنة ٤٦٧ هـ. وله من التصانيف: «الكشاف» في التفسير، «الفائق» في غريب الحديث، «المفصَّل» في النحو، وغيرها. توفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ.
انظر: وفيات ١٦٨/٥، بغية الوعاة ٢٧٩/٢، طبقات المفسرين ٣١٤/٢، لسان الميزان ٤/٦، الجواهر المضية ٤٤٧/٣، الأعلام ١٧٨/٧.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري الرازي، فخر الدين. ولد بالري سنة ٥٤٤ هـ. تفقه على والده عمر، وتلقى عليه أصول الفقه، ثم قصد الكمال السمناني وغيره بعد وفاة والده. وأخذ عنه ما لا يحصى كثرةً من فضلاء أهل زمانه. تبحر في شتى الفنون والمعارف. من تصانيفه: «التفسير الكبير»، و«المحصول» في أصول الفقه، وغير ذلك. توفي سنة ٦٠٦ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٨١/٨، سير ٥٠٠/٢١، وفيات ٢٤٨/٤، طبقات ابن قاضي شهبة ٦٥/٢، الفتح المبين ٤٧/٢.

(٥) هو العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل =

خليفة[1]:

«وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن غني عن البيان، لخص فيه من «الكشاف» ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن «التفسير الكبير» ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة، والتصرفات المقبولة، فجلا رَيْن الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشي:

أولو الألباب لم يأتوا ... بكشف قناعِ ما يُتلى
ولكن كان للقاضي ... يدٌ بيضاءُ لا تَبْلى»[2]

= الأصبهاني، الملقّب بالراغب، صاحب التصانيف. وقد ذكر السيوطي وتبعه الداودي أن اسمه: المفضل بن محمد الأصبهاني. من مصنفاته: «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، «جامع التفسير»، «المفردات في غريب القرآن». توفي سنة نيف وخمسمائة، وذكر بعض المؤرخين أنه توفي سنة ٥٠٢، وقيل غيرها.

انظر: سير ١٨/١٢٠، بغية الوعاة ٢/٢٩٧، طبقات المفسرين ٢/٣٢٩، كشف الظنون ١/٣٧٧، الأعلام ٢/٢٥٥.

(١) هو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، المعروف بالحاج خليفة. مؤرخ بحاثة، تركي الأصل، مستعرب. ولد بالقسطنطينية سنة ١٠١٧ هـ. تولى أعمالاً كتابية في الجيش العثماني. من مصنفاته: «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وهو أنفع وأجمع ما كتب في موضوعه بالعربية، و«سلم الوصول إلى طبقات الفحول»، وغيرهما. توفي سنة ١٠٦٧هـ بالقسطنطينية.

انظر الأعلام ٧/٢٣٦، مقدمة كشف الظنون للمرعشي ١/ و - ح.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/١٨٧.

وقد عَدَّ بروكلمن[١] الحواشي والتعليقات على هذا التفسير فبلغت ٨٣ حاشية[٢].

البيضاوي النحوي:

مما يدل على تمكنه في النحو اختصاره لكافية ابن الحاجب، وشرحه للكافية أيضاً، و«الكافية» من أعظم كتب النحو المؤلفة في القرن السابع، ويكفي لبيان أهميتها أن لها ١١٧ شرحاً، غير المختصرات والحواشي[٣]، وقد سمى البيضاوي مختصره هذا: «لب الألباب في علم الإعراب»[٤].

---

(١) كارل بروكلمن، مستشرق ألماني، عالم بتاريخ الأدب العربي. ولد في روستوك بألمانيا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م)، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، وأخذ العربية واللغات السامية عن «نولدكه» وآخرين، ودَرَّس في عدة جامعات ألمانية، وكانت ذاكرته قوية، يكاد يحفظ كل ما يقرأ، ودَرَّس العربية في معهد اللغات الشرقية ببرلين. صنف بالألمانية: «تاريخ الأدب العربي» في ملجدين، وأتبعهما بملحق في ثلاثة مجلدات، و«تاريخ الشعوب الإسلامية»، و «نحو اللغة العربية»، وغيرها. توفي سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م). انظر: الأعلام ٢١١/٥ ـ ٢١٢.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤١٨/٤ ـ ٤١٩ نقلاً عن الغاية ٧٧/١.

(٣) قد عَدَّ الدكتور موسى العليلي في تحقيقه لشرح الوافية نظم الكافية الشروح والمختصرات والحواشي على كافية ابن الحاجب فبلغت (١٢٤) انظرها في الكتاب المذكور ص (٢٧ ـ ٥١).

(٤) انظر نُسَخه الموجودة في: مقدمة محقق الغاية القصوى ٨٢/١، مقدمة محقق شرح الوافية نظم الكافية ص ٥٠، ولشرح البيضاوي على الكافية نسخة مخطوطة في مكتبة طوب قابي سرايي في استانبول، رقم ١٨٨٢، H، ٧٧٦٨). انظر: مقدمة محقّق شرح الوافية ص ٢٨. يقول الدكتور علي: «ورغم شغفنا الكثير بأن نرى له أحد شروحه فإننا لم نعثر عليه». مقدمته على الغاية ٨٣/١، ومثله الدكتور جلال الدين عبد الرحمن قال عن شرح الكافية للبيضاوي: «وهو من كتبه المفقودة». القاضي البيضاوي ص ٢٥٥. والحمد لله الذي هدى الدكتور موسى للعثور عليه.

البيضاوي المؤرخ:

ألف البيضاوي باللغة الفارسية تأريخاً من عهد آدم إلى العصر الذي عاش فيه، وسماه «نظام التواريخ»، وقد ذكر بروكلمن أنه أرخ إلى سنة ٦٧٤ هـ[(١)].

يقول الدكتور جلال الدين عبد الرحمن: «وقد اعتمد كتابه هذا كثير من المؤرخين ممن جاء بعده، فنقل عنه القرماني في تاريخه «أخبار الدول وآثار الأُول»، وأحمد بن زيني دحلان في «تاريخ الدولة الإسلامية»: ما ذكره عن إسلام «هولاكو» على يد بعض العارفين، وهو الذي لم يقف عليه غيره»[(٢)].

هذا عدا ما ألفه البيضاوي في شرح الحديث النبوي، إذ شرح مصابيح السنة للإمام البغوي[(٣)] رحمه الله، وشرح «مطالع الأنوار» لسراج الدين الأُرْموي[(٤)] في فن المنطق، كما ألف في علوم الفلك والإرصاد كتابين:

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤/٤١٨ - ٤١٩.

(٢) انظر: القاضي البيضاوي ص ١٦٥.

(٣) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، الشيخ الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام، الملقب بمحيي السنة، وبركن الدين. ولد سنة ٤٣٦ هـ، وتفقه على القاضي الحسين المروروذي شيخ الشافعية، وهو أخص تلامذته به. وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة. بُورك له في تصانيفه ورُزق فيها القبول التام لحسن قصده، وصدق نيته، ومنها: شرح السنة، معالم التنزيل، المصابيح، وغيرها. توفي سنة ٥١٦ هـ. انظر: سير ١٩/٤٣٩، الطبقات الكبرى ٧/٧٥، وفيات ٢/١٣٦، الأعلام ٢/٢٥٩.

(٤) محمود بن أبي بكر بن أحمد الأُرْموي، سراج الدين أبو الثناء، الشافعي. ولد سنة =

أولهما: مختصر في الهيئة. وثانيهما: شرح «الفصول» للطوسي[1]، وهو أهم كتاب في الهيئة. وألف في الفنون العامة رسالته «موضوعات العلوم وتعاريفها»[2].

= ٥٩٤ هـ، له تصانيف منها: «التحصيل من المحصول» في أصول الفقه، «البيان» و «المطالع» في المنطق، وغيرها. توفي سنة ٦٨٢ هـ بمدينة قونية.

انظر: الطبقات الكبرى ٨/٣٧١، كشف الظنون ٢/١٧١٥، الأعلام ٧/١٦٦.

(١) محمد بن عبد الله الطوسيّ، كان يُقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجا نصير الدين، اشتغل في شبيبته وحَصَّل على الأوائل جيداً، وصَنَّف في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووَزَر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وَزَر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغداد. تُوفي في بغداد في ثاني عشر ذي الحجة سنة ٦٧٢ هـ. انظر: البداية والنهاية ١٣/٢٨٣.

(٢) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٦، مقدمة محقّق الغاية القصوى ١/٨٤ - ٨٦.

المبحث الثاني

تقلده منصب القضاء

لا شك أنَّ تولي القضاء مع العدل والنزاهة، والديانة والأمانة – مرتبة عظيمة في الدين، ومنقبة كبيرة من مناقب المتقين؛ إذ التقوى لا تظهر إلا مع البلاء ومخالفة الهوى، ومصادمة أهواء أهل الدنيا.

وحُقَّ على مَنْ وجد في نفسه ذلك من أهل التقوى أن يقبل تولي تلك المناصب الخطيرة خشية أن يتولاها مَنْ رقَّت ديانته، وضعفت أمانته، فيضيع الدين والدنيا، ويشيع الفساد في الأرض، لكن مِن علامة صحة النية، وصدق السريرة: أن لا يجد التقيُّ مَنْ يكفيه البلية، ويُريحه من تلك المسؤولية، فلابد أن يكون كارهاً للمنصب، مبغضاً للشهرة، مُعرضاً عن ثناء الناس، قائلاً بالحق، مُنازِلاً لأهل الباطل قدر الطاقة والجهد، غير مريد الوصول إلى دنيا حقيرة، وأموال وشهوات خسيسة، قريباً من أهل الدين، بعيداً عن أهل الدنيا.

وظننا بالإمام القاضي البيضاوي رحمه الله أنه ما طلب القضاء لدنيا، ولا لجاه، ولا غير ذلك، بل طلبه لإقامة الحق، ونشر العدل، والدفاع عن الدين، ولا أدل على ذلك من أنه مكث في قضائه ستة أشهر ثم عزل، فلو كان من أهل الدنيا المنافقين لبقي دهراً[1]، ولَمَا وُصف بأنه: «قَابَل

---

(١) لا يقال: قد مكث مجد الدين الشيرازي ـ الذي عُزل بالقاضي البيضاوي ثم أعيد ـ =

الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز»[1]؛ ولذلك قال الشيخ المراغي رحمه الله: «ثم صرف عن القضاء لشدته في الحق»[2].

ومما يدل أيضاً على صدق نيته في طلب القضاء، ونزاهته وديانته - تركه للقضاء لما طلبه في المرة الثانية بعد عزله عن قضاء شيراز، بسبب كلمات ذلك العارف الذي طلب من السلطان: «أن يقطع قطعة من رباع جهنم لشخص كان يتوقعها من جنابك»، فلما قَبِل السلطان وأصدر مِنْ فوره الأمر بتوليه القضاء - رفض البيضاوي ذلك المنصب متأثراً بكلمات ذلك العارف، ثم لازم خدمته وصحبته؛ ليستفيد من معرفته وتقواه، وقد سبق ذكر هذه القصة كاملة في مبحث رحلاته.

وقد سبق أن بينت في مبحث رحلاته أنه ذهب إلى تِبريز في المرة الأولى طالباً قضاء شيراز، ولم يكن آنذاك قاضياً عليها، ومَنْ ظن بأنه ذهب إلى تبريز في المرة الأولى ليطلب إعادته لقضاء شيراز بعد عزله[3] - فظنه بعيد، ورواية ابن السبكي رحمه الله ليس فيها دلالة على ذلك، بل على

= سنين كثيرة في القضاء مع العدل والنزاهة؛ لأنَّ حكمنا أغلبي، مع أن القاضي مجد الدين - رحمه الله - عُزل، وحصلت له محن نَصَره الله فيها، وظهرت له كرامات أظهرت ولايته، فعظم قدره، واحترمه الخاصُّ والعام.

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٧٢/٢، شذرات ٣٩٣/٥.

(٢) انظر: الفتح المبين ٨٨/٢.

(٣) وهم: الدكتور جلال الدين عبد الرحمن. انظر: القاضي البيضاوي ص ١٤٩، والدكتور علي محيي الدين. انظر: مقدمته على الغاية القصوى ٩٢/١، والدكتور محمد الزحيلي. انظر كتابه: القاضي البيضاوي ص ٥٥، مقدمة د/ فتحية عبيد في تحقيقها مختصر تيسير الوصول إلى منهاج الوصول ٣٠/١.

نقيضه، إذ قال: «وَلِي قضاء القضاة بشيراز، ودخل تبريز، وناظر بها، وصادف دخولُه إليها مجلسَ درسٍ قد عُقد لبعض الفضلاء، فجلس القاضي في أُخريات القوم، بحيث لم يعلم به أحد... فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إلى جانبه، وسأله من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، وردَّه وقد قضى حاجته»[1].

فقول ابن السبكي رحمه الله: ولي قضاء القضاة بشيراز، ودخل تبريز... الخ - ليس فيه دلالة إطلاقاً على أنه ولي قضاء القضاة قبل الدخول؛ إذ إن ابن السبكي إنما أراد بكلامه هذا: ودخل تبريز... الخ بيان كيفية توليه لقضاء القضاة، وسؤال الوزير للبيضاوي عنه بقوله: من أنت؟ يدل على أنه لم يكن قاضياً على شيراز آنذاك، وإلا لعرفه الوزير، ولو جهل شخصه فلن يجهل اسمه؛ لكونه قاضي القضاة.

وقول ابن السبكي أيضاً: «وأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز» ظاهر في كونه ليس قاضياً عند طلبه، وإلا لقال: وأنه جاء في إعادته للقضاء، أو: جاء في أمر عزله عن القضاء. أو نحو ذلك من العبارات المشيرة إلى ذلك، وابن السبكي رحمه الله تعالى إمام في التدقيق فهو أصولي بارع، ومحدث بارز، ومؤرخ دقيق، وبعيد عليه إهمال مثل هذا: وهو عزله عن القضاء، وطلبه بعد ذلك؛ لأن العزل عن القضاء من الأحداث المهمة. وأما ما ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون (١/١٨٦)

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٥٨/٨.

وهو قوله: «ذكر التاج السبكي في «الطبقات الكبرى»: أن البيضاوي لما صُرِف عن قضاء شيراز رحل إلى تبريز...» فظاهر أن عبارة «لما صرف عن قضاء شيراز» من تصرفه، لا من كلام ابن السبكي رحمه الله، إذ العبارة ليست كذلك في «الطبقات الكبرى»، وقول الدكتور محمد الزحيلي حفظه الله: «والجملة الأولى[1] غير موجودة في «الطبقات الكبرى» للتاج السبكي المطبوعة الآن، ولعلها سقطت من المخطوطة»[2] احتمال بلا دليل، والنسخة المطبوعة محققة على نسختين مخطوطتين[3].

ويخدش في هذا الاحتمال أيضاً: أن الداودي ذكر هذه القصة، وعبارته كما هي في «الطبقات الكبرى» المطبوعة، وهو ناقل عنها[4].

هذا وقد سبق في مبحث أقران البيضاوي، في ترجمة القاضي مجد الدين الشيرازي: أن البيضاوي مكث في القضاء ستة أشهر، ثم عزل[5] رحمه الله رحمة واسعة، وألحقنا به والمسلمين في جنات النعيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) أي: في نقل الحاج خليفة عن «الطبقات الكبرى».

(٢) انظر كتابه: القاضي البيضاوي ص ٥٥.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٣١/١.

(٤) انظر: طبقات المفسرين ٢٤٢/١.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى ٤٠١/٩.

المبحث الثالث

مؤلفاته العلميـة

قد سبق ذكر مؤلفات عدة للقاضي البيضاوي رحمـه الله، وقـد شملت مؤلفاته فنوناً عديدة، وهي تدل على رسـوخه في العلـم، وتبحـره وتمكنـه، وسأذكر مجموع مؤلفاته التي ذكرتها المصادر التي بين أيـدينا، سـواء سـبق ذكرها أم لم يسبق، وهي:

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويـل. وهـو المعـروف بتفسـير البيضـاوي، وهو مطبوع.

٢- الإيضاح. وهو في أصول الدين، ولم يعثر عليه، كما سبق بيانه.

٣- تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة. في الحديث، ولم يُعثر عليه[١].

٤- تعليق على مختصر ابن الحاجب. في أصول الفقه، ولم يعثر عليه[٢].

٥- التهذيب والأخلاق. ولم يعثر عليه[٣].

٦- شرح التنبيه. في الفقه، ولم يعثر عليه[٤].

٧- شرح الفصول. في الهيئة والفلك، ولم يعثر عليه[٥].

---

(١) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٨٥.

(٢) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٩.

(٣) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٦.

(٤) انظر: مقدمة محقق الغاية ١/٨١.

(٥) انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٦.

٨- شرح الكافية. في النحو، وهو مخطوط.

٩- شرح المحصول. في أصول الفقه، ولم يعثر عليه[١].

١٠- شرح المطالع في المنطق. ولم يعثر عليه[٢].

١١- شرح مقدمة ابن الحاجب. في أصول الفقه، ولم يُعثر عليه[٣].

١٢- طوالع الأنوار. في أصول الدين، وهو مطبوع.

١٣- العين. في التفسير، ولم يعثر عليه[٤].

١٤- الغاية القصوى في دراية الفتوى. في الفقه، وهو مطبوع محقق.

١٥- لب الألباب في علم الإعراب. وهو مخطوط.

١٦- مختصر في الهيئة. ولم يعثر عليه[٥].

١٧- مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام. في أصول الفقه، وهو شرح لمختصر ابن الحاجب، ولم يعثر عليه[٦].

١٨- مصباح الأرواح. في أصول الدين، ولم يُعثر عليه[٧].

١٩- منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى. في أصول الدين، ولم يعثر عليه[٨].

---

(١) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٩.

(٢) انظر :مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٨٥.

(٣) انظر: مقدمة محقق الغاية ١/٧٩.

(٤) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٨.

(٥) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٨٦، القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه :١٦٦.

(٦) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٩.

(٧) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٥.

(٨) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٧٥.

٢٠- منهاج الوصول إلى علم الأصول. في أصول الفقه، وهو مطبوع.

٢١- موضوعات العلوم وتعاريفها. وهو مخطوط[١].

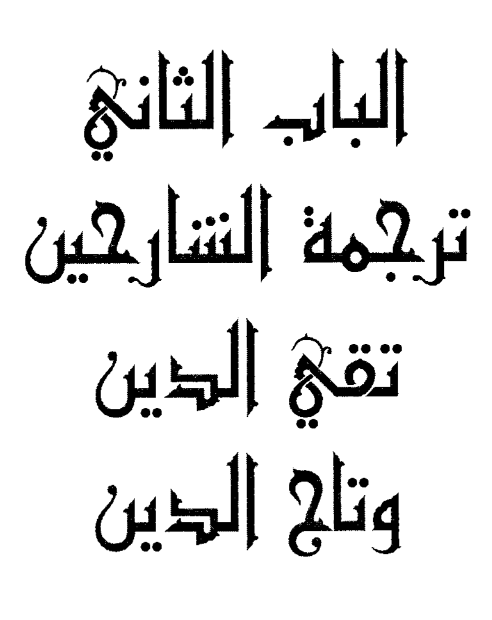
٢٢- نظام التواريخ. في التاريخ، وهو مطبوع[٢].

---

(١) انظر: مقدمة محقق الغاية القصوى ١/٨٦، القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٦

(٢) انظر: مقدمة محقق الغاية ١/٨٤، القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ١٦٦




الباب الثاني
ترجمة الشارحين
تقي الدين
وتاج الدين





الفصل الأول
بيان العصر الذي نشأ فيه الشارحان

المبحث الأول

الحيـاة السياسيــة

عاش الإمامان تقي الدين السبكي وابنه تـاج الـدين ـ رحمهمـا الله ـ في فترة من الزمن كان العالم الإسلامي فيهـا متـأثراً بـأحوال سياسـية مضـطربة مرت به من قبل، ولا زال أثرها باقياً، حيث قد تعـرض لهجمـات وحشـية في مطلع القرن السابع الهجري سنة ٦١٦ هـ، قام بها المغـول الـذين قـدموا مِن أقصى الشرق، واجتاحوا العالم الإسلامي، وعاثوا فيـه فساداً، وأشاعـوا فيه الرعب والخوف بين الناس، بقيادة طاغيتهم المفسد «جنكيزخـان»، ولم يكن قصدهم الفتح والاستيطان، ولا الغُنْم والاستلاب فحسب، بـل إراقـة الـدماء، وتعـذيب الأرواح، ودَرْس الـبلاد، وملاشـاة العمـران، فـذبحوا الشعوب، ودَكُّوا المدن، بحيث لم تـنج بـلاد حَـلَّ فيهـا المغـول مـن الهـول، وكان شأنُهم في قطر شأنَهم في سائر الأقطار.

ولمـا مـات جنكيزخـان عـام ٦٢٦ هـ تـابع أولاده اجتيـاح الأقـاليم الإسـلامية ونهـب خيراتهـا، وإذلال أهلـها، إلى أن تـولى حفيـده هولاكـو القيادة عام ٦٥٤ هـ، وسار على نهج جده في القتل والإبـادة، وكلمـا مرَّ على مدينة خَرَّبها وأذل أمراءها وحكامها، وضرب عُنَق مَنْ عصـى منـهم، وسفك الدماء، وغصب الأموال.

ثم أغار هولاكو على بغداد بالتآمر مع الوزير ابن العلقمي الرافضي[1] ـ قبحه الله ولعنه ـ فاستولى عليها، وقتل الخليفة المستعصم[2]، آخر خلفاء بني العباس، وأنهى الخلافة العباسية.

قال ابن السبكي رحمه الله: «واستمر القتل ببغداد بضعاً وثلاثين يوماً ولم ينج إلا مَن اختفى. وقيل: إن هلاكو أمر بعد ذلك بِعَدِّ القتلى، فكانوا ألف ألف وثمانمائة ألف، النصف من ذلك تسعمائة ألف، غير من لم يُعَدّ ومَنْ غَرِق»[3].

وكان جيش المغول يبني الإصطبل لخيله من الكتب، وأُلقيت ملايين الكتب في دجلة، وأقاموا بها ثلاثة جسور.

وبعد أن ملك هذا الطاغية جميع العراق، توجه إلى الشام فملك حلب وبعض الشام وجملة من أراضي الروم، ونفذت مفاتيح دمشق وحماة إلى

---

(١) هو محمد بن أحمد، مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي، وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، مع أنه من الفضلاء في الإنشاء والأدب، وكان رافضياً خبيثاً رديء الطوية على الإسلام وأهله. مات كمداً في جمادي الآخرة سنة ٦٥٦ هـ. انظر: البداية والنهاية ١٣/٢٢٥، شذرات ٥/٢٧٢.

(٢) هو الخليفة الشهيد أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر محمد الهاشمي العباسي البغدادي. ولد سنة ٦٠٩ هـ. كان فاضلاً متديناً، لكن فيه لين وعدم تيقظ، ومحبة للمال وجمعه، واستبد بالأمور في عهده ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل. قتلته التتار في صفر من سنة ٦٥٦ هـ. انظر: سير ٢٣/١٧٤، البداية والنهاية ١٣/٢١٧، شذرات ٥/٢٧٠.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٨/٢٧١.

هولاكو، وتسلم قلعة بعلبك، وأخذ نابلس بالسيف، وكاد الأمر يتم للتتار، ولولا هذا النصر الذي حققه المماليك لدمَّر التتار مزيداً من تراث المسلمين وحضارتهم. وقد كان المماليك أولَ مَنْ وقف في وجه التتار، فلم يؤثر في نفوسهم ما ذاع عنهم، ولم يَفُتَّ في عَضُدهم، وانضم إليهم الكثير من أمراء الشام وجنوده، وتوجه الجيش الإسلامي من مصر بقيادة الملك المظفر قطز[١]، والتقى الجمعان فأنزل جند الله بالتتار هزيمة نكراء عند عين جالوت[٢]، وذلك في العشر الأخير من رمضان سنة ٦٥٨ هـ، وأخذوا في التراجع والتقهقر، وأرسل المظفر قطز قائده بيبرس[٣] في ملاحقة التتار وطردهم، فاستخلص الشام برمته من أيديهم.

---

(١) هو السلطان الشهيد الملك المظفَّر سيف الدين قُطُز بن عبد الله المُعِزِّي. كان شجاعاً بطلاً، كثير الخير، ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيراً. وثب عليه بعض الأمراء وهو راجع إلى مصر فقتله، وذلك في شهر ذي القَعْدة، سنة ٦٥٨ هـ، ولم يكمل سنة في السلطنة. انظر: سير ٢٣/٢٠٠، البداية والنهاية ٢٣٨/١٣، شذرات ٢٩٣/٥.

(٢) قال ياقوت الحمويُّ في معجم البلدان ١٧٧/٤: «عَيْنُ الجالوت: اسم أعجميٌّ لا ينصرف، وهي بُليدة لطيفة بين بَيْسان ونابُلس من أعمال فلسطين... ».

(٣) هو الملك الظاهر، والسلطان الكبير، ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري ثم الصالحي. كان شجاعاً فارساً مقداماً، يُضرب بشجاعته المثل، له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحايين لَعُدَّ مِن الملوك العادلين. وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - كثيراً من مواقفه الحسنة التي تدل على حسن طويته وسريرته. توفي سنة ٦٧٦ هـ. انظر: شذرات ٣٥٠/٥، البداية والنهاية ٢٩٠/١٣.

هذا وكانت الصليبية الحاقدة قد نظمت جيشاً قوياً في مطلع القرن السابع الهجري بعد أن عرفت بضعف المسلمين وتناحرهم؛ للهجوم على مصر والشام واحتلالهما، ثأراً لما أصابها أيام السلطان صلاح الدين[1] الأيوبي، واحتلالاً للديار المقدسة، فنزل جيشهم قرب دمياط، واحتلوها بعد قتال وحصار، وقتلوا أكثر أهلها عام ٦١٥ هـ، ثم هزمهم المسلمون، فأعادوا الكرة واستخدموا المكر والحيلة، واستلموا القدس عام ٦٢٦ هـ، وقلعة صفد عام ٦٢٨ هـ، واتجهوا ثانية إلى دمياط عام ٦٤٧ هـ، فانهزموا ورُدوا على أعقابهم، وطهر الله الأراضي الإسلامية منهم.

هذان الحدثان العظيمان هما أهم الأحداث التي حصلت في القرن السابع، واللذان كان لهما الأثر الواضح في الأحداث بعدهما في القرن الثامن، وقد برز في خلال هذين الحدثين دور المماليك العظيم الذين كانوا جنوداً للأيوبيين، ومماليك مُسْتَرَقِّين لهم، وكان الأيوبيون في حالة من الضعف والتناحر، مما أدى إلى زوال دولتهم لا سيما مع الأحداث الجسام، وظهور دور المماليك البارز، فكانوا خلفاً لسادتهم الأيوبيين في الملك.

(١) هو السلطان الكبير، الملك الناصر، صلاح الدين، أبو المظفر يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي الدُّوَيْني، ثم التكريتي المولد. ولد سنة ٥٣٢ هـ. كان خليقاً للإمارة، مهيباً شجاعاً حازماً، مجاهداً كثير الغزو، عالي الهمة، وكان ردءاً للإسلام، وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام. توفي سنة ٥٨٩ هـ. انظر: سير ٢١/٢٧٨، البداية والنهاية ١٣/٣.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية

لم يكن عصر المماليك ـ وهو العصر الذي نشأ فيه الشارحان ـ عصراً عادياً من العصور الهادئة أو الخامدة في التاريخ، وإنما هو عصر حركةٍ دائمة، ونشاطٍ دائب: في الخارج حروبٌ وتوسعٌ وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى. وفي الداخل حياةٌ صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية. فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانةً هامة بارزة في التاريخ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب، بل تاريخ العالم أجمع أواخر العصور الوسطى. وخير شاهدٍ على ذلك تلك السفارات العديدة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة مِنْ قِبَل ملوك الشرق والغرب جميعاً، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقّاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة[١].

وقد ألقينا الضوء على جهاد المماليك وبلائهم ضد التتار والصليبيين في المبحث الأول، وسنلقي الضوء في هذا المبحث على الحياة الاجتماعية في

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام، صفحة (هـ)، د.سعيد عاشور.

عصر المماليك، بادئين بالكلام على الحياة الاقتصادية؛ إذ هي أهمُّ ما يَمَسُّ حياة المجتمع بعد الدين والأخلاق.

الحياة الاقتصادية في العصر المملوكي:

غدت مصر والشام في عصر المماليك قَصَبة التجارة العالمية، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب، الأمر الذي يجعلنا نفسِّر في ضوئه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك، وذلك الثراء الضخم وما ارتبط به من مظاهر السَّعَةِ والأُبَّهة الذي اتصف به عصرهم. وما زالت مُخَلَّفات وآثار المماليك مِنْ جوامع شامخة، وقصور فخمة، ومصنوعات فنية دقيقة، فضلاً عما حفلت به مراجع العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض... ما زال ذلك شاهداً على أنَّ ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر، وأصاب المحكومون بعضاً مِنْ فتاتها[1].

لقد عُنِي المماليك بأوجه الاقتصاد المختلفة من زراعة وصناعة بأنواعها المختلفة، وتجارة داخلية وخارجية، حتى غدت مصر والشام في عصرهم أهم مراكز التجارة في العالم أجمع.

ففي الزراعة:

اهتم سلاطين المماليك بالزراعة اهتماماً كبيراً، حيث إن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان، والمورد الأول الذي

---

(١) العصر المماليكي في مصر والشام، صفحة (د).

عاش عليه معظم الأهالي، والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر إقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قُسِّمت إلى أربعةٍ وعشرين قيراطاً، اختَصَّ السلطانُ نفسَه بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة، وما تبقّى كان من نصيب الأجناد[1].

ولقد زاد محصول الأراضي الزراعية في عصر المماليك نتيجةً للعناية بمرافق الزراعة من جسورٍ وتُرَعٍ ومقاييس النيل وغيرها.

والجسور في ذلك العصر نوعان:

الجسور السلطانية: وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة، التي تُعمر في كل سنة من الديوان السلطاني.

والجسور البلدية: وهي الخاصة ببلدٍ دون بلد، ويتولى عمارتها الأمراء والأجناد وغيرهم من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم.

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجسور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة عدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لعمارة الجسور، ويُعَبَّر عن الأمير منهم باسم «كاشف الجسور»، كما كان للجسور خَوَلة ومهندسون لكل عمل، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها. وعُرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يَخْرجون بأنفسهم أحياناً لتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور كالسلطان الناصر محمد.

---

(١) العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٨٣.

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر فمنها القمح الذي كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً، وعندئذٍ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنُّوبَة[1] بمقادير وفيرةٍ منه. كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك، وكانت تصدَّر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة. واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية، وهذا كله فضلاً عن الزهور والرياحين التي زُرعت في الحدائق والبساتين. وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد.

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية عُنِي السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية، فأكثروا من نتاج الأغنام وجَلْب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها.

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها في عصر المماليك لا تعني بأي حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم، فالفلاح المصري عاش في ذلك العصر قِنًّا مربوطاً إلى الأرض التي يَفْلَحها ويُفني حياته في خدمتها، وليس له من خيراتها إلا القليل؛ ذلك أن خيرات البلاد ومحصولات الأراضي الزراعية كانت في الواقع نهباً موزَّعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، في حين لم يبق للفلاحين سوى الكدِّ والعمل ودفع ما

---

(١) النوبة، بضم النون، وسكون الواو: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر بعد أسوان. انظر: معجم البلدان ٣٠٩/٥.

يُطلب منهم من أموال وهم صاغرون[1].

وأما الصناعة:

فقد ازدهرت في عصر المماليك نتيجةً لكثرة الثروة. والمعروف أن الصانع أو الفنَّان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأنَّ إلى أنه سيجني في النهاية ثمنَ أتعابه، ويتقاضى جزاءً يناسب ما يبذله من جهدٍ ووقت، ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية فإنه يفكِّر في اقتناء الكماليات، ولا يضن بمالٍ يبذله في شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذي أثَّر في ارتقاء الصناعة والصُّنَّاع على عصر المماليك عندما فاضت الخزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلَّفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأواً بعيداً في الدقة والإتقان.

ومن المعلوم أن دولة المماليك دولةٌ حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة[2]، وأثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاءها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددتهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى. هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثِّلون طبقةً حربية تعتمد على الفروسية، ويستطيع كلٌّ فردٍ فيها أن يصل إلى أسمى الدرجات، ويحقِّق أضخم الآمال

(١) انظر: العصر المملوكي في مصر والشام ص٢٨٥ ـ ٢٨٨.

(٢) انظر: معركة المنصورة في العصر المماليكي ص٧ ـ ٨.

بفضل مهارته في القتال، واستعمال القوس والنشاب والحربة.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي لدولة المماليك، وقد وُجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذَخَر بالأسلحة المتنوعة، وبالصُّنَّاع الذين كانوا يصنعونها، فإذا حدثت فتنة أو نشبت حربٌ هَرَع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق، وعندئذٍ يرتفع سعر الحديد، وأجور الحدَّادين وصُنَّاعِ آلات السلاح؛ لإقبال الناس على شرائه.

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حَرِص سلاطين المماليك على إنشاء أسطول بحري قوي يحمي شواطئ دولتهم الواسعة، ويَصُدُّ غارات المعتدين، ويؤدِّب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية في البحر المتوسط.

وكانت السفن الحربية على أنواع، منها الشواني والحراريق والطرائد:

أما **الشواني**: فكانت أعظمها شأناً، وهي مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقِلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالأقواس والسهام والحِراب، وفي الطبقة السفلى الملاَّحون بالمجاديف.

وأما **الحراريق**: فكانت أقلَّ حجماً، وهي بمثابة ناقلات الجند والذخيرة، فكان يُحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاً عن الذخيرة والبارود والنفط.

أما **الطرائد**: فهي السفن الخاصة بحمل الخيل، وكانت تتسع لنحو أربعين فرساً، وأحياناً لثمانين فرساً[1].

هذا عن الصناعات الحربية، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة، وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك، ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات، مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط[2]، والقماش الدبيقي نسبةً إلى دَبِيق[3]. وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها.

وسواءٌ كانت الأقمشة التي صُنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة، وثبات الألوان، وجودة الخامة، ومتانة النسج، كما تشهد على ذلك قِطَع النسيج المتبقاة من ذلك العصر.

كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش، والستور،

---

(١) انظر: العصر المماليكي ص٢٨٨ - ٢٩١.

(٢) الفسطاط: هي المدينة التي بناها عمرو بن العاص - ﷺ - في مصر، وسبب تسميتها بالفسطاط أن عمرو بن العاص نصب فسطاطه في تلك البقعة، ثم أمر المسلمين أن يحيطوا حول فسطاطه ففعلوا. انظر: معجم البلدان ٤/٢٦٣ - ٢٦٤، حسن المحاضرة ١/٢٥.

(٣) قال ياقوت رحمه الله: «دَبِيقٌ: بُليدة كانت بين الفَرَما وتِنِّيس من أعمال مصر، تنسب إليها الثياب الدبيقية، والله أعلم». معجم البلدان ٢/٤٣٨.

والخيام، والفساطيط، والحبال المكسوة بالقطن والحرير.

ولم تكن العنايةُ بصناعة المعادن في عصر المماليك أقلَّ منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفةٍ خاصةً في صناعة الثُّرَيَّات والأواني المنزلية والأباريق والصحون والطسوت وغيرها.

كذلك استخدم النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء، وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يُعَدُّ على هيئة صفائح رقيقة مُقَسَّمة إلى أشكال هندسية بديعة المنظر، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مِصْراعين مُصَفَّحَيْن بصفائح من النحاس، منقوشة برسومات عربية رائعة، تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون.

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي، وتشهد بذلك أعداد المِشْكاوات الزجاجية المحفوظة بدور الآثار، والتي تمتاز بجمال أشكالها، وانسجام زخرفتها، وإتقان صنعها.

وبالإضافة إلى ذلك صُنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في الشبابيك، وكذلك بعض أنواع البلور الصخري المحبَّب.

أما الخزف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعته في العالم الإسلامي، ومنها انتشر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى.

وبلغت المصنوعات الخشبية درجةً كبيرة من التقدم في عصر المماليك، واتبع المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق.

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافّة الصناعات الصغيرة التي ازدهرت في عصر المماليك، ولكن يكفي أن نختتم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر، ويذكر المقريزي[1] أنه كان في سَمْهود[2] سبعة عشر معصراً لعصير القصب، كما كان في ملوى عدة معاصر.

هذا عن الصناعة، أما الصُنَّاع وأصحاب الحِرَف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يُكَوِّنون نقابةً خاصةً بهم، لها نظام ثابت يحدِّد عددَهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعضٍ من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحيةٍ ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحيةٍ ثالثة، ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشاكل أفراد النقابة، ويرجعون إليه في كل ما يهمهم.

ولما كان دخول أيِّ فردٍ غريبٍ في حِرْفةٍ من الحِرَف يؤدي إلى منافسة

---

(١) هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي، البعلي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ويعرف بابن المقريزي وهي نسبة لحارة في بعلبك تُعرف بحارة المقارزة. ولد سنة ٧٦٦هـ بالقاهرة.

من تصانيفه: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وعقد جواهر الأسفاط في ملوك مصر والفسطاط، والسلوك بمعرفة دول الملوك، والتاريخ الكبير، وغيرها. مات سنة ٨٤٥هـ. انظر: الضوء اللامع ٢/٢١، حسن المحاضرة ١/٥٥٧، معجم المؤلفين ٢/١١.

(٢) سمهود: بفتح السين وبالدال في آخرها على المشهور، ويقال بالطاء بدل الدال: قرية كبيرةٌ غربيَّ نيل مصر بالصعيد. انظر: تاج العروس ١٠/٢٩٨، مادة (سمهط)، معجم البلدان ٣/٢٥٥ .

أصحابها الأصليين ـ فإنهم كانوا لا يُمَرِّنون أحداً على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم، ولا يسمحون لأي شخصٍ في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة[1].

التجارة الخارجية:

شاءت الأقدار أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن السابع الهجري مصحوباً بازدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب، ذلك أنه لم يكد يمضي على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى، فضلاً عن بلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لدولته في الشرق الأوسط، وبذلك اضمحل طريق التجارة البري بين الصين من جهةٍ، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهةٍ أخرى.

وقد ترتب على غزوات المغول انعدام الأمن في تلك الطرق، واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة. وكان ذلك في الوقت الذي قَلَّ فيه إقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسيّ، بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين في ذلك الخليج، ومِنْ ثَمَّ تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات، مما أدى إلى انتعاش طريق البحر الأحمر ـ مصر، الأمر الذي أتاح لسلاطين المماليك في مصر

---

(١) انظر: العصر المماليكي ص٢٩١ ـ ٢٩٦.

فرصةً ذهبيةً للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب، وذلك بتنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق، فقام السلطان قلاوون يتودد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسِّن علاقته بحكامها، فأرسل يعاهد ملك اليمن على التحالف والمودة وبعث إليه بالهدايا، وكذلك فعل مع شريف مكة.

على أنَّ جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجاري بين الشرق والغرب كان يتطلب أمرين:

أولهما: تأمين طرق التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر إلى موانئ البحر المتوسط.

وثانيهما: إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطلّة على البحر الأحمر، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق.

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاوون ومَنْ خَلْفه مِنْ سلاطين المماليك حرصوا على أن يضربوا بيدٍ من حديدٍ على العابثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب، حتى أن قوافلَ الحجاج نفسَها لم تسلم من عبثهم.

وأما عن الأمر الثاني فإن السلطان قلاوون أرسل إلى نُوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم، ومراعاة

العدالة فيما يَجْبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية.

وفي الوقت الذي دأب سلاطين المماليك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر، حرصوا أيضاً على الترحيب بالتجار الأوروبيين الذين يفدون إلى الإسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق، ولا أدل على اتساع أفق سلاطين المماليك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري، من أنهم فَرَّقُوا بين الحرب والتجارة، فقدموا كافَّة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين ومِنْ خلفهم الغرب الأوروبي.

وقد ترتب على تشجيع سلاطين المماليك للتجار الأوروبيين على القدوم إلى مصر أن كَثُر عددهم، وقد قدَّر بعض الباحثين الأوروبيين عددَ الأجانب في الإسكندرية وحدها في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد (أي: أوائل القرن الثامن الهجري) بحوالي ثلاثة آلاف تاجر أوروبي. وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب قُنصل يشرف على شؤون أفراد الجالية ومصالحِهم، وإذا ما حدث مِنْ طائفةِ أحدِهم ما يشين الإسلام يُطلب منه الكفُّ عن ذلك. واتخذت كلُّ جاليةٍ لنفسِها فُندقاً أو أكثر ينزل فيه أفرادها، ورُتِّبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكلٍّ منها إدارة مستقلة، على رأسها مدير يدير شؤون الفندق.

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء

الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ولم يدِّخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان[1].

التجارة الداخلية:

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك، فاشْتَهَرت المدنُ المصرية ـ وعلى رأسها القاهرة ـ بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميَّز، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوقٍ منها اختص بنوعٍ معيَّن من البضائع، فسوق الشمَّاعين اختص ببيع الشمع، وسوق النحَّاسين اختص ببيع النحاس، وهكذا.

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها؛ لأن منافسيه على مقربةٍ منه، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوعُ السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة. أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع فعليه أن يقطع المدينة كلها طولاً وعرضاً حتى يقضي حاجاته؛ لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوعٍ واحدٍ من البضائع.

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها، منها بالقاهرة سوق

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٩٦ ـ ٣٠١، ٣٠٣.

باب الفتوح، وسوق بين القصرين، وسوق باب الزهومة، وكلها اشْتَهَرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان... فضلاً عن اكتظاظها بجمهور المشترين.

أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة، وعُرف هذا السوق باسم دار التفاح، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة، حيث يتفنن الباعة في عرضها، ويتأنقون في تنضيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار.

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك واليمنيين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلدٍ واحدٍ كانوا ينزلون في وكالةٍ معينة حيث يألفون بعضهم ببعض، فوكالة قوصون مثلاً كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام، مثل: الزيت والصابون والفستق واللوز والجوز وغيرها، وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يضع أمواله وبضائعه في مأمن من كل سوء، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من عبث العابثين، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها.

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيبٍ أو حسيب، وإنما عَهِدوا إلى المُحْتَسِبِين بالطواف ليلاً ونهاراً للتفتيش على الباعة، وضبط مَن يحاول التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة. وقد رُوعي في المحتسِب دائماً أن يكون ذا رأيٍ وصرامةٍ وخشونةٍ

في الدين. وكانت رقابة المحتسِب أشدَّ ما تكون على الأطعمة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرقات؛ للتأكد مِنْ سلامتها ونظافتها، حرصاً على صحة الناس، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدة[1].

وبعد هذه الدراسة الموجزة عن الحياة الاقتصادية في عصر المماليك نتكلم عن الأحوال الداخلية للمجتمع.

بناء المجتمع:

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات.

وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كبيراً بين الحكام والمحكومين، وبخاصة إذا كان الحكام أغراباً عن البلاد وأهلها، لم تربطهم بأبناء مصر والشام رابطة الدم أو الأصل والجنس، مما جعل المماليك لا يشعرون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي، والعطف على مصالحهم، والعمل من أجل رفاهيتهم.

والواقع أن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة، استأثروا بالحكم وبشؤون الحرب، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقلُّ منهم درجة أو درجات، لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية،

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٠٨ - ٣١٠.

وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شؤون الحكم فبالقدر المحدود الذي تخوِّله صلاحيتهم. وتشير الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، بل كان منهم التركي والجركسي والمغولي والصيني والأسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق إلى مصر. وقد شجع التجارَ على مزاولة تلك التجارة الأرباحُ الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها، إذ لم يضن سلاطين المماليك وأمراؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكونوا لهم سنداً ودعامة تقوِّي مركزَهم داخلَ البلاد وخارجَها. وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينحط سعره، ولعل هذا هو السر في أن مملوكاً مثل قلاوون عُرف بالألفي؛ لأنه اشْتُرِي بألف دينار، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر؛ لأنه يشير إلى عِظَم مواهبه وحُسْن صورته.

وقد عُني سلاطين المماليك عنايةً فائقة بمماليكهم، وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة، فإذا اشترى السلطان عدداً من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم، وبعد ذلك يُنزل كلاً منهم في طبقة جنسه بحيث لا يقيم في طبقةٍ من الطباق المخصَّصة للمماليك بالقلعة إلا المماليك ذوي الأصل المشترك أو المجلوبين من بلدٍ واحد. ويقوم بتربية المماليك في الطباق مجموعة من الطواشية الخِصْيان، فضلاً عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والخط وأحكام الدين الإسلامي، ثم إن الأساتذة ـ من سلاطين وأمراء ـ لم يضنوا على مماليكهم

بالأرزاق والأموال، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة مشبعة بالعطف والحنان، فخصصوا لهم أشهر الأطعمة وصرفوا لهم الكسوات الفاخرة.

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنونَ الحرب والفروسية، حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباق وانتقل في أدوار الخدمة السلطانية رتبةً بعد أخرى حتى يُصبح من الأمراء، وعندما يغادر المملوك الطباق تُعطى له جامكية(١) أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط، ولكنه سرعان ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات(٢) ثم الطبلخانات(٣)، وعندئذٍ يصبح الأمير سلطاناً مختصراً.

وإلى جانب طبقة المماليك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المُعَمَّمِين أو أهل العمامة، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب. والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر المماليك بميزات معيَّنة على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحياناً. ويبدو أن المماليك أحسوا دائماً بأنهم غرباء عن البلاد

---

(١) الجامكية: وجمعها جوامك، الراتب المربوط لشهر أو أكثر. انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٤٢٦.

(٢) إمرة العشرات: هي درجة من درجات الإمارة، وعدة كل إمرة عشرة فوارس. انظر: صبح الأعشى ٤/١٥.

(٣) أمراء الطبلخاناه: هم أعلى رتبةً من أمراء العشرات؛ لأن عدة كلٍّ منهم في الغالب أربعون فارساً، وقد يزيد بعضهم إلى سبعين أو ثمانين فارساً. ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكُشَّاف بالأعمال، وأكابر الولاة. انظر: صبح الأعشى ٤/١٥.

وأهلها، وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم، ويستعينون بها على إرضاء الشعب، فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء، بحكم ما للدين ورجاله من قوةٍ وأثر. فالمماليك احترموا العلماء ورجال الدين؛ لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد، ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون.

ومن جهةٍ أخرى فإن المُعَمَّمين اعتدوا بمكانتهم في عصر المماليك فعمدوا أحياناً إلى معارضة السلاطين في الحق، حتى حكى ابن بطوطة[(١)] عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال: إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريريّ[(٢)] قاضي قضاة الحنفية. على أن هذه المكانة الكبرى التي

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله ابن بطوطة. رحَّالة، مؤرخ. ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى سنة ٧٠٣هـ. وخرج منها سنة ٧٢٥هـ ورحل إلى المشرق فطاف بالبلدان، ولقي من الملوك والمشايخ خلقاً كثيراً. ثم رجع إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده، وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزيٍّ الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـ، وسماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية ونشرت أيضاً. واستغرقت رحلته ٢٧ سنة. ومات في مراكش سنة ٧٧٩هـ.
انظر: الدرر ٤٨٠/٣، الأعلام ٢٣٥/٦، معجم المؤلفين ٢٣٥/١٠.

(٢) هو محمد بن عثمان بن أبي الحسن بن عبد الوهاب الأنصاري القاضي شمس الدين بن صفي الدين الحريري الحنفي، كان أبوه يتجر في الحرير. ولد سنة ٦٥٣هـ. ولي قضاء دمشق، ثم طُلب إلى مصر فولي القضاء بها سنة ٧١٠هـ. له شرح على الهداية، ومصنف في منع استبدال الوقف. توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر: الدرر ٣٩/٤، الجواهر المضية ٢٥٠/٣، معجم المؤلفين ٢٨٢/١٠.

وصل إليها العلماء في عصر المماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم.

ولم يرض المماليك أن تشاركهم فئةٌ من السكان في ركوب الخيل، فاشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها، وكثيراً ما انسابت جموع المماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها.

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين المماليك؛ لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يمدهم بالمال في ساعات الحرج والشدة، وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا في عصر المماليك بثروات طائلة، وهذا أمر طبيعي في عصرٍ كانت مصر حلقة النشاط التجاري بين الشرق والغرب. على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين المماليك، فأكثروا من مصادرتهم بين حينٍ وآخر، فضلاً عن إثقالهم بالرسوم الباهظة؛ لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك على أموالهم وتجارتهم، بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكُّم الظلمة فيهم[1].

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٢٠ - ٣٢٤.

المبحث الثالث

الحياة العلمية والدينية

الحق أن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً لنشاط علمي واسع، يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية، وكتب تاريخية، ومؤلفات في العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر.

ويربط السيوطي بين هذا النشاط العلمي الواسع في مصر بالذات على عصر المماليك، وبين إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد أن سقطت في بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية في مصر غدت هذه البلاد محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء.

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمي أن يزدهر في مصر في عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء، وقد وصف أبو المحاسن[1] السلطانَ الظاهرَ بيبرس بأنه كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً

---

(١) هو يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن جمال الدين. مؤرخ بحّاثة؛ ولد بالقاهرة سنة ٨١٣هـ. تفقّه وقرأ الحديث وأُولع بالتاريخ وبرع في فنون الفروسية، وصنف كتباً نفيسةً منها: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي»، «نزهة الرائي». توفي سنة ٨٧٤هـ. انظر: الضوء اللامع ١٠/٣٠٥، شذرات ٧/٣١٧، الأعلام ٨/٢٢٢، معجم المؤلفين ١٣/٢٨٢.

زائداً، ويقول: «سماع التاريخ أعظم من التجارب».

وهكذا عاد الجامع الأزهر في عهد الظاهر بيبرس إلى سابق عهده قَصَبةً لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وكذلك وجد من سلاطين المماليك ـ كالسلطان الغوري[1] ـ مَنْ حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرةً أو مرتين أو أكثر كل أسبوع، وقد بُحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء. كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم[2].

المدارس والمكتبات:

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على إنشاء كثير من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس مثل المساجد.

---

(١) هو قانصوه بن عبد الله الظاهري الأشرفي (نسبة إلى الأشرف قايتباي) الغوري أبو النصر، سيف الدين الملقب بالملك الأشرف، جركسي الأصل. بُويع بالسلطنة سنة ٩٠٥هـ، وكان عظيم الدهاء قوي التدبير، فثبَّت قدمه في السلطنة ثباتاً عظيماً، مات قهراً، وضاعت جثته تحت سنابك الخيل في معركة مرج دابق، وذلك في سنة ٩٢٢هـ. انظر: الأعلام ١٨٧/٥، البدر الطالع ٥٥/٢، العصر المماليكي ص١٨٥.

(٢) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبةً إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١م، والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣م، ومدرسة السلطان برقوق[١] التي أنشأها بين القصرين بالقاهرة سنة ١٣٨٦م. ولم تكن جميع المدارس التي شيَّدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شُيِّد في القرى والريف مثل مدرسة سَرْياقَوْس[٢] التي أنشأها السلطان برسباي[٣].

ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصروا في إنشاء المدارس على مصر، وإنما أقاموا كثيراً منها في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة، ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي[٤] أنشأ مدارس عديدة في مصر

---

(١) هو الملك الظاهر برقوق بن أنس بن عبد الله الجركسي. كان اسمه الطنبغا فسماه سيده يلبغا الكبير برقوقاً لنتوءٍ في عينيه. تولى الملك سنة ٧٨٤هـ. كان شهماً شجاعاً ذكياً خبيراً بالأمور. توفي سنة ٨٠١هـ. انظر: شذرات ٦/٧، الجوهر الثمين ص٤٥٧، العصر المماليكي ص١٦٠.

(٢) سَرْياقَوْس: بُليدة في نواحي القاهرة بمصر. انظر: معجم البلدان ٢١٨/٣.

(٣) هو الملك الأشرف برسباي بن عبد الله أبو النصر الدقماقي الظاهر الجركسي، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية، الثاني والثلاثون من ملوك الترك، والثامن مِنْ ملوك الجراكسة. بُويع بالسلطنة سنة ٨٢٥هـ فساس الملك أحسن سياسة. توفي سنة ٨٤١هـ. انظر: شذرات ٢٣٨/٧، الضوء اللامع ٨/٣، الأعلام ٤٨/٢.

(٤) هو السلطان قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، أبو النصر سيف الدين الجركسي. ولد سنة ٨١٥هـ، وتسلطن سنة ٨٧٢هـ. كان مقبلاً على أفعال الخير، مقرِّباً للعلماء والصلحاء، محباً للفقراء. دامت مدة ملكه تسعة وعشرين سنة. توفي سنة ٩٠١هـ. انظر: الضوء اللامع ٢٠١/٦، البدر الطالع ٥٥/٢، الأعلام ١٨٨/٥، العصر المماليكي ص١٨٢.

والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة.

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يُحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويُمَدُّ سِماطٌ فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه، وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلِّمين والبنَّائين والمهندسين، يعيِّن للمدرسة موظَّفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفَرَّاشين وغيرهم.

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر، يخلع السلطان على صاحبها[1] ويكتب له توقيعاً من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يُدَرِّسها المدرِّس تفسيراً كانت أو حديثاً. وفي هذا التوقيع يقدِّم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر مكنون علمه للطلاب، ويقبل على الدرس وهو طَلْق الوجه منشرح الصدر؛ ليستميل إليه طلبته ويربيهم كما يربي الوالد ولده. كذلك يطلب من المدرِّس أن ينظر في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال.

وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرِّس؛ ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرِّس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح.

أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها، بحيث لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ما يختاره من أنواع العلوم الشرعية. وكثيراً ما

---

(١) أي: يُنعم عليه بملابس فاخرة. انظر: صبح الأعشى ٥٣/٤.

اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرِّس وشهرته العلمية، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيدٍ ليتتلمذ على فقيه أو محدث مشهور. فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك.

ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية.

والواقع أن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكَّنها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها. أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف: من أراضٍ وبيوتٍ وأسواقٍ ومعاصرَ وغيرها، وهي أوقاف كان يُنفق مِنْ ريعها على المدرسة ومَنْ فيها مِنْ مدرسين وطلاب علمٍ وموظفين[1].

المكتبات:

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ـ فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات. فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها، ولا يستطيع المتعلّمون والمعلّمون أن يواصلوا رسالتهم. لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نشاطاً منقطع النظير في التأليف من ناحية، وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية. وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول مَنْ قدَّر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب

---

(١) انظر: العصر المماليكي ص٣٤٢ ـ ٣٤٥.

جليلة القدر، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية. وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محتفظة بأهميتها، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢م على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون[١].

أما مكتبات المدارس والجوامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والغنى. فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم. وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون على أن يزوّد مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من كتب التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والطب، والأدبيات، ودواوين الشعراء. وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد، إذ أنشأ بها خزانة كتب جليلة.

ولم يَقِلَّ سلاطينُ المماليك الجراكسة عنايةً بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك، فنسمع عن خزائن الكتب العامرة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ[٢] والأشرف قايتباي

(١) هو خليل بن قلاوون الصالحي، الملك الأشرف صلاح الدين ابن السلطان الملك المنصور. ولد سنة ٦٦٦هـ. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩هـ، واستفتح الملك بالجهاد. قتل غيلة بمصر سنة ٦٩٣هـ. انظر: البداية والنهاية ٣٥٤/١٣، شذرات ٤٢٢/٥، الأعلام ٣٢١/٢.

(٢) هو شيخ بن عبد الله المحموديُّ الظاهريّ، أبو النصر الجركسيُّ الأصل. ولد سنة ٧٧٠هـ تقريباً. أصله. تولى السلطنة في سنة ٨١٥هـ. توفي سنة ٨٢٤هـ. انظر: الضوء اللامع ٣٠٨/٣، الأعلام ١٨٢/٣، العصر المماليكي ص١٦٨.

والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم، هذا مع ملاحظة أن خزانات الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس فحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانقاوات[1] والجوامع، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة. وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب «خازن الكتب» ومهمته ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها بين حين وآخر، فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع، لذلك كان يُختار لخزانة الكتب عادة فقيهٌ أو عالمٌ يراعى فيه سعة العلم والأمانة.

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يحبسها صاحب المدرسة على خزنتها، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء. ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر هي التي تطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً باتًّا إلا في حالات نادرة خاصة. ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصرت على الاطلاع الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على الكتب وعدم استهلاكها[2].

المكاتب:

وإذا كانت المدارس في عصر المماليك تمثل المعاهد العليا أو الجامعات - فإن المكاتب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم. ويبدو أن

---

(١) الخانقاوات جمع خانقاه: وهو بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر. انظر: العصر المماليكي ص٤٣٣.

(٢) انظر: العصر المماليكي ص٣٤٥ - ٣٤٧.

الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين، ولذلك أقبل الخيِّرون على إقامتها وحبسِ الأوقاف عليها رغبةً في الثواب. وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب «المؤدِّب» الذي أطلق عليه أحياناً اسم «الفقيه»، واشترط فيه أن يكون: خيِّراً ديِّناً أميناً على أطفال المسلمين، متين الخلق عَفًّا متزوجاً عارفاً بصناعته صالحاً للتعليم.

وساعد المؤدب في عمله «العريف» وهو أشبه بالمعيد في المدارس، إذ كان يعاون المتخلِّفين من الأطفال، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدِّب. وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدِّب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم. وقد ذكر النويري[1] كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل الذي أنشأه فقيهين يعلِّمان مَنْ كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، ورتَّب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم: وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف. ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف.

---

(١) هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشيُّ التيميُّ البكريّ، شهاب الدين النويري. نسبته إلى نُويرة: قرية من قرى بني سويف بمصر، ومولده ومنشأه بقوص. ولد سنة ٦٧٧هـ. كان عالماً بحَّاثاً غزير الاطلاع، ويكفيه أنه مصنِّف «نهاية الأرب في فنون الأدب» كبير جداً، وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره. توفي سنة ٧٣٣هـ. انظر: الدرر ١/١٩٧، الأعلام ١/١٦٥، معجم المؤلفين ١/٣٠٦.

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين، فضلاً عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر. ويبدأ الأطفال بالكتابة في ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد، فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتم ـ صُرِف من المكتب ليحل محله مستحقٌ آخر. وقد أُوصي المؤدِّب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضرباً وسطاً يؤلم ولا يؤذي.

النشاط الديني:

أما عن الحياة الدينية ـ فالملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطاً دينياً منقطع النظير، وقد يكون السِّرُّ في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسِهم بأنهم أغرابٌ عن البلاد وأهلها، مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستاراً يُخفي هذه الحقائق عن أعين المحكومين، ويقرِّبهم إلى قلوب الشعب، وما دام المماليك مسلمين، يؤمنون بالله ورسوله، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين، ويَعْمُرون مساجدَ يُذكر فيها اسم الله كثيراً ـ فهم إذاً حكامٌ صالحون، ولا داع للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم.

وثَمَّة ملاحظة أخرى؛ هي أن جزءاً كبيراً من النشاط الديني في عصر المماليك كان مُوَجَّهاً لخدمة المذهب السنيِّ ومحاربة المذهب الشيعيّ، ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومَنْ

خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمةً في عصر المماليك. وقد لجأ سلاطين المَماليك إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخصٍ دَسُّوا عليه مَنْ رماه بالتشيع، فتصادر أملاكه، وتنهال عليه العقوبات والإهانات، حتى يُظْهِر التوبة من الرفض. وفي الوقت نفسِه حارب سلاطين المماليك ظاهرةَ التشيع عن طريقٍ غير مباشر، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧م (٦٦٥هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ما عداها، كما أمر بألا يُولى قاضٍ ولا تُقبل شهادةُ أحدٍ ولا يرشَّح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلِّداً لأحد هذه المذاهب.

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب، واتبعهم فيها سلاطين المماليك؛ لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد: هي إنشاء المدارس. وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية، ولكن الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أُولى المدارس في مصر، إنما استهدف أن تكون المدرسة ـ قبل أي اعتبار آخر ـ مركزاً لتدعيم الفقه السني. وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كلٌّ منها خاصةً بتدريس مذهبٍ أو مذهبين من مذاهب السنّة الأربعة، حتى كانت المدرسة التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب[1] سنة ١٢٤٢ (٦٤٠هـ)،

---

(١) هو الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين، =

وهـي أول مدرسـة بُنيـت في القـاهرة علـى المـذاهب الأربعـة ـ الشـافعي والمالكي والحنفي والحنبلـي ـ واستمرت هـذه المدرسـة تـؤدي رسـالتها في خدمة السنّة حتى القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي ـ على أيام المؤرخ تقي الدين المقريزي. وهكذا سـار المماليـك علـى سُنَّة الأيـوبيين في إنشاء المدارس، فحرصوا على أن يجعلوا منها أداةً لخدمـة السـنّة ومذاهبـها. من ذلـك مـا أورده النـويري مـن وصـفٍ للمدرسـة الناصـرية الـتي أقامهـا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ يقول إنه كان بها أربعة أواويـن كـل منـها خـاص بأحـد مدرسـي المـذاهب الأربعـة، فالمـدرّس المـالكي اخـتص بالإيوان القبلي، والشافعي بالإيوان البحـري، والحنفـي بـالإيوان الشـرقي، والحنبلي بالإيوان الغربي.

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيـدة الـتي أكسبت عصـر المماليك طابعه الديني الخاص، بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديـدة مثـل المسـاجد والزوايـا وغيرهـا. والملاحـظ أن كـلاًّ مـن المدرسـة والجامع في ذلك العصر قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم، ولكـن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة ـ كما يتضح من اسمها ـ استهدفت أولاً خدمة العلم وجاء نشاطها الديني ضمنياً عن طريـق تـدريس العلـوم الدينيـة مثلاً، وبالعكس كـان الهـدف الأول مـن الجـامع أو المسـجد خدمـة الـدين

= من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد بالقـاهرة سـنة ٦٠٣هـ. ولي بعـد خلـع أخيـه العادل سنة ٦٣٧هـ، وضبط الدولة بحزم، وكان شجاعاً مهيباً عفيفـاً صـموتاً. مـات بناحية المنصورة، ونقل إلى القاهرة، سنة ٦٤٧هـ. من آثاره: قلعة الروضة بالقـاهرة. انظر: الأعلام ٣٨/٢، السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٥/١ ـ ٤٤٣.

وإحياء شعائره، وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد في التدريس ليحقّق غرضاً آخر ثانوياً؛ لأن العلوم الدينية ـ من فقه وحديث وتفسير ـ احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر.

والواقع أن النشاط الديني في عصر المماليك تطلب إقامة ما لا يكاد يُحصى من المساجد، وبخاصة في مصر والشام. وقد قَدَّر المقريزيُّ عدد المساجد التي تُقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً، في حين قَدَّرها خليل بن شاهين الظاهري[1] بأكثرَ مِنْ ألفِ مسجد. وفي عهد السلطان الناصر محمد، شَيَّد السلطان الناصر وأمراؤه ثمانيةً وعشرين مسجداً، وكان إذا تم بناء جامعٍ أو مسجدٍ رُتِّب له خطيبٌ وخَدَمٌ واحتُفِل بافتتاحه في حفلٍ كبير[2].

---

(١) هو خليل بن شاهين الظاهريّ، غرس الدين، يعرف بابن شاهين. أميرٌ من المماليك، اشتهر بمصر، نسبته إلى الظاهر برقوق، وكان أبوه شاهين من مماليكه. ولد ببيت المقدس سنة ٨١٣هـ. كان من المولَعين بالبحث، وله تصانيف ونظم. من مصنفاته: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، والإشارات إلى علم العبارات، والمواهب في اختلاف المذاهب. توفي سنة ٨٧٣هـ. انظر: الضوء اللامع ١٩٥/٣، الأعلام ٣١٨/٢.

(٢) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٨ ـ ٣٥١.



الفصل الثاني
التعريف بالشيخ
تقي الدين السبكي

المبحث الأول

اسمه ونسبــه

هو الشيخ الإمام علي بن عبد الكافي بن علي بن تَمَّام بن يوسف بن موسى بن تَمَّام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن مِسْوَار ابن سَوَّار بن سُلَيم السُّبْكي، الخزرجي الأنصاري، رحمهم الله جميعاً.

يقول تاج الدين السبكي رحمه الله: «نقلت من خط الجد[1] رحمه الله نِسْبتنا معاشرَ السبكية إلى الأنصار. وقد رأيت الحافظ النَّسَّابة شرف الدين الدمياطي[2] رحمه الله يكتب بخطه للشيخ الإمام الوالد رحمه الله: الأنصاري الخزرجي»[3] فهم من قبيلة أسْلم، وأسلم من خُزاعة، وقيل لهم: خُزاعة؛

---

(١) أي: عبد الكافي، أبو محمد. ولد سنة ٦٦٠ هـ تقريباً. ولي قضاء الشرقية وأعمالها، والغربية وأعمالها، من الديار المصرية. كان من أعيان نُوَّاب الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد. توفي سنة ٧٣٥ هـ بالمحلّة.انظر: الطبقات الكبرى ٨٩/١٠، الدرر ٣٩٦/٢.

(٢) هو عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف التُّوني الدمياطي الشافعي، الحافظ شرف الدين، من أهل تونه: قرية من عمل دمياط. ولد سنة ٦١٣ هـ. قال الذهبي: ومعجم شيوخه يبلغون ألفاً وثلاثمائة إنسان. من مؤلفاته: قبائل الخزرج وقبائل الأوس، والعقد المثمن في مَن اسمه عبد المؤمن، والسيرة النبوية، وغيرها. توفي سنة ٧٠٥ هـ. انظر: تذكرة ١٤٧٧/٤، الطبقات الكبرى ١٠٢/١٠، الدرر ٤١٦/٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٩١/١٠.

لأنهم تَخَزَّعوا عن الأزْد، والتَّخَزُّع: التَّقَاسُم[1].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أسلم سَالَمها الله، وغِفَار غَفَر الله لها، وعُصَيَّة عَصَت اللّهَ ورسوله»[2].

إلا أن التقي السبكي رحمه الله كان لكمال ورعه ومزيد تقواه لا يكتب هذه النسبة، يقول ابنه التاج رحمه الله: «ولم يكتب الشيخ الإمام رحمه الله بخطه لنفسه: الأنصاريَّ، قَطُّ، وإن كان شيخه الدمياطيُّ يكتبها له، وإنما كان يترك الشيخ الإمام كتابةَ ذلك؛ لوفور عقله، ومزيد ورعه، فلا يرى أن يطرق نحوه طعن من المنكِرين، ولا أن يكتبها مع احتمال عدم الصحة، خشية أن يكون قد دعا نفسه إلى قومٍ وليس منهم. وقد كانت الشعراء يمدحونه، ولا يُخْلون قصائدهم من ذكر نسبته إلى الأنصار، وهو لا ينكر ذلك عليهم، وكان رحمه الله أورع وأتقى لله من أن يسكت على ما يعرفه باطلاً. وقد قرأ عليه شاعر العصر ابنُ نُباتة[3] غالب قصائده التي امتدحه بها، وفيها ذِكْرُ نسبته إلى الأنصار، والشيخ الإمام يُقِرُّه...

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٩١.

(٢) أخره بلفظه أحمد في المسند ٢/٢٠، ٥٠، ١٢٦، والحاكم بنحوه في المستدرك ٤/٨٢، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن نُباتة، بضم النون على الأشهر، ويجوز فتحها في قول، الشيخ جمال الدين أبو الفضائل، وأبو الفتح، وأبو بكر وهي أشهر. ولد بالقاهرة سنة ٦٨٦ هـ. كان رحمه الله أديب عصره، وحامل لواء الشعر في زمانه. توفي رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٦٨ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/٢٧٣، الدرر ٤/٢١٦.

وكذلك حضر الشيخ الإمام عَقْدَ بنات بعض الأكابر، وكان الصَّداق صناعة القاضي شهاب الدين بن فضل الله، فلما قُرِئ وجاء ذِكْر الشيخ الإمام ـ أنشد القاضي شهابُ الدين لنفسه ما كتبه في الصَّداق، والشيخ الإمام يسمع:

قاضي القضاةِ بعلمه وَضَح الهُدَى ... وبجوده ووجوده فاض النَّدَى
من آلِ يَعْرُبَ في ذَوائبها العُلَى ... جاز السماءَ عُلاً وجاز الفَرْقَدا
من كلِّ أبيضَ باسمٍ يومَ الوغى ... يَجْتابُ من ليل الهلال الأسْوَدا
نَصَر النبيَّ محمداً بِجِدالِه ... وجُدُودُه نَصَروا النبيَّ محمدا

فلما انفصل المجلس، وجاء الصَّداق إلى الشيخ ليكتب عليه اسمه ـ كتب عليه وعلَّق عليه من خطِّه في مجاميعه هذه الأبيات، ومن خطِّه نقلتُها، ولولا أنه رأى ذلك حقاً ما كتبه بخطه؛ لما أعلمه من ورعه وشدته في ذلك»[1].

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٩٢ ـ ٩٤.

المبحث الثاني

ولادته ونشأته

ولد في ثالث صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، بسُبْك من أعمال المنوفية. وفي مصر قريتان تسميان بسُبْك وهما: سُبْك الضَّحَّاك، وسُبْك العَبِيد، وهي التي منها تقي الدين السبكي رحمه الله[1]، وكلاهما من أعمال المنوفية، وتسمى سُبْك الضحاك بسبك الثلاثاء أيضاً، وتسمى سبك العَبِيد بسبك الأحد، وبسُبْك العويضات، وهذا الاسم الأخير هو الباقي إلى الآن، لا الاسمَيْن الآخَرَيْن[2].

وكانت نشأته الأولى بها، وبها طلب العلم إلى أن حَصَّل قدراً كثيراً ثم انتقل إلى القاهرة لملاقاة شيوخها وعلمائها.

---

(١) انظر: القاموس المحيط ٣/٣٠٦، مادة (سبك).

(٢) انظر البيت السبكي ص ٩٠ - ٩١، لمحمد الصادق حسين.

المبحث الثالث

طلبه للعلم وشيوخه

قال التاج السبكي رحمه الله: «وتفقه في صغره على والده، وكان من الاشتغال على جانب عظيم، بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره، وحَكى لي أنه لم يأكل لحم الغنم إلا بعد العشرين من عمره؛ لحدة ذهنه، وأنه كان إذا شَمَّ رائحته حصل له شَرَى[1]، وإنما كان يخرج من البيت صلاة الصبح، فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجدَ أهل البيت قد عملوا له فروجاً، فيأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب، فيأكل شيئاً حُلْواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهماً ولا شيئاً، فلعله يرى شيئاً يريد أن يأكله، فضعي في مِنْدِيله درهماً أو درهمين، فوضعتْ نصف درهم.

قالت الجدة فاستمر نحو جمعيتن وهو يعود والمنديلُ معه، والنصفُ فيه، إلى أن رمى به إليَّ وقال: أَيْش أعملُ بهذا! خذوه عني.

وكان الله تعالى قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره، فلا يدري شيئاً من حال نفسه.

---

(١) أي: اضطراب. انظر اللسان ١٤/٤٣٠، مادة «شري».

ثم زوَّجه والدُه بابنة عمه، وعُمْره خمسَ عشرةَ سنة، وألزمها أن لا تحدِّثه في شيءٍ من أمر نفسها، وكذلك ألزمه والدها، وهو عمه الشيخ صدر الدين[1]، فاستمرت معه، ووالده ووالدها يقومان بأمرهما، وهو لا يراها إلا وقت النوم، وصَحِبَتْه مدة، ثم إن والدها بلَغه أنها طالبته بشيءٍ من أمر الدنيا، فطلبه وحلف عليه بالطلاق ليُطلِّقَها، فطلَّقها.

فانظر إلى اعتناء والده وعمِّه بأمره، وكان ذلك خوفاً منهما أن يشتغل بالُه بشيءٍ غير العلم.

ثم إنه دخل القاهرة مع والده، وعَرَض محافيظ حفظها: «التنبيه»، وغيره ـ على ابن بنت الأعَزّ[2] وغيره. وقيل: إن والده دخل به إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد، وعرض عليه «التنبيه»، وإن الشيخ تقي الدين قال لوالده رحمه الله: رُدَّ به إلى البر، إلى أن يصير فاضلاً عُدْ به إلى القاهرة، فردَّ به إلى البر.

قال الوالد رحمه الله: فلم أَعُد إلا بعد وفاة الشيخ تقي الدين، ففاتني مجالسته في العلم.

---

(١) هو يحيى بن علي بن تمام بن يوسف السبكي، القاضي صدر الدين أبو زكريا. برع في الفقه وأصوله، وتولى قضاء بعض البلاد المصرية، ثم دَرَّس بالمدرسة السَّيْفِيَّة بالقاهرة، واستمر بها إلى حين وفاته. توفي سنة ٧٢٥ هـ، ودفن بالقرافة. انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٩١، الدرر ٤/٤٢٢.

(٢) هو أحمد بن عبد الوهاب بن خَلَف العَلاميُّ البَصْريُّ، علاء الدين بن بنت الأعز. كان فقيهاً أديباً، رئيساً، وله شعر كثير. توفي سنة ٦٩٩ هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٨/٢٣، شذرات ٥/٤٤٤.

وسمعت الوالد يقول: أنا ما أتحقق الشيخ تقي الدين، ولكني أذكر أني دخلت دار الحديث الكاملية[1] بالقاهرة، ورأيت شيخاً هيئته كهيئة الشيخ تقي الدين الموصوفة لنا، لعله هو، وسمعت الحافظ تقي الدين أبا الفتح[2] ابن العم رحمه الله يقول: هو الشيخ تقي الدين. ولكن الشيخ الإمام لورعه لا يجزم مع أدنى احتمال. ثم لما دخل القاهرة بعد أن صار فاضلاً ـ تفقّه على شافعي الزمان الفقيه نجم الدين بن الرِّفْعة[3]، وقرأ الأصلين وسائر المعقولات على الإمام النظار علاء الدين الباجي[4]، والمنطق

---

(١) هي دار الحديث بمصر، بناها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكملت عمارتها في سنة إحدى وعشرين وستمائة، وكان الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله ـ ممن وَلِيها. انظر: حسن المحاضرة ٢/٢٦٢، مقدمة تحقيق مختصر تيسير الوصول إلى منهاج الأصول ١/٦١.

(٢) هو محمد بن عبد اللطيف بن يحيى بن علي بن تَمَّام السبكي، الفقيه المحدث، الأديب المتقن. تفقه على جده الشيخ صدر الدين يحيى، وعلى الشيخ تقي الدين السبكي وبه تخرج في كل فنونه، وهو صهره. توفي سنة ٧٠٥ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٦٧، الدرر ٤/٢٥، شذرات ٦/١٤١.

(٣) هو الإمام نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن مُرْتَفِع بن الرِّفْعة، المصري الشافعي. ولد سنة ٦٤٥ هـ. كان شافعي زمانه، وإمام أوانه، شيخ الإسلام، أعجوبة في معرفة النصوص والتخريج. من تصانيفه: «المطلب» في شرح الوسيط، و«الكفاية» في شرح التنبيه، و«النفائس في هدم الكنائس». وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٧١٠ هـ. انظر الطبقات الكبرى ٩/٢٤، الدرر ١/٢٨٤، شذرات ٦/٢٤.

(٤) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خَطَّاب الباجي، الشيخ الإمام علاء الدين، إمام الأصوليين في زمانه، وله الباع الواسع في المناظرة. ولد سنة ٦٣١ هـ. كان أعلم أهل الأرض بمذهب الأشعري في علم الكلام. من مصنفاته: الرد على اليهود =

والخلاف على سيف الدين البغدادي(١)، والتفسير على الشيخ علم الدين العراقي(٢)، والقراءاتِ على الشيخ تقي الدين بن الصائغ(٣)، والفرائض على الشيخ عبد الله الغِماري المالكي(٤).

وأخذ الحديث عن الحافظ شرف الدين الدمياطي، ولازمه كثيراً، ثم لازم بعده وهو كبير: إمامَ الفن الحافظَ سعد الدين الحارثي(٥).

= والنصارى، وله مختصرات عدة. توفي سنة ٧٢٤ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٣٩، شذرات ٦/٣٤.

(١) هو عيسى بن داود البغدادي الحنفي المنطقي. ولد في حدود سنة ٦٣٠ هـ. برع في المنطق، وتخرج وفاق الأقران. كان سليم الباطن متواضعاً سمحاً. توفي سنة ٧٠٥ هـ. انظر: الدرر ٣/٢٠٣.

(٢) عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري، الشيخ علم الدين العراقي الضرير. ولد سنة ٦٢٣ هـ. كان عالماً فاضلاً في فنون كثيرة خصوصاً التفسير، فله فيه يد باسطة، وصنف فيه «الإنصاف في مسائل الخلاف» بين الزمخشري وابن المُنَيِّر. توفي بالقاهرة سنة ٧٠٤ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٩٥، الدرر ٢/٣٩٩، طبقات المفسرين ١/٣٣٤.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي، الشيخ تقي الدين، أبو عبد الله بن الصائغ، المصري الشافعي. ولد سنة ٦٣٦ هـ. كان مُسْنِد عصره، ورُحَلَةَ وقته، شيخ القراء، فقيهاً مشاركاً في عدة فنون. توفي بمصر سنة ٧٢٥ هـ. انظر غاية النهاية ٢/٦٥، الدرر ٣/٣٢٠.

(٤) لم أعثر على ترجمته مع كثرة البحث في كتب التراجم: المالكية، وغيرها.

(٥) هو الشيخ الإمام الفقيه الحافظ المتقن قاضي القضاة سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي، العراقي المصري الحنبلي، أبو محمد. ولد سنة ٦٥٢ هـ. كان قوي المعرفة بالمتون والأسانيد، صَيِّناً. توفي سنة ٧١١ هـ. انظر: تذكرة ٤/١٤٩٥، الدرر ٤/٣٤٧، شذرات ٦/٢٨.

وأخذ النحو عن الشيخ أبي حيان[1]، وصحب في التصوف الشيخ تاج الدين بن عطاء الله»[2] ثم عَدَّد التاج مشايخ أبيه بالإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد إلى أن قال: «وجمع «معجمُه» الجمَّ الغفير، والعدد الكثير، وكتب بخطه، وقرأ الكثير بنفسه، وحَصَّل الأجزاء الأصول والفروع، وسمع الكتب والمسانيد، وخَرَّج وانتقى[3] على كثير من شيوخه، وحَدَّث بالقاهرة ودمشق»[4].

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حَيَّان النَّفْريّ الأندلُسي الجَيَّاني الأصل، الغِرْناطي المولد والمنشأ، المصري الدار، الظاهري الشافعي. ولد سنة ٦٥٤ هـ. شيخ النحاة، وسيبويه الزمان. من مصنفاته «البحر المحيط» في التفسير، شرح التسهيل، الارتشاف. توفي سنة ٧٤٥ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/٢٧٦، الدرر ٤/٣٠٢، بغية ١/٢٨٠.

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، تاج الدين أبو الفضل الإسكندراني، المالكي، الشاذلي، صحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي، وصنف مناقبه، ومناقب شيخه، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه. توفي سنة ٧٠٩هـ.
انظر: الدرر ١/٢٧٣، شذرات ٦/١٩ البدر ١/١٠٧.

(٣) الانتقاء: هو أن يختار الطالب بعض أحاديث الشيخ، ويكتفي بها في الرواية عنه؛ إما لأن الشيخ كثير المرويات عَسِرٌ في الرواية عنه؛ أو لأن الطالب لا يمكنه طول الإقامة عند الشيخ. انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي: ٢/١٥٩.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٤٧.

المبحث الرابع

تـلامـيــــذه

أما حصرهم فهذا صعب؛ لعدم وجود كتاب يحصرهم، أو يحصي أكثرهم، وهم كثير جداً بلا شك فقد تخرج به أئمة، وحمل عنه أمم[1]، ولكن نذكر البعض القليل، حسبما يحضرنا، وفيهم دلالة على قدر الرجل رحمه الله.

قال التاج رحمه الله: «سمع منه الحفَّاظ: أبو الحجَّاج المِزِّي[2] وأبو عبد الله الذهبي، وأبو محمد البِرْزالي[3]، وغيرهم»[4]، وهؤلاء كلهم أقران

---

(١) انظر: ذيول العِبَر في خَبر مَنْ غَبَر ١٦٨/٤.

(٢) هو واحد عصره، وشيخ زمانه، يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف الكَلْبيّ القُضَاعِيّ الدِّمشقي، جمال الدين أبو الحجاج. ولد سنة ٦٥٤ هـ. صنف كتاب «تهذيب الكمال». توفي ـ رحمه الله ـ شهيداً بالطاعون سنة ٧٤٢ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٣٩٥/١٠، الدرر ٤٥٧/٤.

(٣) هو الحافظ الكبير والمؤرخ القاسم بن محمد بن يوسف البِرْزالي، علم الدين أبو محمد الإشبيلي. ولد سنة ٦٦٥ هـ. بلغ عدد مشايخه بالسماع ألفي نفس، وبالإجازة أكثر من ألف. كان وافر العقل جداً بحيث إنه كان يصحب المتعاديَيْن فلا يكتم واحدٌ منهما سره لوثوقه به. مات ذاهباً إلى مكة محرماً للحج سنة ٧٣٩ هـ، ودفن بخليص. انظر: الطبقات الكبرى ٣٨١/١٠، الدرر ٢٣٧/٣.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٤٧/١٠.

له أيضاً، بل كلهم أكبر منه سناً، والمزي في طبقة شيوخه.

وقال أيضاً «وجلس للتحديث بالكَلاَّسة[1]، فقرأ عليه الحافظ تقي الدين أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي جميع «معجمه» الذي خَرَّجه له الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أَيْبَك الحُسامِيّ الدِّمْياطي[2] رحمه الله، وسمعه عليه خلائق، منهم الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف بن الزكي المِزي، والحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي»[3].

ومن تلاميذه صلاح الدين الصفدي، والحافظ العلائي[4]،

---

(١) هي مدرسة كانت لصيق الجامع الأُمويّ من شمال، ولها بابٌ إليه. عَمَّرها نور الدين الشهيد في سنة ٥٥٥هـ، وسُمِّيت هذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكِلْس أيام بناء الجامع، وجُعِلت زيادةً لما ضاق الجامع بالناس. انظر: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢) هو أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي الدمياطي، أبو الحسين. ولد سنة ٧٠٠ هـ. قال عنه الذهبي: «المحدث الحافظ المفيد، محدِّث مصر». من مصنفاته: «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد»، «تخريج أحاديث الرافعي» لم يكمله. توفي في طاعون مصر سنة ٧٤٩ هـ. انظر: الدرر ١/١٠٨، الأعلام ١/١٠٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٦٩، الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٥٠ - ٤٥١.

(٤) هو حافظ المشرق والمغرب خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، صلاح الدين أبو سعيد الشافعي. ولد سنة ٦٩٤ هـ. بلغ عدد شيوخه بالسماع سبعمائة، ومصنفاته تنبئ عن إمامته في كل فن، ولم يخلف بعده مثله. صنف كتباً كثيرة جداً، وهي «سائرة مشهورة نافعة متقنة محررة»، كذا قال ابن حجر رحمه الله، منها: تحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض، الأربعين في أعمال المتقين، وغيرهما. توفي بالقدس سنة ٧٦١ هـ. انظر الطبقات الكبرى ١٠/٣٥، الدرر ٢/٩٠، شذرات ٦/١٩٠.

والإسنوي، والحافظ العراقي[١]، والحافظ الحسيني[٢]، ومجد الدين الفيروزابادي[٣] صاحب «القاموس المحيط»، وأبو البقاء السبكي[٤]،

---

(١) هو الحافظ عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، زين الدين أبو الفضل، الكردي الأصل الشافعي. من مؤلفاته: ألفية الحديث وشرحها، طرح التثريب في شرح التقريب، النكت على مقدمة ابن الصلاح. توفي سنة ٨٠٦ هـ. انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٢٩/٤، شذرات ٥٥/٧، البدر ٣٥٤/١، الأعلام ٣٤٤/٣.

(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن حمزة، شمس الدين الحسيني، المؤرخ، المحدث، الحافظ، الفقيه. ولد بدمشق سنة ٧١٥ هـ. ولما سئل العراقي عن أربعة تعاصروا أيهم أحفظ: مغلطاي، وابن كثير، وابن رافع، والحسيني؟ قال: أعرفهم بالشيوخ المعاصرين وبالتخريج الحسيني، وهو أدونهم في الحفظ. من مصنفاته: «التذكرة في رجال العشرة»، «ذيل تذكرة الحفاظ»، «مجمع الأحباب» اختصار الحلية. توفي سنة ٧٦٥ هـ. انظر: الدرر ٦١/٤، البداية والنهاية ٣٢٢/١٤، البدر ٢٠٩/٢، مقدمة كتاب «الإكمال» ص ٢٠م - ٢٨م، شذرات ٢٠٥/٦.

(٣) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازيّ الفَيروزابـاديّ، مجد الدين أبو طاهر، الشافعي، الإمام الكبير الماهر في اللغة وغيرها من الفنون. ولد سنة ٧٢٩ هـ. كان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر. من مصنفاته: الوجيز في لطائف الكتاب العزيز، الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد، طبقات الحنفية، وغيرها. توفي سنة ٨١٧ انظر: بغية الوعاة ٢٧٣/١، البدر ٢٨٠/٢، الأعلام ١٤٦/٧.

(٤) هو شيخ الإسلام محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي بن تمام السبكي، بهاء الدين أبو البقاء. ولد سنة ٧٠٧ هـ. قال الذهبي عنه: «إمام متبحر، مناظر بصير بالعلم، محكم العربية، مع الدين والتصوف». وكان الإسنوي يقدمه ويفضله على أهل عصره، وكان يحفظ الروضة. كتب على الروضة، وعلى مختصر ابن الحاجب، وعلى المطلب لابن الرفعة. توفي سنة ٧٧٧ هـ. انظر: الدرر ٤٩٠/٣، بغية ١٥٢/١، شذرات ٢٥٣/٦.

وأبناؤه[1]، وغيرهم كثير.

---

(١) وهـم محمـد، وأحمـد، والحسـين، وعبـد الوهـاب، رحمهـم الله جميـعاً، وسـتأتي تراجمهـم، وعبد الوهاب ستأتي ترجمته مستقلة بعد الانتهاء من ترجمـة والـده رحمـه الله تعالى.

المبحث الخامس

مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه

يقول ابنه التاج رحمه الله عن والده: «الشيخ الإمام الفقيه المحدِّث الحافظ المفسِّر المقرئ الأصولي المتكلِّم النحوي اللغوي الأديب الحكيم المِنْطِيقيُّ الجدليُّ الخلافيُّ النَّظَّار، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، تقي الدين أبو الحسن:

شيخ المسلمين في زمانه، والداعي إلى الله في سرِّه وإعلانه، والمناضل عن الدين الحنيفيّ، شافعيُّ الزمان، وحجة الإسلام المنصوبُ من طُرق الجنَان، والمرجع إذا دَجَتْ مشكلةٌ وغابت عن العِيان.

عُبَابٌ[1] لا تكدِّره الدِّلاء، وسحابٌ تتقاصر عنه الأنواء، وبابٌ للعلم في عصره، وكيف لا وهو عليٌّ الذي تَمَّتْ به النعماء:

وكان من العلوم بحيث يُقضى ... لـه مـن كـلِّ علـمٍ بالجميـع

---

(١) هو الماء الكثير، وهو السيل أيضاً. وكلاهما مناسبان هنا. انظر: لسان العرب ٥٧٣/١، المعجم الوسيط ٥٧٩/٢.

وكان من الورع والدين وسلوك سبيل الأقدمين على سَنَن ويقين، إن الله مع المتقين.

صادع بالحق لا يخاف لومة لائم، صادق في النية لا يخشى بطشة ظالم، صابر وإن ازدحمت الضَّرَاغم...

شيخ الوقت حالاً وعلماً، وإمام التحقيق حقيقةً ورَسْماً، وعَلَم الأعلام فِعْلاً واسماً:

إذا تَغلغل فِكْرُ المرء في طَرَفٍ　　　مِن مجده غَرِقَتْ فيه خَواطِرُهُ[1]

لا يرى الدنيا إلا هباءً منثوراً، ولا يدري كيف يجلب الدرهمُ فرحاً، والدينارُ سروراً، ولا ينفك يتلو القرآن، قائماً وقاعداً، راكباً وماشياً، ولو كان مريضاً معذوراً.

وكانت دعوته تخترق السبع الطِّبَاق، وتَفْتِرق بركاتُها فتملأ الآفاق، وتَسْترقُ خبرَ السماء، وكيف لا، وقد رفعت على يد وليٍّ لله، تُفتح له أبوابُها ذوات الإغلاق.

وكانت يداه بالكرم مبسوطتين، لا يُقاس إلا بحاتم، ولا يُنشد إلا:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

ولا يعرف إلا العطاء الجَزْل:

وتأتي على قدر الكرام المكارم[2]

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي: انظر ديوانه بشرح أبي البقاء العَكبري ٢/١٢٠.

(٢) هذا والذي قبيله لأبي الطيب المتنبي. انظر: ديوانه ٣/٣٧٨.

يواظب على القرآن سراً وجهراً، لا يَقْرُنُ خِتام ختمةٍ إلا بالشروع في أخرى، ولا يفتتح بعد الفاتحة إلا سوراً تترى.

مع تقشف لا يتدرع معه غير ثوب العفاف، ولا يتطلع إلى ما فوق مقدار الكفاف، ولا يتنوَّع إلا في أصناف هذه الأوصاف.

يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، وقياماً لله لا يفارقه أحياناً، وبكاءً يفيض من خشية الله ألواناً.

أقسم بالله إنه لفوقَ ما وصفتُه، وإني لناطقٌ بهذا وغالب ظني أني ما أنصفتُه، وإن الغبيَّ سيظن فيَّ أمراً ما تصورتُه[(١)]:

وما زال في علمٍ يرفعه، وتصنيفٍ يَضَعُه، وشتاتِ تحقيقٍ يجمعه، إلى أن سار إلى دار القرار. وما ساد أحدٌ ناوأه، ولا كان ذا استبصار، ولا ساءَ مَنْ والاه، بل عَمَّه بالفضل المدرار...»[(٢)].

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ عن التقي: «القاضي الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء، تقي الدين أبو الحسن السبكي، ثم المصري الشافعي وَلَد القاضي الكبير زين الدين... وكان صادقاً متثبتاً، خَيِّراً ديناً متواضعاً حسن السمت، من أوعية العلم، يَدْرِي الفقه ويُقَرِّره،

---

(١) قال التاج رحمه الله في طبقاته الوسطى: «ولو عددت ما شاهدت، وحكيت ما عاينت ـ لطال الفصل، وقال الغبيُّ النذل: ولدٌ يشهد لأبيه». انظر: تحقيق الطبقات الكبرى ١٠/١٤٣.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٣٩ ـ ١٤٤.

وعلمَ الحديث ويُحَرِّره، والأصولَ ويُقْرئها، والعربية ويحقِّقها، ثم قرأ بالروايات على تقي الدين الصائغ، وصنف التصانيف المتقنة. وقد بقي في زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق والفضل...»[1].

وقال عنه أيضاً: انتهى إليه الحفظُ ومعرفة الأثر بالديار المصرية[2].

وقال أيضاً حين وَلِي التقيُّ السبكي خَطابة الجامع الأُموي: إنه ما صَعَد هذا المنبرَ بعدَ ابن عبد السلام أعظمُ منه[3].

ونظم في ذلك أبياتاً فقال:

لِيَهْنِ المنبرَ الأُمَوِيَّ لَمَّـــا   عَلاَهُ الحاكمُ البحرُ التقــيُّ
شيوخُ العصرِ أحفظُهم جميعاً   وأخطبُهُمْ وأقضاهُمْ عليُّ[4]

قال التاج رحمه الله: «وصح مِنْ طرقٍ شتى عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية: أنه كان لا يعظِّم أحداً من أهل العصر كتعظيمه له، وأنه كان كثير الثناء على تصنيفه في الرد عليه. وفي كتاب ابن تيمية الذي ألفه في الرد على الشيخ الإمام في ردِّه عليه في مسألة الطلاق: لقد بَرَّز هذا على أقرانه.

وهذا الرد الذي لابن تيمية على الوالد لم يَقِفْ عليه، ولكن سمع به، وأنا وقفتُ منه على مجلَّد.

---

(١) انظر: المعجم المختص ص ١٦٦.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٤.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٤.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٤.

وأما الحافظ أبو الحجاج المِزِّيُّ: فلم يكتب لفظة «شيخ الإسلام» إلا لَـهُ، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر[1].

وقد قدمنا قول ابن فضل الله[2]: إنه مثل التابعين إن لم يكن منهم.

وكان الشيخ تقي الدين أبو الفتح السبكي[3] رحمه الله يقول: إذا

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الجماعيلي الأصل، الصالحي، الحنبلي، الفقيه، الإمام، الزاهد الخطيب، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، شمس الدين أبو محمد، وأبو الفرج بن الشيخ أبي عمر. ولد سنة ٥٩٧ هـ. قال النووي عنه: هذا أجل شيوخي. من مصنفاته: شرح «المقنع»، استمده من كتاب «المغني» لعمه. توفي رحمه الله سنة ٦٨٢ هـ.

انظر: ذيل طبقات الحنابلة ٤/٣٠٤، المعجم المختص ص ١٣٨.

(٢) هو القاضي أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلي القرشي العدوي العمري الشافعي، شهاب الدين أبو العباس، من نسل عمر بن الخطاب ﷺ. ولد سنة ٧٠٠ هـ. كان يتوقد ذكاءً، مع حافظة قوية، وصورة جميلة، واقتدارٍ على النظم والنثر. من مصنفاته: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وهو كتاب جليل ما صُنِّف مثله، كذا قال ابن قاضي شهبة وابن العماد الحنبلي رحمهما الله، و «فواضل السمر في فضائل عمر»، وغيرهما. توفي شهيداً بالطاعون يوم عرفة سنة ٧٤٩ هـ.

انظر: الدرر ١/٣٣١، شذرات ٦/١٦٠، المعجم المختص للذهبي ص ٤٥، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٦.

(٣) محمد بن عبد اللطيف بن يحيى بن علي بن تمام السبكي، تقي الدين أبو الفتح. ولد سنة ٧٠٥ هـ، وتفقه على جده صدر الدين يحيى، وعلى قريبه وصهره تقي الدين علي السبكي، وبه تَخَرَّج في كل فنونه، وكان من أ صح الناس ذهناً، وأذكاهم فطرة. توفي سنة ٧٤٤ هـ بدمشق. انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٦٧، الدرر ٤/٢٥.

رأيته فكأنما رأيت تابعياً.

وصح أن شيخه الإمام علاء الدين الباجي رحمه الله أقبل عليه بعض الأمراء، وكان الشيخ الإمام إلى جانبه الأيمن، وعن جانبه الأيسر بعض أصحابه، فقعد الأمير بين الباجي والشيخ الإمام، ثم قال الأمير للباجي عن الذي عن يساره[1]: هذا إمام فاضل؟.

فقال له الباجي: أتدري مَنْ هذا؟ هو إمام الأئمة.

قال: مَنْ؟

قال: الذي جلستَ فوقه تقي الدين السبكي.

ولعل هذا كان في سنة ثلاثَ عشرةَ وسبعمائة.

وأما شيخه ابن الرفعة فكان يعامله معاملةَ الأقران، ويبالغ في تعظيمه، ويعرض عليه ما يصنفه في «المَطْلَبَ».

وكذلك شيخه الحافظ أبو محمد الدمياطي لم يكن عنده أحدٌ في منزلته[2].

ولو أخذتُ أعدُّ مقالة أشياخه فيه لطال الفصل. وبلغني أن ابن الرفعة حضر مرةً إلى مجلس الحافظ أبي محمد الدمياطي، فوجد الشيخَ الإمامَ الوالدَ

---

(١) هكذا في النسخة المطبوعة المحققة من «الطبقات الكبرى»، والظاهر أن الصواب حذف «عن» الأولى، فتكون الجملة: «ثم قال الأمير للباجي الذي عن يساره»، أي: الباجي عن يسار الأمير.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠٤/١٠.

بين يديه، فقال: «محدِّث أيضاً»! وكان ابن الرفعة لعظمة الوالد في الفقه عنده يظن أنه لا يعرف سواه.

فقال الدمياطي لابن الرفعة: كيف تقول؟.

قال: قلت للسبكي: محدِّث أيضاً!.

فقال: إمام المحدثين.

فقال ابن الرفعة: وإمام الفقهاء أيضاً.

فبلغت شيخَه الباجي، فقال: وإمام الأصوليين.

وسمعتُ صاحبَنا شمسَ الدين محمد بن عبد الخالق المقدسيّ المقرئ[1]، يقول: كنت أقرأ عليه القِراءات، وكنتُ لكثرة استحضاره فيها أتوهم أنه لا يدري سواها، وأقول: كيف يَسَع عمرُ الإنسان أكثر من هذا الاستحضار!.

وسمعتُ الشيخ سيف الدين أبا بكر الحريري[2]، مدرِّس المدرسة الظاهريّة، البَرَّانية ـ يقول: لم أرَ في النحو مثله، وهو عندي أنحى من أبي حَيَّان.

وسمعتُ عن سيف الدين البغدادي، شيخِه في المنطق ـ أنه قال: لم أرَ في العجم ولا في العرب مَنْ يعرف المعقولاتِ مثلَه.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قرأت بخط الشيخ تقي الدين السبكي: أنه كان يدري القراءات، ومات في سابع رجب سنة ٧٤٨». نظر: الدرر ٣/٤٩٤.

(٢) لم أقف على ترجمته.

وسمعتُ جماعة من أرباب علم الهيئة يقولون: : لم نر مثلَه فيها.

وكذلك سمعتُ جماعة من أرباب علم الحساب.

وعلى الجملة: لا يماري في أنه كان إمامَ الدنيا في كلِّ علم على الإطلاق، إلا جاهلٌ به، أو معانِد.

ولقد سمعتُ الحافظ صلاح الدين خليل بن كَيْكَلَدِيَّ العلائيَّ يقول: الناس يقولون: ما جاء بعد الغزاليِّ مثلُه، وعندي أنهم يظلمونه بهذا، وما هو عندي إلا مثلُ سفيانَ الثوريِّ»[1].

قال الحافظ العراقي ـ رحمه الله ـ وهو تلميذه: «طلب الحديث في سنة ٧٠٣ هـ، ثم انتصب للإقراء، وتفقَّه به جماعة من الأئمة، وانتشر صيته وتواليفه، ولم يخلف بعده مثله»[2].

وكذا قال الحافظ الحسيني ـ رحمه الله ـ وهو تلميذه أيضاً: «وكان رأساً في كل علم... وتخرج به أئمة، وحَمَل عنه أُمم، ولم يخلف بعده مثله رحمه الله»[3].

وقد نقل التاج ـ رحمه الله ـ ثناء الشيخ أبي العباس العُمَري، وأطال النقل عنه في ثنائه على التقي رحمه الله؛ لأن أبا العباس العمري كان بينه وبين والده شحناء فيكون ثناء أبي العباس مجرداً عن الهوى والمحاباة، وثناؤه لا يبعد عن ثناء التاج رحمهما الله تعالى، مما يُطَمْئن بأنَّ ثناء التاج رحمه الله

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٤ ـ ١٩٧.

(٢) انظر: الدرر ٣/٧٠.

(٣) انظر: ذيول العِبَر في خَبَر مَنْ غَبَر ٤/١٦٨.

لم يكن إلا بياناً للحقيقة التي يعرفها، وربما يجهلها البعض لا سيما المتحاملون، فلا يقبلون تزكية الابن لأبيه، وما عليه ألا يقبلها أولوا الجهل والتحامل، ورحم الله القائل:

ما ضَرَّ شمسَ الضُّحى في الأُفْقِ طالعةً ... أن لا يَرى ضوءَها مَن ليس ذا بَصَرِ

يقول التاج رحمه الله «وذكره الفاضل الأديب أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَريُّ، في كتاب «مسالك الأبصار»، فقال بعد ذِكْر نسبه: حُجَّة المذاهب، مفتي الفِرَق، قُدوة الحفَّاظ، آخر المجتهدين، قاضي القضاة، تقي الدين أبو الحسن، صاحب التصانيف، التقيُّ البَرُّ، العليُّ القَدْر.

سَمِيُّ عليٍّ كَرَّم الله وجهه، الذي هو باب العلم، ولا غَرْوَ أنْ كان هذا المدخَل إلى ذلك الباب، والمستخرِج مِن دقيق ذلك الفضلِ هذا اللُّباب، والمُسْتَمِير من تلك المدينة التي ذلك البابُ بابُها، والواقف عليها من سَمِيِّه، فذاك بابها، وهذا بَوَّابُها[1]. وبحرٌ لا يُعرف

(١) حديث: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها» أخرجه الحاكم في المناقب في مستدركه ١٢٧/٣، والطبراني في معجمه الكبير، عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً، وحَسَّن السخاوي رحمه الله حديث ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: المقاصد الحسنة ص ٩٧ ـ ٩٨، قال ابن عراق الكناني ـ رحمه الله ـ في «تنزيه الشريعة». «وسئل الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث في فتيا، فكتب عليها هذا الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، وخالف أبو الفرج بن الجوزي فذكره في الموضوعات، والصواب خلاف قولهما معاً، وأن الحديث من قسم الحسن، لا يرتقي إلى الصحة، ولا ينحط إلى الكذب، وبيان ذلك يستدعي طولاً، ولكن =

له عِبْر[1]، وصَدْر لا يُداخِله كِبْر، وأفقٌ لا تَقيسُه كفُّ الثريّا بشِبْر، وأَصيلٌ[2] قَدْرُه أجلُّ مما يُمَوِّه به لُجَيْنَ[3] النهار ذائبُ التِّبْر.

إمامٌ ناضح عن رسول الله ﷺ بنِضاله، وجاهد بجِداله، ولم يُلَطِّخ بالدماء حَدَّ نِصَاله.

حَمَى جنابَ النبوةِ الشريفَ بقيامه في نصره، وتسديد سهامه للذبِّ عنه من كِنانة مِصْره، فلم يُخْطِ على بُعْدِ الدِّيار سهمُه الراشِق، ولم يُخْفِ مَسامَّ تلك الدَّسائس فَهْمُه الناشِق.....

ولله أوسٌ آخَرُونَ وخَزْرَجُ[4]

... بَزَغ مِنْ مَطْلَع الصحابة رضي الله عنهم، ونزع به عِرْقُه إلى التابعين لهم بإحسان، وهو مثلهم إن لم يكن منهم.

= هذا هو المعتمد. وقال في «لسان الميزان»: هذا الحديث له طرق كثيرة في مستدرك الحاكم أقل أحوالها أن يكون للحديث أصل، فلا ينبغي أن يُطلق عليه القول بالوضع. انتهى. وللحافظ العلائي في أجوبته عن الأحاديث التي تعقّبها السراج القزويني على «مصابيح البغوي» فصلٌ طويل في الرد على ابن الجوزي وغيره ممن حكم بوضع هذا الحديث، وحاصله الحكم على الحديث بأنه حسن». انظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ١/٣٧٨. وانظر: مجمع الزوائد ٩/١١٤، الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين للغماري ١٨٩.

(١) العِبْر: بكسر العين، وقد تفتح: الشاطئ. انظر: لسان العرب ٤/٥٢٩، مادة (عبر).

(٢) الأصيل: هو العَشِيُّ ـ انظر: لسان العرب ١١/١٦، مادة (أصل).

(٣) اللُّجَيْن: الفضة. انظر: لسان العرب ١٣/٣٧٩، مادة (لجن).

(٤) صَدْره: فيدرِكُ ثأرَ الله أنصارُ دِينِه. وهو لابن الرومي. انظر: ديوانه ص ٤٩٧، وانظر: مقاتل الطالبيين ص ٦٥٦.

وبَرَّز في طلب العلم حتى أسكت لسانَ كلِّ متكلِّم، وأمات ذِكْر كلِّ متقدِّم، وأحيا إمامة الشافعيِّ بنشر مذهبِه، ونَصْرِ ذي النسب القرشيِّ في عَلْياء رُتَبه.....

لا تَرِد الهِيمُ[1] إلا حياضَه، ولا يَعدُ النسيمُ إلا رياضَه[2]، حتى تَفَردَّ والزمانُ بعدد أهله مشحون، والعصر بمحاسن بنيه مفتون.....

وانتهت إليه مَشْيَخةُ دار الحديث بالاستحقاق فَوَلِيَها، وعُرِضَتْ عليه أخواتُها فما رَضِيَها.....

وهذا هو اليومَ ـ والله يُبْقيه ـ خيرُ مَنْ أظلَّتْه خَضْراؤُها، وصَغُرت لدى قَدْرِه الجليلِ كبراؤُها، قد ملك قلوبَ أهلها المتباينة، وساق بعَصاه سَوَائم شُرُدِها[3] المتعاصيَة، واستَوْسَق به أمرُ الشام لعليٍّ[4]، وكان لا يُطيع إلا معاوية. انتهى[5].

---

(١) أي: الإبل العطاش. انظر: لسان العرب ١٢/٦٢٧، مادة (هيم).

(٢) رِيَاض: جمع رَوْضه، وهي الأرض ذات الخضرة، والبستان الحسن.
انظر: لسان العرب ٧/١٦٢، المصباح ١/٢٦٣، مادة (روض) والمعنى: أن النسيم لا يأتي ولا يَرِد إلا إليه؛ لأنه لم يَعدْ أحداً غيرَه بالمجيء إليه.

(٣) شُرُد: جمع شَرُود، مثل زَبُور وزُبُر.
انظر لسان العرب ٣/٢٣٧، مادة (شرد).

(٤) أي: اجتمع أهل الشام على طاعة علي ﷺ بسببه. انظر: لسان العرب ١٠/٣٨٠، مادة (وسق) وهذا والله أعلم إشارة إلى رَفْضِ النَّصْب وإزالته عن الشام، والنَّصْب: هو بُغض علي ـ ﷺ ـ وآله، وكان منتشراً بالشام.

(٥) أي: كلام ابن فضل الله العُمَري، رحمه الله تعالى.

وذكر بعد ذلك شيئاً من حاله، وقال في آخره: وانتهت إليه رياسةُ العلم في القِراءات، والحديث، والأصلَيْن، والفقه.

هذا كلامُ ابن فضل الله، ولا يَخفى ما كان بينه وبين الوالد من الشحناء»[1].

وقد ذكر التاج رحمه الله بعد ذلك ما قاله عن والده الشيخُ الإمام صلاحُ الدين خليل بن أيْبَك الصَّفديُّ في كتابه «أعيان العَصْر»، وهو مِنْ تلامذه، ويحكي ما شاهده لا ما نُقِل إليه، وكلامه لا يَخرج عما قاله التاج، فَرَحم الله الجميع، وحَشَرنا في زمرتهم، ولولا خشية الإطالة لنقلت ما قاله الصفدي، ولكن أكتفي بهذين البيتين اللذَيْن قالهما الصفدي رحمه الله:

يا سَعْدَ هذا الشافعيِّ الذي ... بَلَّغهُ اللّهُ تعالى رضاهْ

يَكفيه يومَ الحشرِ أنْ عُدَّ في ... أصحابِه السُّبْكيُّ قاضي القضاةْ[2]

وقد وضع الأديب الفاضل بدر الدين الحسن بن محمد بن حبيب[3]

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٤٨ ـ ١٥٧.

(٢) انظر: أعيان العصر ٣/٤١٨، الطبقات الكبرى ١٠/١٥٧.

(٣) هكذا ورد اسمه في ترجمة ابن السبكي لوالده، والظاهر أن هذا تصحيف من الناسخ، فإن المذكور هو الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، أبو محمد بدر الدين الدمشقي الأصل الحلبي الشافعي. المسنِد الأديب، المنشئ المؤرخ. ولد سنة ٧١٠ هـ. قال ابن حجر: «كان فاضلاً كيساً صحيح النقل». من مصنفاته: «درة الأسلاك في دولة الأتراك» وهو سجع كله، و «نسيم الصبا» في الأدب، و«أسنى المطالب في =

كتاباً في مناقب التقي رحمه الله، سماه «إعلام الأعلام بأحوال شيخ الإسلام والشيخ الإمام» وقد نقل منه التاج في ترجمته الخاصة بوالده، وهي غير ترجمته التي أنقل منها في «الطبقات الكبرى»، وقد أثنى ابن حبيب على التقي ـ رحمهما الله ـ بثناء عجيب، وحاصله أنه واحد زمانه علماً وعملاً وأخلاقاً، فهو كما قال ابن حبيب:

عَلاَّمة العلماء والبحرُ الذي لا ينتهي ولكلِّ بحرٍ ساحلُ

وهو كما قال ابن حبيب بعد كلام طويل في وصفه: «وبالجملة فتفصيل أحواله بعيدُ المرام، وشَرْحُ أنبائه يَعجز عن إعرابه ألسن الأقلام، وما في النفس منه لا يمكن أن يُحصر، واختصار القول أولى وأجدر:

وما أنا في الثناء عليه إلا كمَنْ أهدَى إلى صُبحٍ شهابا

والله تعالى يُحِلّه روضَ رضوانه، ويُمتِّعه بالدَّاني مِنْ جَنى جِنانه»[1].

وأجد من الضروري أن أنقل كلام التاج رحمه الله في بيان سعة علم والده على التفصيل، وقوة حفظه الخارق، واطلاعه العجيب على شتى العلوم؛ ليُعْلم أن ما قيل في الرجل ليس مبالغة، ولا محاباة، بل الرجل من عجائب الدهر، وفرائد الزمان، والله سبحانه وتعالى يُؤتي فضله من يشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2]، ولله در القائل:

= أشرف المناقب» وهو سجع أيضاً. توفي بحلب سنة ٧٧٩ هـ. انظر الدرر ٢/٢٩، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/٨٨، شذرات ٦/٢٦٢.

(١) انظر حاشية الطبقات الكبرى ١٠/١٦١ ـ ١٦٥.

(٢) سورة البقرة: ١٠٥. وسورة آل عمران: ٧٤.

وليس على الله بمُستنْكَرٍ أن يَجْمع العالَمَ في واحدِ[1]

قال التاج رحمه الله:

«قلتُ: أما أنا فأقول، والله على لسان كل قائل: كان ذهنه أصحَّ الأذهان، وأسرعها نفاذاً، وأوثقها فهماً، وكان آية في استحضار التفسير، ومتون الأحاديث، وعَزْوِها، ومعرفة العِلل وأسماءِ الرجال، وتراجمِهم ووَفَياتهم، ومعرفةِ العالِي والنازِل، والصحيحِ والسقيم، عجيبَ الاستحضار للمغازي والسِّيَر والأنساب، والجرح والتعديل، آيةً في استحضار مذاهب الصحابة والتابعين، وفِرَق العلماء، بحيث كانت تَبْهَتُ الحنفية والمالكية والحنابلة إذا حضروه؛ لكثرة ما ينقله عن كُتُبهم التي بين أيديهم، آية في استحضار مذهب الشافعي، وشَوَارِد فروعه، بحيث يظن سامعُه أنه البحر الذي لا تغيب عنه شاردة. إذا ذُكر فَرعٌ وقال: لا يحضرني النقلُ فيه ـ فيعزُّ على أبناء الزمان وُجدانُه بعد الفحص والتنقيب، وإذا سُئل عن حديث، فشَذَّ عنه ـ عَسُر على الحفَّاظ معرفتُه.

وكان يُقال: إنه يستحضر الكتب الستة غير ما يستحضره من غيرها من المسانيد والمعاجم والأجزاء.

وأنا أقول: يبعُد كلَّ البُعْد أن يقول في حديث: لا أعرف مَنْ رواه، ثم يُوجد في شيءٍ من الكتب الستة، أو المسانيد المشهورة.

وأما استحضار نصوصِ الشافعي وأقوالِه ـ فكان يكاد يحفظ «الأم»،

---

(١) قائل البيت أبو نواس. انظر: ديوانه ص٤٥٤، تحقيق د/أحمد عبد المجيد الغزالي.

و «مختصر المزني»[1]، وأمثالهما.

وأما استحضاره في علم الكلام، والمِلَلِ والنِّحَلِ، وعقائد الفِرَق من بني آدم ـ فكان عَجَباً عُجابا.

وأما استحضاره لأبيات العرب وأمثالها ولغتها ـ فأمرٌ غريب، لقد كانوا يقرؤون عليه «الكشاف»، فإذا مَرَّ بهم بيتٌ من الشعر سرد القصيدة، غالِبَها أو عامَّتَها مِنْ حفظه، وعزاها إلى قائلها، وربما أخذ في نظائرها، بحيث يتعجب مَنْ يحضر.

وأما استحضاره لـ «كتاب سيبويه»[2]، وكتاب «المُقَرَّب» لابن عُصْفُور[3] ـ فكان عجيباً، ولعله درس عليهما.

---

(١) إسماعيل بن يحيى المزني المصري، أبو إبراهيم الفقيه الشافعي تلميذ الإمام الشافعي. كان زاهداً عالماً، مجتهداً مناظراً. ولد سنة ١٧٥ هـ. قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. وقال: لو ناظر الشيطان لغلبه. اهـ. من مصنفاته: الجامع الكبير، الجامع الصغير، الترغيب في العلم. توفي سنة ٢٦٤ هـ. انظر الأنساب ٢٧٨/٥، وفيات ٢١٧/١، سير ٤٩٢/١٢، الطبقات الكبرى ٩٣/٢، شذرات ١٤٨/٢.

(٢) هو إمام النحو حجة العرب أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنْبر الفارسي ثم البصري، الملقَّب سيبويه. نشأ بالبصرة وطلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يُدْرَك شأوه فيه. توفي سنة ١٨٠ هـ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة. انظر: وفيات ٤٦٣/٣، سير ٣٥١/٨، بغية الوعاة ٢٣١/٢.

(٣) أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عُصْفُور النحوي الحضرمي الإشبيلي، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس. ولد سنة ٥٩٧ هـ، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يَمَلُّ مِنْ ذلك، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو، ولا تأهل لغير =

وأما حفظه لشوارد اللغة فأمر مشهور، وكنت أنا أقرأ عليه كتاب «التلخيص» للقاضي جلال الدين[1]، في المعاني والبَيان، أنا وآخَرُ معي، ولم يكن فيما أظن وقف على «التلخيص» قبل ذلك، وإنما أقرأه لأجلي، وكنا نُحْكِم المطالعةَ قبل القراءة عليه، فيجيء فيستحضر من «مفتاح السَّكَّاكي» وغيرِه من كلام أهل المعاني والبيان، ما لم نَطَّلع عليه نحن، مع مبالغتنا في النظر قبل المجيء، ثم يُوَشِّح ذلك بتحقيقاته التي تُطْرِب العقول.

وكنت أقرأ عليه «المحصول» للإمام فخر الدِّين، و«الأربعين» في الكلام له، و «المُحَصَّل» فكنت أرى أنه يحفظ الثلاث عن ظهر قلب.

وأما «المُهَذَّب» و «الوسيط» فكان في الغالب ينقل عبارتَهما بالفاء والواو، كأنه درس عليهما.

وأما «شرح الرافعي» الذي هو كتابنا، ونحن ندأب فيه ليلاً ونهاراً، فلو قلتُ كيف كان يستحضره ـ لاتَّهمني مَنْ يسمعني.

= ذلك. قال الصفديُّ: ولم يكن عنده ورع، وجلس في مجلس شراب، فلم يزل يرجم بالنارنج إلى أن مات. توفي سنة ٦٦٩ هـ.

انظر: شذرات ٥/٣٣٠، الأعلام ٥/٢٧.

(١) هو القاضي محمد بن عبد الرحمن بن عمر العجلي القزويني ثم الدمشقي، جلال الدين أبو المعالي الشافعي. ولد بالموصل سنة ٦٦٦ هـ. اشتغل في الفنون، وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان. من مصنفاته: «تلخيص المفتاح» في المعاني والبيان، «والإيضاح» شرح التلخيص، وغيرهما. توفي سنة ٧٣٩.

انظر: الدرر ٤/٣، شذرات ٦/١٢٣، الأعلام ٦/١٩٢.

هذا وكأنه ينظر «تعليقة» الشيخ أبي حامد[1]، والقاضي الحسين[2]، والقاضي أبي الطيب[3]، و«الشامل» و«التَّتِمَّة» و«النهاية» وكتب المحامِلِيّ[4]، وغيرهم مِنْ قُدماء الأصحاب، ويتكلم لكثرة ما يستحضره منها بالعبارة.

حَكَى لي الحافظ تقيُّ الدين بن رافع[5]، قال: سَبَقنا مرةً إلى البستان،

---

(١) هو أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني، أبو حامد، شيخ الإسلام وشيخ الشافعية ببغداد. ولد سنة ٣٤٤ هـ. من مؤلفاته: التعليقة الكبرى، وكتاب في أصول الفقه. توفي سنة ٤٠٦ هـ. انظر :تاريخ بغداد ٣٦٨/٤، الطبقات الكبرى ٦١/٤، سير ١٩٣/١٧.

(٢) هو الإمام الحسين بن محمد بن أحمد، أبو علي القاضي المَرْوَرُّوذِيُّ، فقيه خراسان، وحَبْر الأمة. من مصنفاته: «التعليقة» في الفقه، وغيرها. توفي سنة ٤٦٢ هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٣٥٦/٤، شذرات ٣١٠/٣، الأعلام ٢٥٤/٢.

(٣) هو الإمام القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري الشافعي، شيخ الإسلام، وفقيه بغداد. ولد سنة ٣٤٨. من مصنفاته: شرح مختصر المزني، التعليقة الكبرى في الفروع الشافعية، والمجرد. توفي سنة ٤٥٠ هـ. انظر: تاريخ بغداد ٣٥٨/٩، طبقات الفقهاء ص ١٣٥، سير ٦٦٨/١٧، الطبقات الكبرى ١٢/٥.

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبي البغدادي، المحاملي، الإمام الكبير شيخ الشافعية. ولد سنة ٣٦٨ هـ. من مصنفاته: المجموع، والمقنع، واللباب، وغيرها. توفي سنة ٤١٥ هـ، أو ٤١٤ هـ.
انظر تاريخ بغداد ٣٧٢/٤، طبقات الفقهاء ص ١٣٦، سير ٤٠٣/١٧، الطبقات الكبرى ٤٨/٤.

(٥) هو محمد بن رافع بن أبي محمد هجرس السلاّمي تقي الدين أبو المعالي، الحوراني الأصل، المصري المولد والمنشأ ثم الدمشقي الشافعي. ولد سنة ٧٠٤ هـ. كان =

فجئنا بعدَه، ووجدناه نائماً، فما أردنـا التشـويشَ عليـه، فقـام مـن نومـه، ودخل الخَلاء على عادته، وكان يريد أن يكون دائمـاً علـى وضـوء، فلمـا دخل ظهرَ لنا كراس تحت رأسه، فأخذناه فإذا هـو مِـنْ «شـرح المنـهاج»، وقد كتب عن ظَهر قلب نحو عشرة أوراق، قال: فنظرها رفيقٌ كان معـي، وقال: ما أعجب لكتابته لها مِـنْ حفظـه، ولا مما نقلـه مـن كـلام الرافعـي و«الروضـة»، وإنما أعجـب مـن نقلـه عـن سُـلَيم[1] في «المُجَـرَّد»، وابـن الصَّبَّاع[2] في «الشـامل» مـا نَقَـل، ولم يكـن عنـده غـير «المنـهاج» ودواةٍ وورقٍ أبيض، وكنا قد وجدنا فيها نقولاً عنهما.

قلتُ أنا: مَن نظر «شرح المنهاج» بخطِّه عـرف أنـه كـان يكتـب مـن

= محدثاً متقناً، معجم شيوخه يشتمل على أكثر مـن ألـف شـيخ، وكـان تقـي الـدين السبكي يرجِّحه في معرفة اصطلاح أهل الحديث على ابن كثير. من مصنفاته: معجـم شيوخه، ذيل على تاريخ بغداد لابن النجار. توفي سنة ٧٧٤ هـ بدمشق. انظر: الدرر ٤٣٩/٣، شذرات ٢٣٤/٦.

(١) سُلَيْم بن أيوب بن سُلَيْم، أبو الفتح الرازي الشافعي المفسِّر، صاحب التصانيف. ولد سـنة ٣٦٥ هــ. كـان فقيهـاً أصـولياً رأسـاً في العلـم والعمـل. مـن مصنفاته: «ضـياء القلوب» في التفسير، «غريب الحديث». تُوفي غريقاً سنة ٤٤٧ هـ. انظـر: الطبقـات الكبرى ٣٨٨/٤، طبقات الفقهاء ص ١٣٩، شذرات ٢٧٥/٣، الأعلام ١١٦/٣.

(٢) هـو الإمـام العلامـة الفقيـه الأصـولي المجتهـد عبـد السـيد بـن محمـد بـن عبـد الواحـد البغدادي، أبو نصر بن الصباغ الشافعي. ولـد ببغـداد سـنة ٤٠٠ هــ. مـن مصـنفاته: «الكامـل» في الخـلاف بـين الحنفيـة والشـافعية، «تـذكرة العـالم والطريـق السـالم»، «العـدة» في أصـول الفقـه. تـوفي سـنة ٤٤٧ هــ. انظـر: سـير ٢٦٤/١٨، الطبقـات الكبرى ١٢٢/٥، شذرات ٣٥٥/٣.

حفظه، ألا تراه يَعمل المَسْطَرة والورق على قَطْع الكبير، أحدَ عشَر سطراً، وما ذلك إلا لأنه يكتب من رأس القلم، ويُريد أن ينظر ما يُلْحِقُه، فلذلك يعمل المَسْطَرة مُتَّسِعةً، ويترك بياضاً كثيراً.

قلت: وكنت أراه يكتب متن «المنهاج»، ثم يفكر، ثم يكتب، وربما كتب المتن، ثم نظر الكتب، ثم وضعها من يده، وانصرف إلى مكانٍ آخر، وجلس ففكّر ساعة، ثم كتب.

وكثير من مصنَّفاته اللِّطاف كتبها في دُرُوج ورق المُراسَلات، يأخذ الأوصال ويُثنيها طُولاً، ويجعل منها كراساً ويكتب فيه؛ لأنه ربما لم يكن عنده ورقُ كراريس، فيكتب فيها من رأس القلم، وما ذلك إلا في مكانٍ ليس عنده فيه كتب ولا ورقُ النسخ.

وأما البحث والتحقيق وحُسْنُ المناظرة ـ فقد كان أستاذَ زمانه، وفارسَ ميدانه، ولا يختلف اثنان في أنه البحر الذي لا يُسَاجَل في ذلك، كلُّ ذلك وهو في عَشْر الثمانين، وذِهنُه في غاية الاتقاد، واستحضاره في غاية الازدياد.

ولما شَغَرت مشيخةُ دار الحديث الأشرفيَّة، بوفاة الحافظ المِزِّي ـ عَيَّن هو الذهبي لها، فوقع السَّعْيُ فيها للشيخ شمس الدين بن النقيب[1]، وتُكُلِّم في حق الذهبي: بأنه ليس بأشعريّ، وأن المِزِّيَّ ما وَلِيَها

(١) هو الإمام محمد بن أبي بكر بن إبراهيم الدمشقي القاضي شمس الدين بن النقيب الشافعي. ولد سنة ٦٦١ أو ٦٦٢ هـ. كان من أصحاب الإمام النووي ﷺ، وكان من قضاة العدل وبقايا السلف. من مصنفاته: مقدمة في التفسير، عمدة السالك وعدة الناسك. توفي بدمشق سنة ٧٤٥ هـ. انظر: الدرر ٣/٣٩٨، الطبقات الكبرى ٩/٣٠٧، الأعلام ٦/٥٥.

إذ وَلِيَها إلا بعد أن كتب خطه وأشهد على نفسه: بأنه أشعريٌّ العقيدة.

واتسع الخَرْق في هذا، فجمع ملك الأمراء الأمير علاء الدين أُلْطُنْبُغا نائبُ الشام إذ ذاك ـ العلماءَ، فلما استشار الشيخَ الإمام ـ أشار بالذهبي.

فقام الصائح بين الشافعية والحنفية والمالكية، وتوقَّفوا فيه أجمعون، وكان من الحاضرين الشيخ نجم الدين القَحْفازيُّ[1] شيخ الحنفية، فقال له الشيخ الإمام: أَيْشَ تقول؟ فقال:

وإليكُمُ دارُ الحديث تُسَاقُ

أبْدلَ «هذا» بـ «دار».

فاستحسن الجماعة هذا منه، ودار إلى مَلِك الأمراء، وقال: أعْلَمُ الناس اليوم بهذا العلمِ قاضي القضاة، والذهبيُّ، وقاضي القضاة أشعريٌّ قطعاً، وقطع الشك باليقين أولى.

فوَلِيَها الشيخ الإمام، ولم يكن مختاراً ذلك، بل كان يكرهه، وقام من وقته إلى دار الحديث، وبين يديه الذهبي وخَلْق، فروى بسنده من طرقٍ شتى منه إلى أبي مُسْهِر ـ حديثَ «يا عبادي»، وتكلم على رجاله ومُخَرِّجه، بحيث لم يسع المجلسُ الكلامَ على أكثرَ من رجال الحديث

---

(١) هو علي بن داود بن يحيى بن كامل الزبيري، القرشي الأسدي، من نسل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. ولد سنة ٦٦٨ هـ. كان شيخ أهل دمشق في عصره، خصوصاً العربية. قال الذهبي: «كان من أذكياء وقته، مع الديانة والورع». لم يصنف إلا مَنْسكاً للحج خشيةً من الانتقاد عليه في التصنيف. توفي سنة ٧٤٥ هـ.
انظر: الدرر ٣/٤٧، بغية الوعاة ٢/١٦٦، الجواهر المضية ٤/٢٨٣.

ومُخَرِّجه، إلى أن بُهِت الحاضرون، لعلمهم أن الشيخ الإمام مِن سنين كثيرةٍ لا ينظر الأجزاءَ ولا أسماءَ الرجال، ولقد قال الذهبي:

وما عَلَّمَتْنِي غيرَ ما القلبُ عالِمُهْ[1]

والله كنتُ أعلم أنه فوق ذلك، ولكن ما خَطَر لي أنه مع التَّرك والاشتغال بالقضاء يَحْضُر من غير تهيئةٍ، ويُسْنِد هذا الإسناد. انتهى.

وبالجملة: كان مع صحة الذهن واتِّقاده ـ عظيمَ الحافظة، لا يكاد يسمع شيئاً إلا حَفِظه، ولا يحفظ شيئاً فينساه، وإن طال بُعْدُه عن تذكُّره، جُمِعت له الحافظة البالغة، والفهمُ الغريب، فما كان إلا نُدْرَةً في الناس، وَوَحقِّ الحقِّ لو لم أشاهدْه، وحُكِي لي أنَّ واحداً من العلماء احتوى على مثل هذه العلوم، وبلغ أقصى غاياتها، نقلاً وتحقيقاً، مع صحة الذهن، وجودة المناظرة، وقوة المغالبة، وحُسْنِ التصنيف، وطولِ الباع في الاستحضار، واستواءِ العلوم بأسرها في نَظَره ـ أحسَبُه وَهْماً.

وأقول: كيف تَفِي القُوَى البشرية بذلك، ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء:

وليس على الله بمُسْتنكرٍ ... أنْ يَجْمع العالَمَ في واحدِ»

قال الإمام السيوطي رحمه الله: « وقال ابنه في «الترشيح»: قال

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدته التي يمتدح بها سيف الدولة، وهو بتمامه:

وما استَغْرَبَتْ عيني فِراقاً رأيتُهُ ... ولا عَلَّمَتْنِي غيرَ ما القلبُ عالِمهْ

انظر: ديوانه ٣/٣٣٢.

شهاب الدين بن النقيب صاحب «مختصر الكفاية» وغيرها من المصنفات: جلستُ بمكة بين طائفةٍ من العلماء، وقعدنا نقول: لو قَدَّر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذا الزمان مجتهداً عارفاً بمذاهبهم أجمعين يركّب لنفسه مذهباً من الأربعة، بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلّها - لازدان الزمانُ به، وانقاد الناس، فاتفق رأينا على أنّ هذه الرتبة لا تعدو الشيخَ تقي الدين السبكي، ولا ينتهي لها سواه»[1].

وأختم بمقالة التاج التي يكسوها ثوب الإنصاف، ومعرفة عظمة بعض أقرانه مع عدم الإجحاف، يقول رحمه الله:

«وقد عَرَّفناك أنه تفرَّد في الإقليم، وصار المشارَ إليه بالعلوم كلّها، الملحوظَ بعَيْن التحقيق، من سنة ست عشرةَ التي مات فيها الشيخ صدر الدين بن الوكيل قرينُه[2]، واستمر إلى وفاة الشيخين تقي الدين بن تيمية، وكمال الدين بن الزَّمْلَكاني[3]، فلما تُوُفِّيا تَفَرَّد في العصر بأجمعه، ولا أعلم

---

(١) انظر: حسن المحاضرة ١/٣٢١، الرد على مَنْ أخلد إلى الأرض ص ١٦٢.

(٢) هو الإمام محمد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد، صدر الدين بن المُرَحِّل الشافعي ولد سنة ٦٦٥ هـ. كان إماماً كبيراً، بارعاً في المذهب والأصلين، يضرب المثل باسمه، فارساً في البحث نَظّاراً، مُفْرِط الذكاء، عجيبَ الحافظة، حتى قيل: إنه حفظ كتباً وُضِع بعضها على بعض فكانت قامة. من مصنفاته: شرح الأحكام لعبد الحق، الأشباه والنظائر. توفي بمصر سنة ٧١٦ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/٢٥٣، الدرر ٤/١١٥.

(٣) هو الإمام العلامة محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم، كمال الدين بن الزَّمْلَكَانِيّ الشافعي. ولد سنة ٦٦٧ هـ. صنف الرد على ابن تيمية في الطلاق، وفي =

غيره مكث سبعاً وعشرين سنة لا يختلف اثنان في أنه أعلمُ أهلِ الأرض على الإطلاق في كل علم، فإنه مكث من سنة تسع وعشرين، إلى سنة ست وخمسين، وفيها مات عالم الأرض بالإجماع»[1].

ونظيرها قوله رحمه الله: «ووَلِيَ بعد وفاة الحافظ المِزِّيِّ مشيخةَ دار الحديث الأشرَفِيَّة، فالذي نراه أنه ما دخلها أعلمُ منه، ولا أحفظُ من المِزِّيِّ، ولا أورعُ من النووي وابن الصلاح»[2].

ونظيرهما قوله: «لم تَرَ عيناىَ أحفظَ من أبي الحجَّاج المِزِّي، وأبي عبدالله الذهبي، والوالد، رحمهم الله. وغالبُ ظني أن المِزِّي يفوقهما في أسماء رجال الكتب الستة، والذهبي يفوقهما في أسماء رجال مَنْ بعد الستة، والتواريخِ والوَفَيات، والوالد يفوقهما في العِلَل، والمُتُونِ، والجرحِ والتعديل، مع مشاركة كلٍّ منهم لصاحِبَيْه فيما يتميَّزُ به عليه ـ المشاركةَ البالغة»[3].

= الزيارة، وصنف كتاباً في تفضيل البشر على الملك. توفي سنة ٧٢٧ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٩٠، الدرر ٤/٧٤.

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٦٧.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٦٩.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٢٠.

المبحث السادس

قوته في المناظرة

يقول جمال الدين الإسنوي رحمه الله عن شيخه التقي السبكي رحمه الله: «شيخنا تقي الدين أبو الحسن، علي بن عبد الكافي بن علي السبكي. كان أنظر مَنْ رأيناه مِنْ أهل العلم، ومِنْ أجمعهم للعلوم، وأحسنهم كلاماً في الأشياء الدقيقة، وأجلدهم على ذلك. إن هَطَل درُّ المقال فهو سحابُه، أو اضطرم نارُ الجدل فهو شهابُه. وكان شاعراً أديباً، حسن الخط، وفي غاية الإنصاف، والرجوع إلى الحق في المباحث، ولو على لسان أحد المستفيدين منه...»[(١)].

يقول التاج رحمه الله عن والده حينما كان بالشام في طلبه للحديث سنة ست وسبعمائة، يعني ووالده يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة:

«وحضر دروس أكثرهم، فحضر دروس قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى، وناظر بين يديه الشيخَ صدرَ الدين بن الوكيل.

وحضر دروسَ الشيخ كمال الدين بن الزَّمْلكاني، بالشامية البَرانية[(٢)]،

---

(١) انظر: طبقات الإسنوي ١/٣٥٠.

(٢) هذه مدرسة أنشأتها ست الشام خاتون ابنة نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء، وأكثرها أوقافاً. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن ست الشام هذه: =

وناظره، وطال بهما المجلس حتى كادت الشمس تزول، والفضلاء وابن الزملكاني يقول: سَبَكنا السبكيُّ اليومَ.

وحضر درسَ الشيخ صدر الدين بن المُرحِّل، في الشامية الجُوانيَّة، وناظره»[1].

ويقول التاج أيضاً: «واجتمعنا ليلة، أنا والحافظ تقيُّ الدين أبو الفتح، والأخ المرحوم جمال الدين الحُسين[2]، والشيخ فخر الدين الأَقْفَهْسِيُّ[3]، وغيرُهم، فقال لي بعض الحاضرين نشتهي أن نسمع

= «واقفة المدرستين: البرانية والجوانية، الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادي، أخت الملوك وعمة أولادهم، وأم الملوك، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً.... وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك، وتفرِّقه على الناس». البداية والنهاية ٩٢/١٣. وكانت شرطت في وقفها: أن لا يجمع المدرِّس بينها وبين غيرها. توفيت الخاتون سنة ٦١٦هـ. انظر: الدارس في تاريخ المدارس ٢٧٧/١، دول الإسلام ١٢٠/٢.

(١) الطبقات الكبرى ١٦٦/١٠.

(٢) الحسين بن علي بن عبدالكافي السبكي، جمال الدين أبو الطيب القاضي. ولد سنة ٧٢٢ هـ. كان من أذكياء العالم. قال الصفدي: كان ذهنه ثاقباً، وفهمه لإدراك المعاني مراقباً، حفظ «التسهيل» لابن مالك... وحفظ «التنبيه». اهـ. توفي في شهر رمضان سنة ٧٥٥هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٤١١/٩، الدرر ٦١/٢، شذرات ١٧٧/٦.

(٣) هو محمد بن عبد الوهاب بن يوسف الإِقْفَهْسِيُّ ثم الدمشقيُّ، الفقيه الشافعيّ، فخر الدين، كان فاضلاً نَقّالاً، قويَّ الحافظة، يُقال: إنه حفظ المُحَرَّر في ستة وثلاثين يوماً. مات شاباً في ذي القَعدة سنة ٧٤١هـ. انظر: الدرر ٣٧/٤، شذرات ١٣٢/٦.

مناظرتَه، وليس فينا مَنْ يَدِلُّ عليه غيرُك. فقلت له: الجماعةُ يريدون سماعَ مناظرتك على طريق الجدل.

فقال: بسم الله. وفهمتُ أنه إنما وافق على ذلك لمحبته فيَّ، وفي تعليمي.

فقال: أبْصِروا مسألةً فيها أقوالٌ بقدر عَدَدِكم، وينصرُ كلٌّ منكم مقالةً يختارها من تلك الأقوال، ويجلس يَبْحث معي.

فقلت أنا: مسألة الحرام.

فقال: بسم الله، انصرِفُوا فلْيطالعْ كلٌّ منكم، ويحرِّرْ ما ينصرُه فقمنا وأعملَ كلٌّ واحدٍ جُهدَه، ثم عُدْنا وقد كاد الليلُ ينتصف، وهو جالسٌ يتلو هو وشيخنا المسنِد أحمد بن علي الجزري الحنبلي[1] رحمه الله، فقال: عبدالوهَّاب هاتِ، حسين هاتِ، هكذا يخصُّني أنا وأخي بالنداء.

فابتدأ واحدٌ من الجماعة، فقال له: إن شئتَ كُن مستدلاً وأنا مانعٌ، وإن شئتَ بالعكس.

فحاصل القضية أن كُلاًّ منا صار يستدل على مقالته، وهو يمنعه، ويبيِّن فسادَ كلامه إلى أن ينقطع، ويأخذ في الكلام مع الآخر حتى انقطع الجميع.

---

(١) هو أحمد بن علي بن الحسن الجزري ثم الصالحي أبو العباس الهكاري العابد. ولد سنة ٦٤٩هـ. قال الذهبي: تفرد وقصده الطلبة، وكان كثير الذكر والتلاوة. قال السبكي: لم أر أجلد على العبادة منه. توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر: الدرر ٢٠٧/١.

فقال بعضنا: فأين الحق؟.

فقال: أنا أختار المذهب الفلاني الذي كنت يا فلان تنصره، ونصره إلى أن قلنا: هو الحق.

ثم قال: بل أختار المذهب الذي كنتَ يا فلان تنصرُه.

وهكذا أخذ ينصر الجميع، إلى أن قال له بعضنا: فأين الباطل؟.

فقال: الآن حصحص الحق، المختار مذهب الشافعي، وطريق الردِّ على المذهب الفلاني كذا، والمذهب الفلاني كذا، والمذهب الفلاني كذا، وقَرَّر ذلك كلّه، إلى أن قضينا العَجَب، وكلٌّ منا يَعرف أن أقلَّ ما يكون للشيخ الإمام عن النظر في مسألة الحرام سِنين كثيرة[1]»[2].

(١) وعمر التاج آنذاك في الرابعة عشر على الأكثر؛ لأن الشيخ الأقْفَهْسِيّ مات في سنة ٧٤١هـ، فعمر التاج حين موته أربع عشرة سنة، فالتاج حين حصول المناظرة المذكورة إما في هذا السن أو دونه.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٠٣ ـ ٢٠٤.

المبحث السابع

فصاحته وبلاغته

يقول الصلاح الصفدي رحمه الله: «وأما فنُّ الأدب فما احتاج مع أسماء كتبه وتصانيفه إلى بيان، وهي تشهد له بأدبه وذوقه. وأما الهجاء وفن الكتابة فكان ما يلحق فيه»[1].

وقد ذكر ابنه التاج نماذج من شعره الذي يدل على باعه في الأدب، وقوة تمكنه في النظم، وبعضها نصائح لأبنائه، وبعضها زهد ورقائق، وما ورد في بعضها من غزل فهي على لغة الشعر التي لا تخفى، وطريقة العرب وعادتها في لغتها البليغة الفصحى، والشاعر المتمكن هو الذي يجيد كلَّ أضرب الشعر والبلاغة. ولذلك ما زال العلماء سلفاً وخلفاً ينظمون في شعر الغزل وغيره، دلالةً على براعتهم في هذا الفن لا غير، بل تصدير القصائد بالغزل عادة العرب، فهو مِنْ محسنات الشعر وطرائفه[2].

---

(١) انظر: أعيان العصر ٣/٤٢٧.

(٢) قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «وقد جمع الإمام الطبراني جزءاً حافلاً في غزل التابعين وتابعيهم، وذكر هو وغيره عن جماعة كثيرين من الصحابة أنهم سمعوه ولم ينكروه. والقاضي شريح والزبير بن بكار في «روضتيهما»، وعبدالله بن المبارك في «مرثيته» من الغزل الكثير ما يُتعجب منه. وكذا الشافعي ﷺ. وفي «التهذيب»: إن كان التشبيب في امرأة معينة (أي: غير زوجة) أو غلامٍ معين فُسِّق، وإلا فلا.... =

فمن شعره في الغزل:

قلبي مَلَكْتَ فما بِـــــــــهِ مَرْمَىً لـــواشٍ أو رَقِيـــــــبْ

قد حُزْتَ مِنْ أعْشــــــارِهِ سَهْمَ المُعَلَّى والرَّقِيـــــبْ(١)

يُحْيِيهِ قُرْبُكَ إنْ مَنَنْـــــــــــتَ به ولَوْ مِقْدارَ قِيـــبْ(٢)

يا مُتْلفِي بِبِعـــــــــادِهِ عَنِّي أما خِفْتَ الرَّقِيـــبْ(٣)

= قال الأذرعيّ: الذي يجب القطع به أن تسمية مَن لا يدري مَنْ هي، وذِكْرُ محاسنها الظاهرة، والشوقُ والمحبةُ مِنْ غير فُحْشٍ ولا ريبةٍ لا يقدح في قائله، ولا يتحقّقُ فيه خلاف، ومن ذلك تعارض الشعراء على ذكر ليلى وسَلْمى وسُعْدى والرَّباب وهند، وغير ذلك». كفّ الرعاع عن محرّمات اللهو والسماع ص٢٧٥ (المطبوع مع الزواجر). ثم ذكر الهيتمي ـ رحمه الله ـ نقلاً عن النووي ـ رحمه الله ـ أن المساجد لا يجوز فيها مطلقاً إنشاد الأشعار التي فيها صفة الخمر، أو ذكر النساء، أو المرد. يعني: ولو كانت لامرأة غير معينةٍ أو أمردٍ غير معين؛ لحرمة المساجد. انظر: كف الرعاع ص٢٧٦.

(١) سهم المُعَلَّى والرقيب سهمان لقداح المَيْسِر، فللمُعَلَّى سبعة أنصباء، وللرقيب ثلاثة، فإذا فاز الرجل بهما غلب على جَزُور (أي: جمل) الميسر كلّها، ولم يطمع غيرُه في شيء منها، وهي (أي: جزور الميسر) تُقْسَمِ على عشرة أجزاء. والمعنى: أن هذا الحبيب ضَرَب بسهامه على قلبي فخرج له السهمان اللذان يحوز بهما كل أعشار القلب، فغلبني على قلبي كلّه، وفتَنَني فملكني. انظر: لسان العرب ٥٧٣/٤، مادة (عشر)، ٤٢٥/١، مادة (رقب).

(٢) في اللسان ٦٩٣/١، مادة (قوب): «القاب: ما بين المَقْبِضِ والسِّيةِ، ولكل قوس قابان وهما بين المَقْبِضِ، والسِّيَة. والقاب والقيب بمعنى واحد، كما هو ظاهر كلام صاحب اللسان في الصفحة المذكورة.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٧٩/١٠.

ومن شعره في الغزل ما قاله في مَطْلع قصيدته في الشِّطْرَنج[1] حيث يقول ابنه التاج رحمه الله: «أنشدنا الشيخُ الإمام لنفسه قصيدتَه التي نظمها في الشِّطْرَنج، عند اقتراح الشيخ أبي حَيَّانَ ذلك على أهل العصر، على زِنَةٍ خاصة، ومن نبأ ذلك أن أبا حيان اقترح أن يَنْظِم الشعراء على عَرُوض قول ابن حَزْمُون[2] وقافيةِ قوله:

إليك إمامَ الخَلْقِ جُبْتُ المَفاوِزَا وخَلَّفْتُ خَلْفِي صِبْيَةً وعَجائِزَا

وشَرَط أبو حَيَّان على مَنْ عارَضه أن يتغَزَّل، ثم يذكر الغرضَ ثانياً، ثم يمدحه ثالثاً.

فمَطْلَع قصيدة الشيخ الإمام:

أخا العَذْلِ لا تُفْرِطْ وكُنْ مُتَجاوِزَا فما كُلُّ عَذْلٍ في المحبَّة جائِزَا
ولا كُلُّ ذي وَجْدٍ يُطِيقُ احتمالَهُ[3] وإن كان ذا أيدٍ[4] شديداً مُبَارِزَا
ولا كُلُّ صَبٍّ[5] يَحْسَبُ الغَيَّ رُشْدَهُ وكيف ومِثْلِي مَنْ يَفكُّ المَرامِزَا

---

(١) في المصباح ١/٣٣٥: «الشطرنج: مُعَرَّبٌ، بالفتح، وقيل بالكسر، وهو المختار. قال ابن الجواليقي في كتاب ما تلحن فيه العامة: ومما يكسر والعامَّةُ تفتحه أو تضمه وهو الشطرنج، بكسر الشين، قالوا: وإنما كُسِر ليكون نظير الأوزان العربية، مثل: جِرْدَحْل، إذ ليس في الأبنية العربية فَعَلّل بالفتح، حتى يُحمل عليه».

(٢) هو علي بن حزمون، أبو الحسن.
انظر: المعجب ص ٣٧٠، والمغرب ٢/٢١٤.

(٣) الوَجْد: الحب. انظر: القاموس ١/٣٤٣، مادة (وجد)، والمعنى: ليس كل ذي حبٍّ يُطيق احتمال العَذْل، أي اللوم.

(٤) الأَيْد: القوة. انظر القاموس ١/٢٧٥، مادة (آد).

(٥) الصَّبابة: الشَّوْق. وقيل :رقته وحرارته. وصَبَبْتُ إليه صَبابةً فأنا صَبٌّ، أي: عاشق مشتاق. انظر لسان العرب ١/٥١٨.

أما نظمه في نصائح أبنائه فهي بديعة مفيدة، وما أحوجنا إليها، فمن ذلك قصيدته التي يخاطب بها ابنه الأكبر أبا بكرٍ محمداً[1] رحمه الله، وهي طويلة، منها:

أُبَنَيَّ لا تُهْمِلْ نَصِيحَتِيَ التي ... أوصيكَ واسْمَعْ مِنْ مقالي تَرْشُدِ

احفظ كتاب الله والسُّنَنَ التي ... صَحَّتْ وفقْه الشافعيِّ محمَّدِ

واعلمْ أصولَ الفقه عِلْماً مُحْكَماً ... يَهْدِيكَ للبحثِ الصحيحِ الأيِّدِ

وتَعَلَّمِ النحوَ الذي يُدْنِي الفَتَى ... من كلِّ فَهْمٍ في القُرانِ مُسَدَّدِ

واسلك سبيلَ الشافعي ومالكٍ ... وأبي حنيفة في العُلومِ وأحمدِ

وطريقةَ الشيخ الجُنَيْدِ وصَحْبِهِ ... والسالكينَ طريقَهُمْ بِهِمُ اقْتَدِ

واتْبَعْ طريقَ المصطفى في كلِّ ما ... تأتي به من كلِّ أمرٍ تَسْعَدِ[2]

---

(١) يقول الشيخ محمد الصادق حسين عن محمد بن علي رحمهم الله تعالى: هو أكبر أولاد علي بن عبد الكافي، لكنه مات قبل أن يكون له شأن، ولم نقف على شيءٍ من أخباره سوى ما جاء في الطبقات الكبرى عَرَضاً في ترجمة علي بن عبد الكافي من أن محمداً هذا كان أكبر أبناء أبيه، وإن أباه خاطبه بقصيدة فيها نصحٌ وإرشادٌ إلى ما يجب عليه من العناية بالدراسة العلمية والصوفية... الخ.. ا هـ. انظر: البيت السبكي ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) انظر هذا البيت، لتعلم أن هذا الإمام وأمثاله من أهل التصوف السني لا البدعي، والعبرة بالحقائق لا بالأسماء، والكلام في هذا كثير طويل، وكتب التراجم لأئمة الحديث والجرح والتعديل طافحة بالثناء على جملة من المشهورين بالتصوف، ونسبتهم للسنة، وحسبك بالذهبي، وابن كثير، وابن رجب، وابن العماد الحنبلي، وغيرهم، ومَنْ شك فليراجع. يقول الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في سير أعلام النبلاء ١٥/٤١٠: «فإنما التصوف والتألُّه والسُّلوك والسَّيْر والمحبة ما جاء عن أصحاب =

واقْصِدْ بِعلمِكَ وجْهَ ربِّكَ خالصـاً	تَظفَرْ بسُبْلِ الصالحينَ وتَهتَـدِ
واخْشَ المُهَيْمِنَ وأتِ ما يَدْعُو إليْـ	ـه وانْتَه عما نَهَى وتَزَهَّـدِ
وارفع إلى الرحمن كُلَّ مُلِمـةٍ	بضَرَاعَةٍ وتَمَسْكُنٍ وتَعَبُّـدِ
واقطَعْ عن الأسبابِ قلبَكَ واصْطَبِـرْ	واشكُرْ لِمَنْ أَوْلاكَ خيراً واحْمَـدِ
وعليكَ بالورعِ الصحيحِ ولا تَحُـمْ	حولَ الحِمَى واقْنتْ لربِّكَ واسْجُدِ
وخذِ العلومَ بهمةٍ وتَفَطُّـنٍ	وقَرِيحَةٍ سَمْحاءَ ذاتِ تَوَقُّـدِ

= محمد ﷺ من الرضا عن الله، ولزومِ تقوى الله، والجهادِ في سبيل الله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيلٍ وتدبر، والقيامِ بخشيةٍ وخشوعٍ، وصومِ وقت، وإفطار وقت... والعالمُ إذا عَرِيَ من التصوف والتألُّه فهو فارغ، كما أن الصوفيَّ إذا عَرِيَ مِنْ علم السُّنة زَلَّ عن سواء السبيل ». ويقول الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ في الذيل على طبقات الحنابلة ٣/٦٤، في ترجمة أبي إسماعيل الهرويّ: «وكان على حظٍّ تامٍّ من العربية ومعرفة الأحاديث والأنساب والتواريخ، إماماً كاملاً في التفسير والتذكير، حسن السيرة والطريقة في التصوف ومباشرة التصوف ومعاشرة الأصحاب الصوفية، مظهر السنّة داعياً إليها، محرِّضاً عليها ». وقال عنه أيضاً: «وله كلام في التصوف والسلوك دقيق، وقد اعتنى بشرح كتابه "منازل السائرين" جماعةٌ، وهو كثير الإشارة إلى مقام الفناء في توحيد الربوبية، واضمحلال ما سوى الله تعالى في الشهود لا في الوجود». الذيل على الطبقات ٣/٦٧. وانظر ترجمته لعبد القادر الجيلاني في الذيل ٣/٢٩٠. وأئمة الصوفية السنيين ليسوا بالمعصومين، فليس معصوماً إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأمثاله من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، وحصول بعض الخطأ من بعض أئمة الصوفية لا يُخرجهم عن السنة، كما لا يُخرج بعضُ الخطأ أحمدَ والشافعيَّ ومالكاً وأبا حنيفة وغيرهم عن السنة، والتشدد لا يصدر إلا عن جاهل أو متعصِّب لرأيه، وهؤلاء لا كلام معهم، إنما الكلام مع أهل الإنصاف والاعتدال، والله المسؤول أن يظهر الحق ويبطل الباطل، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

واستنبطِ المكنونَ من أسْرارِهـــــا　　　وابحث عن المعنى الأَسَدِّ الأَرْشَـدِ

وعليكَ أربابَ العُلُومِ ولا تَكُـــنْ　　　في ضَبْطِ ما يُلْقُونَهُ بمُفَنِّـــــدِ

وإذا أَتَتْكَ مقالةٌ قد خَـــالَفَتْ　　　نَصَّ الكتاب أو الحَديثِ المُسْنَـدِ

فاقْفُ الكتابَ ولا تَمِلْ عَنْهُ وقِـفْ　　　مُتَأَدِّباً مع كل حَبْرٍ أَوْحَــدِ

فلُحُومُ أهلِ العلمِ سُمَّتْ للجُنَـــا　　　ة عليهمُ فاحفظْ لسانَك وابْعُـدِ

هَذِي وصِيَّتيَ التي أُوصِيكَهَـــا　　　أكرِمْ بها مِنْ والدٍ مُتَـــوَدِّدِ

ومِنْ بديع شعره هذه القصيدة الغراء التي حُقَّ لطلاب العلم أن يحفظوها، لا سيما في هذا الزمان الذي استخف أهلُه بالعلم وأهله، وفُتِنُوا بالدنيا ومناصبها، وأصبح الرجل الحقير الفاسد لماله ومنصبه مبجلاً معظماً، والعالم التقي الفقير المتواضع مهاناً مبتذلاً، فوا أسفاً ثم ألف فوا أسفا، مصابٌ جَلَلٌ، ونقصٌ في الدين وزلل، وازدراء لخلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضلال وخطل، ولكن عزاء العاقلِ الحصيفِ مقولةُ الشافعي ﷺ حيث يقول:

ومنزلة الفقيه مِن السفيـــه　　　كمنزلة السفيه مِن الفقيـــه

فهذا زاهدٌ في قُرْب هــذا　　　وهذا فيه أزهدُ منه فيـــه[1]

وأين أهل هذا الزمان المفتونون بالمناصب من قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم «إنَّ مِنْ إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرامِ ذي السلطان المقسِط» أخرجه

---

(١) انظر: المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ص ٣٦٧.

أبو داود عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وإسناده حسن. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٥٢٩ وماذا بعد إهانة العلماء إلا سيادة الجهال، وماذا بعد سيادة الجهال إلا ضياع الملة والدين، وماذا بعد ضياع الملة والدين إلا هدم منار الأرض وهلاك الحرث والنسل، نسأل الله السلامة.

وقبل أن أُورد قصيدة السبكي ـ رحمه الله ـ أذكر سببها، فهو ظريف لطيف، وفيه كرامة تحقَّقَت للتقي رحمه الله. يقول التاج رحمه الله:

«نقلتُ من خط أخي شيخنا شيخ الإسلام أبي حامدٍ أحمد[1]، سلمه الله تعالى أن الوالد أنشد هذه الأبيات حين أُخِذت منه مشيخة جامع طُولُون، في سنة تسعَ عشرةَ، وأن والدتَه الجدَّةَ ناصرِيّة أَسِفَتْ عليه، وكان ذلك بعد ولادة الأخ أبي حامد، قال فكان الوالدُ يقول لها: يا أمُّ، وما أدراكِ أن هذا الميعادَ يعود، ويكون رزقَ هذا المولود، فعاد إليه في سنة سبعٍ وعشرين، واستمر بيده إلى سنة تسعٍ وثلاثين، لما وَلِيَ قضاء الشام، واستمر باسم الأخ أبي حامد، وهو الآن بيده، جَعَله الله كلمةً باقيةً في عَقِبِه»[2].

---

(١) هو أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو حامد بهاء الدين. ولد سنة ٧١٩ هـ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «كانت له اليد الطولى في علوم اللسان العربي والمعاني والبيان، وله «عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح» أبان فيه عن سعة دائرة في الفن.. وكان أديباً فاضلاً متعبِّداً كثير الصدقة والحج والمجاورة، سريع الدمعة». توفي مجاوراً بمكة سنة ٧٧٣هـ.

انظر: الدرر ١/٢١٠، البدر ١/٨٢.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٨١.

أما القصيدة فهي:

كمالُ الفتى بالعلم لا بالمَناصِبِ ... ورُتْبَةُ أهلِ العلمِ أسْنى المراتبِ
هُمُ وَرِثُوا عِلمَ النَّبِيِّينَ فاهْتَدَى ... بِهِمْ كلُّ سارٍ في الظلامِ وسَارِبِ
ولا فخرَ إلا إرثُ شِرْعَةِ أحْمَدٍ ... ولا فضلَ إلا باكتسابِ المناقِبِ
وبحثٌ وتدقيقٌ وإيضاحُ مُشْكِلٍ ... وتحرير بُرهانٍ وقطْعِ مُغالِبِ
وإحكامُ آياتِ الكتابِ وسُنَّةٍ ... أتَتْ عن رسولٍ من لؤيِّ بنِ غالِبِ
إذا المرءُ أمسَى للعلومِ مُحالِفاً ... أضاءَ له منها جميع الغَيَاهِبِ[1]
ويَنْزاحُ عَنْهُ كلُّ شَكٍّ وشُبْهَةٍ ... وتبدو له الأنوارُ من كلِّ جانِبِ
هي الرتبةُ العُلْيا تَسَامَى بأهلِها ... إلى مُسْتَقَرٍّ فوقَ مَتنِ الكواكِبِ
فَدُونَكَها إنْ كنتَ للرشدِ طالِباً ... تنلْ خيرَ مرجُوٍّ الدُّنَا والعَواقِبِ
ولا تَعْدِلَنْ بالعلمِ مالاً ورفعةً ... وسُمْرَ القَنَا أو مُرْهَفَاتِ القَواضِبِ[2]
وهَبْكَ انزَوَتْ دُنْيَاكَ عَنْكَ فلا تُبَلْ ... فَعَنْها لقد عُوِّضت صَفْوَ المَشارِبِ
فما قَدْرُ ذي الدُّنْيا وما قَدْرُ أهلِها ... وما اللهوُ بالأولاد أو بالكَواعِبِ
إذا قِسْتَ ما بين العلومِ وبينَها ... بعقلٍ صحيحٍ صادقِ الفِكْرِ صائِبِ

---

(١) أي: الظلمات، جمع غَيْهَب. انظر: اللسان ١/٦٥٣، مادة (غهب).

(٢) أي: لا تساوي بالعلم أيَّ شيءٍ غيره، فهو أشرف الأشياء، فهو خَلَفٌ لا خَلَفَ له، عِوَضٌ لا عِوَض له، سابِقٌ لا سابق له، فلا يشغلنك أيها العاقل شاغل عنه: من جمع مالٍ، أو تحصيلِ رفعةٍ بمنصبٍ، أو تَلَهٍّ بسُمْر القَنَا، أي: الرماح، أو السيوف المرهفة اللطيفة الدقيقة. انظر: لسان العرب ١٥/٢٠٣، مادة (قنا): ١/٦٧٩، مادة (قضب)، ٩/١٢٨، مادة (رهف).

فما لذةٌ تَبقَى ولا عيشَ يُقْتَنَـــــــى سِوَى العلمِ أعلى مِنْ جميعِ المكاسِبِ[١]

ومن بديع شعره قوله:

لَعَمْرُكَ إن لي نَفْساً تَسَامَـــــــى إلى ما لَمْ يَنَلْ دَارًا بـــــنُ دارًا[٢]

فمِنْ هذا أرى الدنيا هَبَـــــــاءً ولا أرضى سِوَى الفــردوسِ دارًا[٣]

والطريف في هذين البيتين أنه نظم الأول منهما في سنة ٧١٩ هـ، والثاني في سنة ٧٤٧ هـ، كما رآه الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بخطه، وأنه قال: «إن لكلٍّ منهما إشارة»[٤].

والذي ذكره الصفدي رحمه الله أنه نظم الأول سنة ٧٣٩هـ[٥]. فالله أعلم ومِنْ حِكَمه قولهُ:

إن الولاية ليس فيها راحـــــــةٌ إلا ثلاثٌ يبتغيها العاقـــــــلُ

حُكْمٌ بحقٍّ أو إزالةُ باطـــــــلٍ أو نَفْعُ محتاجٍ سواها باطِـــــلُ[٦]

ومِنْ فرائد حِكَمه:

إذا أتَتْكَ يَدٌ من غير ذِي مِقَـــةٍ[٧] وجَفْوةٌ مِنْ صديقٍ كنتَ تأمُلُـــهُ

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٨٠.

(٢) دار ابنُ دارا: مِنْ ملوك الفرس الأقدمين. انظر: تحقيق الطبقات الكبرى ١٠/١٧٩.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٧٩.

(٤) انظر: الدرر ٣/٦٩.

(٥) انظر: السابق ٣/٦٩.

(٦) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٧٩.

(٧) أي: محبة. وفي اللسان ١٠/٣٨٩، مادة (ومق): «ومِقَهُ يَمِقُه، نادر، مِقَةً ووَمْقاً: أحبه.. والتَّوَمُّق: التودُّد، والمِقَة: المحبة، والهاء عِوَض من الواو، وقد وَمِقه يَمِقه بالكسر فيهما، أي: أَحَبَّه، فهو وامق... وفَرَّق بين الوِمَاق والعِشـق، فقـال: =

خُذْها من الله تنبيهاً وموعظــــةً بأنَّ ما شاء لا ما شئتَ يَفْعَلُــــهُ[1]

= الوِمَاق محبةٌ لغير ريبة، والعشق محبةٌ لريبة». أي: الوِمَاق حبٌّ لا حرام فيه، والعِشق هو الحبُّ الحرام.

(١) انظر: الدرر ٧٠/٣، حاشية الطبقات الكبرى ٣٠٤/١٠.

المبحث الثامن

أخلاقه وعبادته

قال ابن حبيب رحمه الله في وصف أخلاقه: «كان قَدَّس الله روحَه جزيلَ الورع، قليل الرِّيِّ والشِّبع، يكتفي بالعُلْقة من الطعام[1]، ويقنع بالنُّغْبة[2] من المورد العذب وإن لم يكن كثير الزِّحام.

مستعيناً بالصبر والصلاة، متقرباً بحسن العمل إلى من خلق الموت والحياة. متنزهاً في رياض الأذكار، مثابراً على التسبيح بالعشي والإبكار، مراقباً مَن لا تُدركه الأبصار.... مواظباً على تلاوة كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، صابراً عند ازدحام الأخطار... وكانت يداه مبسوطتين، وبإسداء المعروف معروفتين، يُعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر، ويأتَمُّ بمَنْ في أذنيه عن سماع العَذْل في البذل ـ وَقْر... راجي نَوَاله ما لم يخطُر بباله، ولو

---

(١) أي: بالبُلْغة من الطعام. وفي اللسان ٢٦٣/١٠: «والعَلاقة: ما يُتَبَلَّغ به من عيش. والعُلْقةُ والعَلاقُ ما فيه بُلغةٌ من الطعام إلى وقت الغداء. وقال اللحياني: ما يأكل فلانٌ إلا عُلْقَةً، أي: ما يمسك نفسه من الطعام. وفي الحديث: وتجتزئ بالعُلْقة، أي: تكتفي بالبُلْغة من الطعام».

(٢) أي: الجَرْعة. وفي اللسان ٧٦٥/١، مادة (نغب): «قال ابن السكيت: نَغبْتُ من الإناء، بالكسر، نَغْباً، أي: جَرَعْتُ منه جَرْعاً. ونَغَبَ الإنسانُ في الشُّرْب، يَنْغُبُ نَغْباً: جَرَع، وكذلك الحمار. والنَّغْبة، والنُّغْبة بالضم: الجَرْعة، وجمعها نُغَبٌ».

استزاده لزاد، وأرضى العُفَاة[1] بالجود، فمن قائل هو عليٌّ الرِّضا[2]، ومِنْ قائل هو الجَواد... يقوم الليل إلا قليلاً، ويُفني عمر الدُّجَى تسبيحاً وترتيلاً... لا ينظر إلى الدنيا ونُضْرتها، ولا يكترث بزُهرها وزَهْرتها[3]، ولا يغترُّ بزخارفها...... ولا يتكبر بما باشره من جليل مناصبها، ولا يشرئبُّ[4] إلى ملاذِّها وملابسها، ولا يتجمل بزينة أهلها، على أنه رأسُ رؤسائِها وأربابِ طيالِسها»[5].

---

(١) العفاة: هم الأضياف وطُلاَّب المعروف. وفي اللسان ١٥/٧٤، مادة (عفا): «وعَفَوْتُ الرجلَ إذا طلبتَ فضلَه. والعافية والعُفَاةُ والعُفّى: الأضياف وطُلاَّب المعروف. وقيل هم الذين يَعْفُونك، أي: يأتونك يطلبون ما عندك... والعافيةُ: طلاَّبُ الرزق من الإنس والدَّواب والطَّيْر... قال أبو عبيد: الواحد من العافية عاف، وهو كل مَنْ جاءك يطلُب فضلاً أو رزقاً فهو عافٍ ومُعْتَفٍ، وقد عَفَاكَ يَعْفُوكَ، وجمعه عُفاة».

(٢) هو الإمام علي بن الحسين بن الإمام عليٍّ بن أبي طالب بن عبد المطلب، السيد الإمام زين العابدين، الهاشمي العلويُّ المدنيّ. ولد سنة ٣٨هـ. توفي سنة ٩٤هـ. انظر: سير ٤/٣٨٦، البداية والنهاية ٩/١٠٩.

(٣) الزُّهرة: الحُسْن والبياض. قال شِمْر: الأزهَرُ من الرجال: الأبيض العتيقُ البياض النَّيِّر الحسن، وهو أحسن البياض كأن له بريقاً ونُوراً يُزْهِرُ كما يُزهِرُ النجمُ والسراج. وزَهْرَةُ الدنيا وزَهَرَتُها: حُسْنُها وبَهْجَتها وغَضَارَتُها. انظر: لسان العرب ٤/٣٣٢، مادة (زهر).

(٤) أي: لا يتطلع. وفي اللسان ١/٤٩٣، مادة (شرب): «واشْرَأَبَّ الرجلُ للشيء وإلى الشيء اشْرِئْباباً: مَدَّ عنقَه إليه. وقيل: هو إذا ارتفع وعَلاَ، والاسم: الشُّرَأْبِيبة، بضم الشين، من اشْرَأَبَّ».

(٥) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٦٢ - ١٦٣.

ويقول تلميذه صلاح الدين الصفدي رحمه الله: «وأما الأخلاق فقَلَّ أنْ رأيتُها في غيره مجموعة، أو وُجِد في أكياس الناس دينارٌ على سِكَّتها المطبوعة: فَمٌ بَسَّام، ووجه بين الجمال والجلال قَسَّام، وخُلْقٌ كأنه نَفَس السَّحَر على الزَّهَر نَسَّام.

وكَفٌّ تخجَلُ الغُيُوث مِنْ ساجِمِها[1]، وتَشْهد البرامكة[2] أن نَفَس حاتِمٍ في نقش خاتِمِها.

وحِلْمٌ لا يستقيم معه الأحنف[3]، ولا يُرى المأمونُ[4] معه إلا

---

(١) الساجِم: السائل، مِنْ سَجَم العينُ والدمعُ الماءَ يسجم سجوماً وسجاماً إذا سال وانسجم. انظر: اللسان ٢٨١/١٢، مادة (سجم). والمعنى: أن الأمطار تخجل من سيل هذا الكف وصَبِّه بكل خيرٍ مدرار، وعطاءٍ جمٍّ مغزار، فالضمير في «ساجمها» يعود إلى الكف.

(٢) هم أسرة فارسية كان لها شأن في عهود أبي جعفر والمهدي والرشيد العباسيين، وهم أهل كرم وجود. انظر: سير أعلام النبلاء ٥٩/٩.

(٣) هو الضحاك بن قيس بن معاوية بن حُصَيْن، الأمير الكبير، والعالم النبيل، أبو بحر التميمي، أحد مَنْ يُضرب بحلمه وسؤدده المثل. كان من المخضرمين، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووفد على عمر ﷺ. توفي رحمه الله سنة ٦٧هـ في إمرة مصعب بن الزبير على العراق. انظر: طبقات ابن سعد ٩٣/٧، سير ٨٦/٤.

(٤) هو الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي العباسي. ولد سنة ١٧٠هـ، وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم وبالغ، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ، وكان من رجال بني العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً، ومحاسنه كثيرة في الجملة، وكان يُعَدُّ من كبار العلماء مع تشيع فيه. وكان يقول: لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليَّ بالجرائم، وأخاف أن لا أُوجر فيه. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ١٨٣/١٠، سير ٢٧٢/١٠، شذرات ٣٩/٢.

خائنـــاً عنـد مَـنْ رَوَى أو صَنَّف، ولا يُوجـد لـه فيــه نظـــيرٌ ولا فـــي غرائـــب أبـــي مِخْنَف[(١)]، ولا يُحْمَــل عليــه حِمْلٌ فإنـه جـاء فيـه بالكيـل المُكْنَف[(٢)].

لم أره انتقم لنفسه مع القدرة، ولا شَمَت بعدوٍّ هُزِم بعد النُّصْرة، بل يعفو ويَصْفَح عمن أجرم، ويتألم لِمَنْ أوقَد الدهر نارَ حربه وأَضْرَم، ورعايةُ وُد لصاحبه الذي قَدُم عهدُه، وتذكُّرٌ لمحاسنه التي كاد يمحوها بُعْدُه، وطهارة لسان لم يُسْمَع منه في غِيبةٍ بنتُ شَفَة، ولا تَسِفُّ[(٣)] طُيورُ الملائكة منه على سَفَه.

(١) هو لوط بن يحيى بن مِخْنَف بن سليمان الكوفي، صاحب تصانيف وتواريخ. قال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال الدارقطني: أخباري ضعيف. من مصنفاته: كتاب الردة، وكتاب فتوح الشام، وفتوح العراق، وكتاب الجمل، وصفين، والنهروان، وغيرها كثير. توفي سنة ١٥٧هـ. انظر سير ٣٠١/٧، معجم الأدباء ٤١/١٧.

(٢) أي: المتلىء؛ لأن المكنف معناه: المحاط به مِنْ جوانبه، مِنْ قولهم: اكتنفته أنا وصاحبي، أي: أحطنا به مِنْ جانبَيْه. انظر: لسان العرب ٣٠٨/٩، مادة (كنف)، والإحاطة في الكيل لا تكون إلا بامتلائه، والمعنى: أنه لا مزيد على حلمه، فقد استوفى خلق الحلم رحمه الله، كما أن الكيل الممتلئ لا يمكن الحمل عليه زيادةً على ما فيه. ولا شك أن المراد بهذا المبالغة في وصفه، لا حقيقة هذا القول؛ لأن الأولياء ﷺ لا يبلغون أقل من عشر المعشار من أخلاق الأنبياء وصفاتهم صلوات الله وسلامه عليهم، لكن القصد هو بيان الدرجة العالية التي وصل فيها هذا الإمام في خلق الحلم، جعلنا الله من أهل هذا الخلق، فهو والله الخلقُ الذي إذا حصل للمرء فقد تمت سعادته، وكملت أخلاقه ومروءته، وكفى على ذلك دلالةً بشارةُ المولى تعالى لخليله بابن حليم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: ١٠١].

(٣) أي: لا تدنوا. وفي اللسان ١٥٣/٩ ـ ١٥٤: «وأَسَفَّ الطائرُ والسحابةُ وغيرهما: دنا من الأرض... أَسَفَّ الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه... ».

وزهد في الدنيا وأقلامه تتصرف في الأموال، ويَفُضُّها على مَمَرِّ الأيام والجُمَع والأشهرِ والأحوال، واطِّراحٌ للمَلْبس والمأكل، وعزوفٌ عن كل لذة، وإعراضٌ عن أعراض هذه الدنيا التي خلق اللّهُ النفوسَ إليها مُغذَّة هذا ما رآه عَيَاني، وخَتَم عليه جَنَاني. وأما ما وُصِف لي من قيامِ الدُّجا، والوقوفِ في مقام الخوف والرَّجا ـ فأمرٌ أجزم بصدقه، وأشهد بحقِّه، فإن هذا الظاهر لا يكون له باطنٌ غيرُ هذا، ولا يُرى غيرُه حتى المَعَاد مَعاذا.

ثم اندفع القاضي صلاح الدين في ذِكر شيءٍ من أحواله وكراماته وأخباره، فإنه كان يُحبه، وله به خصوصية»[1].

وسأذكر بعض أخلاقه على شيءٍ من التفصيل، كما ذكرها ابنه التاج رحمهما الله تعالى:

١ـ إخلاصه:

قال التاج: «وقد كانت الأسئلة تأتيه من شرق الأرض وغربها، فما كان منها متعلِّقاً بعلوم الظاهر نَقِف عليه، ونبحث عنه، وما كان منها متعلِّقاً بعلم الباطن قَلَّ أن يُوقفنا عليه، أو يُعَرِّفَنا سائلَه، وكان يكتم أحوال مَنْ يعرفه مِن الأولياء»[2].

٢ـ تواضعه:

قال التاج رحمه الله: «وكتب بخطه على ترجمته التي أنشأتُها في كتاب «الطبقات الوسطى»، وقد كانت «الطبقات الوسطى» تُعجبه، ويضعها

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٥٩ ـ ١٦١، أعيان العصر ٣/٤١٩ ـ ٤٢٠.
(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٨٦.

غالباً بين يديه ينظر فيها، رأيتُه كتب بخطه على ترجمته، وهو عندي الآن، ما نَصُّه:

عبدَ الوهَّابِ نَظَرْتَ إلـــى ... وَرَمٍ بادٍ يَحْكِي سِمَنـــا[1]

وشَغَافٌ بي يدعوكَ إلـــى ... حُسْبانِكَ في حالي حَسَنـــا

يا رب اغفِرْ لابْنِي فيمـــا ... قد خَطَّ وقال هوىً وجَنـــا

والله إني في نفسي أحقرُ من أن أُنْسَب إلى غِلمان واحدٍ من المذكورين، ومَنْ أنا في الغابرين! أسأل اللّهَ خاتمةً حسنةً بمَنِّه وكرمه، وبمحمدٍ ﷺ. كتبه عليٌّ السبكي في يوم السبت، مُسْتَهلَّ جُمادَى الآخرة، سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بظاهر دمشق.

هذا صورة خطِّه على حاشية كتاب «الطبقات الوسطى» لي[2].

٣ـ عزة نفسه:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، فمنشأ العزة من الله تعالى، وهو يُعِزُّ رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أكرم الخلق عليه تعالى، ويعِز عباده المؤمنين على قدر إيمانهم؛ لأن لهم شرفاً وقدراً عنده بذلك الإيمان، كلٌّ بحسب إيمانه، اللهم اجعل حظنا من الإيمان وافراً كاملاً.

---

(١) يعني بالورم نفسَه رحمه الله، وسِمَن الورم مرضٌ لا عافية، فشبَّه حاله بذلك تواضعاً.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) سورة المنافقون: ٨.

فعزة المؤمن ليست من جنس الكبر واحتقار الناس، أو رؤية تميز النفس عن الغير، بل عزته شعوره بأنه عبدٌ لعزيز، قويٌّ قادر قاهر لا يُغلب، وهو يدافع عن أوليائه.

أبي الإسلام لا أبَّ لي سواه ... إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله كلاماً للتقي رحمه الله، يدل على كراهته لسؤال الناس، وعزوف نفسه عن ذلك، لما في السؤال من المذلة والهوان، وشعور المُسْدِي للمعروف غالباً بالتفضل والمِنَّة على السائل، وأن له يداً عليه لابد من مكافأتها، وهذه عبودية لا يرتضيها المؤمن الصادق، فوجهه وقلبه لا يذل إلا لخالقه، والأحرارُ من الرجال الذي يرون المعروفَ والفضلَ لمن سألهم - قليلٌ، وأقل من القليل.

٤- حياؤه:

قال التاج رحمه الله: «وكان كثير الحياء جداً، لا يُحب أن يُخْجِل أحداً، وإذا ذكر الطالبُ بين يديه اليسيرَ من الفائدة استعظمها، وأوهمه أنه لم يكن يَعْرِفُها، لقد قال له مرةً بعض الطَّلَبة بحضوري: حكى ابنُ الرِّفعة عن مُجلِّي[(١)] وجهين في الطلاق، في قول القائل بعدَ يمينه: إن شاء الله تعالى، هل هو رافعٌ لليمين، فكأنها لم تُوجَد، أو نقول: إنها انعقدت على شرط؟.

---

(١) هو مجَلِّي بن جُمَيْع بن نجا المخزومي، قاضي القضاة، أبو المعالي. كان من أئمة الشافعية، وكبار الفقهاء، وإليه تَرجِع الفتيا بديار مصر. من مصنفاته: الذخائر، إثبات الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، الكلام على مسألة الدَّوْر. توفي سنة ٥٥٠هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٢٧٧/٧، سير ٣٢٥/٢٠، شذرات ١٥٧/٤.

فقلتُ أنا: هذا في الرافعيّ[1]، أيُّ حاجةٍ إلى نقله عن ابن الرفعة عن مُجَلّي[2]!.

فقال لي الشيخ الإمام: اسكُت مِنْ أين لك؟ هاتِ النَّقْل وانزعج.

فقمتُ وأحضرتُ الجزءَ من الرافعيّ، وكان ذلك الطالب قد قام، فوالله حين أقبلتُ به قبل أن أتكلم قال: الذي ذكرتَه في أوائل كتاب الإيمان من الرافعيّ، وأنا أعرف هذا، ولكنْ فقيهٌ مسكينٌ طالبُ علمٍ، يريد أن يُظهر لي أنه استحضر مسألةً غريبة، تُريد أنت أن تُخْجِلَه، هذا ما هو مَليح.

وكان يتفق له مثل هذا كثيراً، يَنقل عنده طالبٌ شيئاً على سبيل الاستغراب، فلا يُبَكِّتُه، بل يستحسنه، وهو يستحضره مِنْ أماكن كثيرة، بحيث يَخْرج الطالبُ وهو يتعجب منه؛ لأنه يظنه أنه لم يكن مستحضراً له، وما يدري المسكين أنه كان أعرفَ الناس به، ولكنه أراد جَبْره»[3].

---

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القَزْويني الرافعي، نسبة إلى رافع ابن خَديج الأنصاري ﷺ. ولد سنة ٥٥٥هـ. كان رحمه الله متضلعاً من علوم الشريعة تفسيراً وحديثاً وأصولاً، وأما الفقه فهو فيه عمدة المحقّقين، وأستاذ المصنِّفين. قال النووي: «هو من الصالحين المتمكنين، كانت له كرامات كثيرة ظاهرة». من مصنفاته: «الفتح العزيز في شرح الوجيز» وكفى به شرفاً، شرح مسند الشافعي، المحرَّر. تُوفي سنة ٦٢٤هـ قاله ابن الصلاح، وجزم الذهبي أنه توفي سنة ٦٢٣هـ. انظر: سير ٢٢/٢٥٢، الطبقات الكبرى ٨/٢٨١، طبقات الإسنوي ١/٢٨١.

(٢) أي: ما الحاجة إلى نقل المسألة عن ابن الرفعة وهو متأخِّر، وهي موجودة عند الرافعي، وهو متقدِّم، وإنما يُنقل عن المتأخِّر ما لم يذكره المتقدم.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢١٩ ـ ٢٢٠.

٥- صرامته في الحق وصدعه به، وعدم محاباته فيه:

قال التاج: «كان لا يُحابي في الحقِّ أحداً، وأخباره في هذا الباب عجيبة. حكم مرةً في واقعةٍ جرت، وصمم فيها، وعانده أرغُون الكامليُّ نائبُ الشام[1]، وكاد الأمر يَطْلَخِمُّ[2]، شاماً ومصراً، فذكر القاضي صلاح الدين الصَّفَدي أنه عَبَر إليه، وقال: يا مولانا، قد أَعْذَرْتَ، ووفَّيْتَ ما عليك، وهؤلاء ما يُطيعون الحقَّ، فلِمَ تُلْقِي بنفسك إلى التَّهْلكة وتُعاديهم!.

قال: فتأمَّل فِيَّ مليّاً ثم قال:

وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبينَ العالمين خرابُ[3]

والله لا أُرضي غيرَ الله.

قال: فخرجتُ مِنْ عندِه، وعرفتُ أنه لا يرجع عن الحقِّ بزخارفَ مِن القول.

---

(١) هو أرغون الصغير الكاملي. كان أحد مماليك الصالح إسماعيل، وكان جميلاً جداً، وَلِي نيابة حلب، ثم وَلِي نيابة دمشق، ثم اعتقل بالإسكندرية، ثم أُفرج عنه، وأقام بالقدس بَطّالاً إلى أن كانت وفاته بها سنة ٧٥٨هـ.

انظر: البداية والنهاية ١٤/٢٧٠، شذرات ٦/١٨٤.

(٢) أي: يشتد. وفي اللسان ١٢/٣٦٩، مادة (طلخم): «اطْلَخَمَّ الليلُ والسحابُ: أظلم وتراكم مثل: اطْرَخَمَّ... وأمورٌ مُطْلَخِمَّاتٌ: شِدادٌ».

(٣) البيت لأبي فراس الحمداني. انظر: ديوانه ١/٢٤.

٦ ـ زهده في الدنيا وجوده:

قال التاج رحمه الله: «وأما الدنيا فلم تكن عنده بشيء، ولا يستكثرها في أحدٍ، يَهَبُ الجزيل، ولا يرى أنه فَعَل شيئاً، ويعجبني قول الشيخ جمالِ الدين ابن نُبَاتة شاعرِ العصر فيه، من قصيدة امتدحه بها:

مُغْنِي الأنامِ فما تَعَطَّل عِنـــدَهْ ... في الحكـمِ غيرُ مَحاضِرِ الإفْـــلاسِ

ومُعَجِّل الجَدْوَى جُزافاً[1] لا كَمَنْ ... هو ضارِبُ الأخماسِ في الأَسْداسِ»[2]

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وكان متقشِّفاً في أموره، متقلِّلاً في الملابس، حتى كانت ثيابه في غير الموكب تُقَوَّم بدون الثلاثين درهماً. وكان لا يستكثر على أحدٍ شيئاً، حتى إنه لما مات وجدوا عليه اثنين وثلاثين ألف درهم دَيناً، فالتزم ولداه تاج الدين وبهاء الدين بوفائها»[3].

ويقول التاج ـ رحمه الله ـ أيضاً: «وكان لا يَصْبِر إذا طلعت الشمس إلى أن يستويَ طعامُ البيت، بل يأكل من السوق، وما ذلك إلا لسهره بالليل، مع حِدَّة ذهنه، فيجوع مِنْ طلوع الشمس، ولا يُطيق الصبرَ، ثم إذا أكل اجتزأ بالعُلْقة من الطعام، واليسيرِ من الغذاء.

وأما مأكله ومَلْبَسُه ومَلاذُّه الدنيوية ـ فأمرٌ يسير جداً لا ينظر إلى شيء

---

(١) الجدوى: العطية. انظر: اللسان ١٤/١٣٤، مادة (جدا). جزافاً: بضم الجيم وكسرها، أي: بلا كيل ولا وزن، والمعنى: يعطي العطية الكثيرة بلا حساب ولا تقدير. انظر: لسان العرب ٩/٢٧، مادة (جزف)، وهي فارسية مُعَرَّبة.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٠٦.

(٣) انظر: الدرر ٣/٦٤.

من ذلك، بل يجتزئ بيسير المأكل، ونَزْر المَلْبَس»[1].

٧ـ عبادته وتقواه:

يقول التاج رحمه الله: «وأما باب العبادة والمراقبة: فوالله ما رأتْ عينايَ مثلَه، كان دائمَ التلاوة والذكر، وقيامِ الليل، جميعُ نومه بالنهار، وأكثرُ ليله التلاوة، وكانت تلاوتُه أكثرَ مِنْ صلاته، ويتهجد بالليل، ويقرأ جهراً في النوافل، ولا تراه في النهار جالساً إلا وهو يتلو، ولو كان راكباً، ولا يتلو إلا جَهْراً، وكان يتلو في الحمَّام وفي المَسْلَخ.

وأما باب الغيبة: فوالله لم أسمعه اغتاب أحداً قط، لا من الأعداء، ولا مِنْ غيرهم، ومِنْ عجيب أمره أنه كان إذا مات شخصٌ مِنْ أعدائه يَظْهَرُ عليه من التألُّم والتأسُّف شيءٌ كثير. ولما مات الشيخ فخر الدين المصري رثاه بأبياتِ شِعر، وتأسَّف عليه.

وكذلك لما مات القاضي شهابُ الدين بن فضل الله ـ الذي سُقنا كلامه فيه فيما مضى ـ ولا يخفى ما كان بينهما، ومن الغريب أنه قرأ طائفةً من القرآن ثم أهداها له، فقلتُ له: لِمَ هذا! أنت لم تظلمه قَطُّ، وهو كان يظلمك فما هذا!.

فقال: «لَعَلِّي كرهتُه بقلبي في وقتٍ لحظٍّ دنيوي». فانظر إلى هذه المراقبة.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٠٧.

٨- صبره:

قال التاج رحمه الله: «وكانت أموره في حال مرضه في غاية العجب، وقاسَ الشدائدَ، ولم يسمعه أحدٌ يقول: آه، ولا يطلُب العافيةَ، بل غايةُ ما يطلُب ولايتي، ورؤيةُ الأخ[١]، والوصول إلى مصرَ قبل الوفاة، وقُضِيت له الحاجات الثلاث.

ولم أره قَطُّ بَرَح[٢] بألمٍ يعترضه، ولا بأذىً يحصُل له، بل يصبر عند الحادثات، ويحتسب رضي الله عنه»[٣].

٩- كراماته:

إن أعظم كرامة هي التوفيق لفعل الطاعات، وترك المنكرات، والاستقامة على فعل الخيرات.

أما خَرْق العادات فهذا تارة يكون كرامة للعبد الصالح المستقيم، وتارة يكون استدراجاً للطالح اللعين، وتارة بسبب الجن والشياطين. فخرق العادة كرامة للعبد الصالح المستقيم، ولكن التوفيق للطاعة هو الكرامة العظمى، وهو الأصل لخرق العادات؛ لأن خرق العادة تأييد من المولى لعبده وتثبيت، وإظهار لشرفه وقدره بين العبيد، فيزداد صاحب الكرامة إيماناً ويقيناً بصحة الطريق، ويزداد في فعل الخيرات، والإكثار من القربات،

---

(١) وهو أبو حامد أحمد؛ لأنه كان غائباً عنه.

(٢) أي: أظهر. وفي اللسان ٢/٤٠٩ مادة (برح): «والبَرَاح: الظهور والبيان. وبَرِح الخفاءُ وبَرَحَ، الأخيرة عن ابن الأعرابي: ظَهَر».

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢١٨ - ٢١٩.

ويقتدي الآخرون به في ذلك.

وكل كرامة لولي فهي معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنها إنما حصلت ببركة متابعته والاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم.

وينبغي لمن ظهرت على يديه الكرامة أن يكتمها، وأن يحمد الله تعالى عليها، ويسأله المزيد من فضله، وأن لا يغتر ولا يُعجب بنفسه، فالعبرة بالخواتِم والعواقِب.

يقول التقي رحمه الله في كتابه «قضاء الأَرَب في أسئلة حلب» مبيِّناً وجوب كتمان الكرامة: «وأما أن الكرامات ينبغي كتمانُها - فذلك مما لا خلاف فيه بين أهل الطريق، بل لا يجوز إظهارُها إلا لحاجة، أو قصدٍ صحيح، لما في إظهارها مِنَ الخطر مِنْ وجوه:

منها: رؤية النفس، فيظن أن ذلك إنما ظهر عليه لصلاحه وعلوِّ منزلته عند الله، ورَفْعِه على أبناء جنسِه، واختصاصِه بحُسْن السابقة والخاتمة، وقد يكون الأمر بضد ذلك كلِّه، لما يحتمل أن يكون استدراجاً، وأنه بعيدٌ عن عَيْن الله تعالى، فالواجب عليه أن لا يغتر بذلك، وأن يحتقر نفسه، ويَوَدُّ لو كان نسياً منسياً.

المبحث التاسع

مُصَنَّفاته

قد ذكر التاج رحمه الله (١٢٩) مصنفاً تقريباً، ولم أَجْزم بالعدد بناءً على أن هناك شكاً في بعض الأسماء، هل هي مكررة مع أسماء أخرى مشابهة، ويكون التكرار مِنْ سهو النساخ، أو غير ذلك، والله أعلم[(١)].

قال السيوطي رحمه الله عن مؤلفات التقي رحمه الله:

«وصنَّف نحو مائة وخمسينَ كتاباً مطوَّلاً ومختصراً، والمختصر منها لابد وأن يشتمل على ما لا يُوجد في غيره، من تحقيقٍ وتحريرٍ لقاعدة، واستنباطٍ دقيق»[(٢)].

وقال أيضاً: «وله من المصنفات الجليلة الفائقة التي حَقُّها أن تُكتب بماء الذهب؛ لما فيها من النفائس البديعة، والتدقيقات النفيسة»[(٣)].

وقال ابن حجر رحمه الله: «وكان لا يقع له مسألةِ مستغربة أو مشكلةِ إلا ويعمل فيها تصنيفاً يجمع فيه شتاتها، طالَ أو قصر، وذلك يبين في

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٠٧ - ٣١٥، حسن المحاضرة ١/٣٢٢، ٣٢٣، مقدمة محقّق كتاب «قضاء الأرب في أسئلة حلب» ص٦٨ - ٨١.

(٢) انظر: بغية الوعاة ٢/١٧٧.

(٣) انظر: حسن المحاضرة ١/٣٢٢.

تصانيفه»[1].

وقال الحافظ الحسيني رحمه الله: «وهو ممن طبَّق الممالكَ ذِكْرُه، وسارت بتصانيفه وفتاويه الركبان في أقطار البلدان»[2].

وقال الذهبي رحمه الله: «وصنَّف التصانيف المتقنة»[3].

يقول التاج رحمه الله: «اعلم أن باب مباحثِه بحرٌ لا ساحل له، بحيث سمعتُ بعض الفضلاء يقول: أنا أعتقد أن كلَّ بحثٍ يقع اليوم على وجه الأرض فهو له، أو مُستَمدٌّ من كلامه وتقريراته التي طَبَّقت طَبَقَ الأرض»[4].

ويقول أيضاً: «ومما أعتقد به عظمة الشيخ الإمام ـ رحمه الله ـ أنَّ عامة تصانيفه اللِّطاف في مسائلَ نادرةِ الوقوع، مُوَلَّدةِ الاستخراج، لم يَسْبِقْ فيها للسابقين كلام، وإنْ تكلم في آية أو حديث أو مسألة سُبق إلى الكلام فيها اقْتصَر على ذِكرْ ما عنده مما استخرجته فِكْرُته السليمة، ووقعت عليه أعماله القويمة، غير جامعٍ كلمات السابقين، كحاطب ليلٍ يُحبُّ التَّشَبُّعَ بما لم يُعْطَ، حَظُّه من التصانيف جمعُ كلام مَن مَضَى، فإنْ ترقَّتْ رتبتُه، وتعالتْ همَّتُه ـ لَخَّص ذلك الكلام، وإنْ ضَمَّ إلى التلخيص أَدْنى بحثٍ أو استدراك ـ فذاك عند أهل الزمان الحَبْرُ المقدَّم، والفارس المبجَّل. وعندنا أنه

---

(١) انظر: الدرر ٣/٦٤.

(٢) انظر: ذيول العِبَر في خبر مَنْ غبرَ ٤/١٦٨.

(٣) انظر: المعجم المختص ص١٦٦.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٦٦.

مُنْحازٌ عن مراتب العلماء البُزَّل[1]، والأذكياء المَهَرة، إنما الحَبْر مَنْ يُملي عليه قلبهُ ودماغُه، ويُبرز[2] التحقيقات التي تشهد الفِطَرُ السليمة بأنها في أقصى غاياتِ النظر، مشحونةً باستحضار مقالاتِ العلماء، مشاراً فيها إلى ما يستند الكلام إليه من أدلة المنقول والمعقول، يرمز إلى ذلك رَمْزَ الفارغ منه، الذي هو عنده مُقَرَّرٌ واضح، لا تفيده إعادته إلا السآمة والملالة، ولا يُعيده إعادة الحاشِدِ الجَمَّاعة، الولاَّجِ الخرَّاج، المُحِبِّ أن يُحمد بما لم يَفْعل»[3].

---

(١) البُزَّل: الكُمَّل؛ لأنهم يقولون: رجل بازِلٌ، يعنون به كماله في عقله وتَجْربته. انظر: لسان العرب ١١/٥٢، مادة (بزل).

(٢) في الأصل: «وتبرز»، وهو غير مناسب؛ لأنه معطوف على قوله: «مَنْ يُملي... ».

(٣) انظر الطبقات الكبرى ١/٩٩ ـ ١٠٠.

المبحث العاشر

وفاته والرؤى التي رُئيت له

قال التاج رحمه الله: «ابتدأ به الضعف في ذي القَعدة، سنة خمس وخمسين وسبعمائة، واستمر عليلاً إلا أنه لم يُحَمَّ قط. وسمعته يقول: كنت أقرأ سيرة النبي ﷺ لابن هشام، في سنة ست وسبعمائة، فَعَرضتْ لي حُمَّى في بعض الأيام، وجاء وقتُ الميعاد، فأتى كاتب الأسماء وقال وأنا محمومٌ: «قد اجتمعت الناس». فكِدتُ أُبَطِّل، ثم قلتُ: لا والله لا بَطَّلْتُ مجلساً تُذكر فيه سيرة النبي ﷺ، فتحاملتُ وأنا محمومٌ، وقرأتُ الميعادَ، ووقع في نفسي أني لا أُحَمُّ أبداً، فما حصلت لي حُمَّى بعدها.

واستمر بدمشق عليلاً إلى أن وَلِيتُ أنا القضاء، ومكث بعد ذلك نحو شهر، وسافر إلى الديار المصرية، وكان يذكر أنه لا يموت إلا بها، فاستمر بها عليلاً يُوَيْمات يسيرةً، ثم تُوفيَ ليلة الاثنين المُسْفِرة عن ثالث جُمادى الآخرة، سنة ست وخمسين وسبعمائة بظاهر القاهرة، ودُفِن بباب النَّصر، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جِنانِه.

والأطباء متفقون على أنه مسموم، وحكى لي الأخ الشيخ الإمام بهاء الدين: أنه قبل وفاته بيومين أسَرَّ إلى بعض أصحابه: إني مسموم، وأعرف مَنْ سَمَّني ولا أذكره، وأنه أوصاه أن لا يُعَرِّف أولاده بشيء من ذلك؛

لئلا يُشَوِّش عليهم، فلم يَذكر ذلك إلا بعد وفاته.

وأجمع مَنْ شاهد جِنازتَه[1] على أنه لم يَرَ جِنازةً أكثرَ جمعاً منها.

قالوا[2]: إنه لما مات ليلاً بالجزيرة ما انفلق الفجر إلا وقد ملأ الخلقُ ما بين الجزيرة[3] إلى باب النَّصْر، ونادت المنادِية: مات آخِرُ المجتهدين، مات حجةُ الله في الأرض، مات عالم الزمان، وهكذا، ثم حَمَل العلماء نَعشَه، وازدحم الخلق بحيث كان أولهم على باب منزل وفاته، وآخرهم في باب النصر.

وقيل: لم يُحاكِ ما يُقال عن جِنازة الإمام أحمد بن حنبل سوى جنازة الشيخ الإمام، في كثرة اجتماع الناس، تغمَّده الله برحمته»[4].

وأما المنامات التي رؤيت له: فقد قال التاج رحمه الله:

---

(١) في المصباح المنير ١/١٢١، مادة (جنز): «الجنازة وهي بالفتح والكسر، والكسر أفصح، وقال الأصمعي وابن الأعرابي: بالكسر: الميت نفسه، وبالفتح: السرير. وروى أبو عمر الزاهد عن ثعلب عكس هذا، فقال: بالكسر السرير، وبالفتح الميت نفسه».

(٢) هذا يدل على أن التاج رحمه الله لم يحضر جنازة والده؛ لأنه كان بالشام.

(٣) هي جزيرة الفيل وهي بلد كبير، وبها مائة وخمسون بستاناً إلى سنة وفاة الناصر محمد ابن قلاوون وهو معاصر للتقي رحمه الله. وهي الآن الأرض الواقعة بين محطة القاهرة وشبرا، وهي من جملة البقاع التي كان النيل يمر فيها، ثم صارت جُزُراً نتيجة تحول النيل إلى الغرب في القرنين الثاني عشر، والثالث عشر بعد الميلاد. انظر: البيت السبكي ص٥٩.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣١٥ ـ ٣١٦، مع زيادة ما في الهامش؛ لأنه ورد في بعض نسخ الطبقات الكبرى.

«حَكَى لي الشيخ الإمام العالم الصالح فخر الدين الضرير قال: لم أكن اجتمعتُ بالشيخ الإمام، وليلةَ موتِه قلت: هذا شيخ المسلمين، فأقوم للصلاة عليه، وشُهودِ جنازته، خالصاً لله فإني لا أعرفه، ولا أعرف أحداً من أولاده، ولا مِنْ خَواصِّه. قال: ولم أكن أعرف أحداً منكم.

قال: ففعلتُ ذلك، ثم نِمتُ ليلتي تلك، فرأيتُه في المنام في مكانٍ مرتفعٍ وهو يقول: بلغني صَنِيعُك.

وتكاثرت المناماتُ عقب وفاته من الصالحين وغيرهم، بما هو الظَّنُّ به عند ربه، ولو حكيناها لطال الشرح.

المبحث الحادي عشر

مراثيـــــه

قال التاج رحمه الله: «أما المدائح فتربوا على مُجلَّدات، فلا معنى للتطويل بها، وأما المراثي فنذكر منها ما حَضَرنا»[(١)].

وقد ذكر جملةً من المراثي، وقد افتتحها بمرثية شاعر الوقت ابن نُباتة وهي غاية في الجودة، ومنها قوله:

أَضْحَى لسُبْكَ بجُزْءٍ مِن مَناقِبِـــــه ... على العِراق فَخَارٌ غيرُ مُنْتَقِـــــبِ

لَهْفِي لِعِلْمَيْنِ مَرْوِيٍّ ومُجْتَهَـــــدٍ ... لَهْفِي لفَضْلَين مُورُوثٍ ومُكْتَسَـــبِ

آهاً لِمُرْتَحِلٍ عنا وأَنْعُمُـــــــهُ ... مِلءُ الحقائبِ للطلاَّب والحِقَبِ[(٢)(٣)]

ومِن مراثيه أيضاً مَرْثِيَّةُ ابنه التاج رحمه الله، وقد أجاد فيها وأبدع،

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٣١٧.

(٢) الحقائب: جمع حقيبة: وهي ما يُجعل فيه المتاع والزاد. انظر: لسان العرب ١/٣٢٥، والمعجم الوسيط ١/١٨٧، مادة (حقب). والحِقَب: جمع حِقْبة: وهي السنة. انظر: لسان العرب ١/٣٢٦، المعجم الوسيط ١/١٨٧، مادة (حقب). والمعنى: وا أسفاً ووا ألماً على فراق هذا المرتَحِل، الذي رحل عنا وآثار إحسانه ونعمائه على الطلاب باقية ملأ حقائبهم، وملأ السنين، فنعماؤه باقية لا تبليها الأيام ولا السنون.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٢٠.

وحَرَّك المشاعرَ وأسال المَدْمع. يقول التاج:

«وقلتُ أنا من أبيات:

هي المنيَّةُ للأرواح تَخْتَــــــرِمُ ... وهيَ الحوادثُ أمضَى أمرَها القِـدَمُ[1]

وهْيَ السِّهام نُصِبْنا نحوَها غَرَضـــاً ... تُصْمَى بها وتُشَاكُ العُرْبُ والعَجَمُ[2]

وهو القضاء من الرحمن يَحْمَـــدُهُ ... حمداً كثيراً عليه الحاذقُ الفَهِـــمُ[3]

ما ثَمَّ إلا الرِّضا والصبرَ فادَّرِعِ الصَّـ ... ـبْرَ الجميلَ لِبَاساً كلُّه ألـــــمُ

حاز الثوابَ الذي يرضَى القضاءَ وفا ... ز الصابرون فهمُ مُذْ سَلَّمُوا سَلِمُـوا

---

(١) أي: الأمر القديم، وهو القضـاء الأزلي القـديم. وفي المعجـم الوسيط ٧١٩/٢: «قَدُمَ الشيء قِدَماً وقَدامةً: مضى على وجـوده زمـنٌ طويـل، فهـو قـديم». وانظـر: اللسـان ٤٦٥/١٢، مادة (قدم).

(٢) تُصْمَى: تُصَاب وتُقتل. انظر: اللسان ٤٦٩/١٤، وانظـر: لسـان العـرب ٤٥٣/١٠، مادة (شوك)، وانظر: المعجم الوسيط ٥٠٠/١. والمعنى والله أعلم: أن سـهام القضـاء والقدر قد نُصِبنا نحوها غَرَضاً، فلا يفوتُها أحـدٌ منـا، فمنـا مَـنْ كانـت إصـابته قاتلـة وقضى نَحبْه فوراً، ومنا مَنْ تَشُوكه وتُصيبه إصابةً غير قاتلة، إلى أن يأتي الموعد المحدَّد لذلك.

(٣) وهو المؤمن؛ لأنه هو الذي فهم وأيقن بأن الخير كله فيما قضى الرحمن، فَيُثمر له هذا اليقينُ حمدَ المولى تعالى في كل حال.



الفصل الثالث
التعريف بالشيخ
تاج الدين السبكي

المبحث الأول

اسمــــه ونسبــه

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي الخزرجي الأنصاري. وتتمة بقية نسبه قد سبق ذِكْرها في ترجمة والده، فأغنى ذلك عن إعادتها.

وقد سبق بيان صحة نسبتهم إلى الأنصار، وأن عدم تصريح والده بذلك نوع من الورع عما لم يقم عليه دليل قاطع. وقد سبق ذِكْر أنَّ التاج رحمه الله نَقَل مِنْ خط جده عبد الكافي نسبتَهم إلى الأنصار.

ولذلك لم يتحرج التاج رحمه الله أن ينسب والده إلى الأنصار في ترجمته فقال: «ما ساد أحدٌ ناوأه ولا كان ذا استبصار... ولا ساخ قدمُ فتى قام بنصرته وقال: أنصر بقيةَ الأنصار»[1].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٤٤.

المبحث الثاني

ولادته ونشأته

اختلف المؤرخون في مولد التاج السبكي رحمه الله تعالى، فذكر كثيرون منهم أن ولادته كانت في عام ٧٢٧هـ، وهو الذي ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله، وتبعه على ذلك الشوكاني[١]، وذكره أيضاً ابن قاضي شهبة[٢]، وتبعه عليه ابن العماد الحنبلي[٣][٤]، رحمهم الله جميعاً، وغيرهم[٥].

وقد ذكر الذهبي في «المعجم المختص» أن مولده عام ٧٢٨ هـ[٦]،

---

(١) انظر: الدرر ٢/٤٢٥، البدر ١/٤١٠.

(٢) هو أبو بكر بن أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي، ويُعرف بابن قاضي شهبة، تقي الدين، أبو الصدق. فقيه مؤرِّخ مفسِّر. وُلد سنة ٧٧٩هـ. من مصنفاته: «طبقات الشافعية»، و«شرح منهاج الطالبين» للنووي. توفي سنة ٨٥١هـ. انظر: شذرات ٧/٢٦٩، معجم المؤلفين ٣/٥٧.

(٣) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٤، شذرات ٦/٢٢١.

(٤) عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح. مؤرِّخ فقيه أديب. ولد سنة ١٠٣٢هـ. من تصانيفه: «شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب». توفي سنة ١٠٨٩هـ. انظر: معجم المؤلفين ٥/١٠٧، الأعلام ٣/٢٩٠.

(٥) انظر: الفتح المبين ٢/١٨٦، ورجَّحه محمد الصادق حسين في «البيت السبكي» ص١٤.

(٦) المعجم المختص ص١٥٢.

ووافقه على ذلك غير واحد[1]. وقد ذكر السيوطي أنه ولد عام ٧٢٩هـ، ووافقه على ذلك الزبيدي[2][3].

وأما نشأته رحمه الله فقد وُلد بالقاهرة، ثم انتقل منها مع والده حين تولى والده منصب قاضي قضاة الشام، فرحل معه إلى دمشق، وقَدِمها في جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة. وقد استفاد من البلدين، إلا أن استفادته من دمشق كانت أكثر؛ إذ بها كبار شيوخه، وأقطاب زمانه، إضافة إلى مناسبة سِنِّه في دمشق للتحصيل والتلقي، والبروز في العلوم والفنون، كلُّ ذلك في رعاية والده، وتحت كنفه وتوجيهاته، وهو شيخه الأول، ومعلِّمه المفضَّل المبجَّل.

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/٢.

(٢) انظر: حسن المحاضرة ١/٣٢٨، تاج العروس ١٣/٥٧٨.

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزَّبيدي، أبو الفيض، الملقَّب بمُرْتَضَى. علاَّمة باللغة والحديث والرجال والأنساب، ومن كبار المصنِّفين، أصله من واسط في العراق، ومولده بالهند في بلجرام، ومنشأه في زبيد باليمن. ولد عام ١١٤٥هـ، ومن تصانيفه: «تاج العروس في شرح القاموس»، و«إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين»، و«ألفية السنَد» في الحديث وشرحها، وغيرها. تُوفي سنة ١٢٠٥هـ. انظر: الأعلام ٧/٧٠.

المبحث الثالث

طلبه العلم وشيوخه

قد نشأ التاج ـ رحمه الله تعالى ـ في بيت علم وفضل ودين، بيت التَّقيِّ الإمام العَلَم، وهذا من فضل الله تعالى على التاج وإخوانه، أن ينشأوا في بيت العلم والفضل؛ فإنَّ مما يساعد على مزيد الفائدة أن يجتمع حُنُوُّ الأب مع حُنُوِّ المعلِّم وحرصِه على التعليم، فلا يبقى إلا حرصُ المتعلِّم واستعدادُه.

وقد كان التقي رحمه الله يغرس في أبنائه حبَّ العلم، ويحثهم على الجد والاجتهاد في تحصيله، ولا يألو جهده في نصحهم وإرشادهم، مع الثناء عليهم في بعض أعمالهم العلمية، تشجيعاً وترغيباً.

وقد سبق ذِكْر قصيدته التي وجَّهها لابنه الأكبر محمد رحمه الله، ناصحاً له، وحاثّاً على حيازة العلم والعمل، والدين والأخلاق، والاقتداء بسِيَر الأعلام النبلاء:

أَبُنَيَّ لا تُهْمِلْ نصيحتيَ التـي ... أُوصيكَ واسْمَعْ مِنْ مقالي تَرشُدِ[1]

ولما وقف على كتاب «المناقضات» لابنه الشيخ الإمام العلامة بهاء الدين أبي حامد أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ قال مادحاً له:

أبو حامدٍ في العلمِ أمثالُ أَنْجُـمِ ... وفي النَّقْدِ كالإبريزِ أُخْلِصَ بالسَّبكِ
فأوَّلُهُمْ مِنْ إسْفَرايِنَ نَشْـؤُه ... وثانيهُمُ الطُّوسِيُّ والثالثُ السُّبْكي

---

(١) انظرها في الطبقات الكبرى ١٠/١٧٧.

يقول التاج رحمه الله عن هذا المديح لأخيه: «وهذه منقبة للأخ، سلَّمه الله، فأيُّ مرتبة أعلى مِنْ تَشبيه والده ـ وهو مَنْ هو، عِلْماً وديناً وتحرزاً في المقال ـ له بالغزاليّ، وأبي حامدٍ الإسفرايينيّ»[1].

وقال التاج أيضاً: «وأنشدنا لنفسه، وكتب بهما على «الجزء» الذي خرَّجتُه في الكلام على حديث المتبايعين بالخيار[2]:

عبدُ الوهَّاب مُخَرِّجُـــــهُ	مِن فَضْلِ الله عليَّ نَشَـــــا
يا ربِّ قِهِ ما يحـــــذَرُهُ	واقدُرْ فيه الخيراتِ وَشَـــا»[3]

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ مزيدُ تمثيلٍ لهذا التشجيع الأبوي الصادق الذي له تأثير وأيُّ تأثير، وترغيبٌ وأيُّ ترغيب، فلا جرم أن كان أبناء التقي رحمهم الله أئمة أعلاماً، بمثل هذه التوجيهات المباركات، والنصائح والدعوات، والثناء الذي يزيد بسببه العطاء، وتَسْتحكم به عُرَى الحب والإخاء، والإجلال والوفاء.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢/٧٤٢ ـ ٧٤٤، في كتاب البيوع، باب كم يجوز الخيار، حديث رقم ٢٠٠١، وفي باب إذا لم يوقِّت في الخيار هل يجوز البيع، حديث رقم ٢٠٠٣، وفي باب البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، حديث رقم ٢٠٠٥، وفي باب إذا خيَّر أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع، رقم ٢٠٠٦، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه من حديث حكيم بن حزام، رقم ٢٠٠٢، ٢٠٠٤، ٢٠٠٨. وأخرجه مسلم ٣/١١٦٣، في البيوع، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين، رقم ١٥٣١، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي ٣/١١٦٤، في باب الصدق في البيع والبيان، رقم ١٥٣٢، من حديث حكيم بن حزام ﷺ.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩١.

ومن عجيب عناية هذا الوالد بأبنائه أنه كان لا يَدَع أحداً من أسرته ينام بعد منتصف الليل، فغاية النوم إلى المنتصف، وما بعده فهو للجد والعمل في طلب العلم، أو في العبادة والمناجاة وقضاء الليل تسبيحاً وتهليلاً وتلاوة للقرآن.

يقول التاج رحمه الله: «وكان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، ويقول لي: يا بنيَّ تَعَوَّدِ السهرَ ولو أنك تَلْعَب، والويل كلُّ الويل لِمَنْ يراه نائماً وقد انتصف الليل»[1].

أما شيوخ التاج ـ رحمه الله ـ الذين أخذ عنهم واستفاد منهم فهم كثير ومُقَدَّمهم ورئيسهم والده رحمه الله، فبه تخرج في أكثر العلوم، وكان ذلك بلا شك من سعادته وتيسير الله له أسباب النبوغ والعلم والتمكن، أن يكون والده إمامه، وشيخه ومعلّمه، ومربيه ومهذّبه، مع ما تميز به الابن من مواهب ربانية، وعطايا رحمانية، فها هو الابن عبد الوهاب وهو لا يزال فتىً غضاً تلتفت إليه الأنظار، وتنعقد عليه الآمال، ويتوسم فيه أشياخه النبوغ والوصول، ولا غرابة فهذا الشبل من ذاك الأسد، وهذا الشهاب من ذلك الكوكب، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[2]. ولم يكتف بتتلمذه على والده، بل تتلمذ على مشاهير عصره، ولازمهم، ووالده من وراء ذلك يشجعه ويدفعه، ويسأله عما استفاد في دروسه وجلوسه مع شيوخه. استمع معي إلى حكايته لحاله في الطلب في أثناء ترجمته لشيخه المِزِّيِّ عليه الرحمة والرضوان:

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٢٠٣.

(٢) سورة آل عمران: ٣٤.

«وكنت أنا كثيرَ الملازمة للذهبيّ، أمضي إليه في كل يومٍ مرتين، بكرةً والعصرَ، وأما المِزِّيُّ فما كنت أمضي إليه غيرَ مرتين في الأسبوع، وكان سببَ ذلك أن الذهبيَّ كان كثير الملاطفة لي، والمحبة فِيَّ، بحيث يَعْرف مَنْ عرف حالي معه أنه لم يكن يحبُّ أحداً كمحبته فيَّ، وكنتُ أنا شابًّاً، فيقع ذلك مني موقعاً عظيماً. وأما المزي فكان رجلاً عَبُوساً مَهِيباً.

وكان الوالد يحب لو كان أمري على العكس، أعني يحبُّ أن ألازم المِزِّيَّ أكثرَ من ملازمة الذهبي؛ لعظمة المزي عنده.

وكنت إذا جئتُ غالباً من عند شيخٍ ـ يقول: هاتِ ما استفدتَ، ما قرأتَ، ما سمعتَ. فأحكي له مجلسي معه، فكنتُ إذا جئتُ من عند الذهبي يقول: جئتَ من عند شيخِك. وإذا جئتُ من عند الشيخ نجم الدين القَحْفَازِيّ يقول: جئتَ مِنْ جامع تِنْكُز؛ لأن الشيخ نجم الدين كان يَشْغَلُنا فيه. وإذا جئتُ من عند الشيخ شمس الدين ابن النقيب يقول: جئتَ من الشاميَّة؛ لأني كنتُ أقرأ عليه فيها. وإذا جئتُ من عند الشيخ أبي العباس الأنْدَرَشِيّ[1] يقول: جئتَ من الجامع؛ لأني كنت أقرأ عليه فيه، وهكذا. وأما إذا جئتُ من عند المِزِّيِّ فيقول: جئتَ من عند الشَّيخ، ويُفْصِح بلفظ الشيخ، ويرفع بها صوتَه. وأنا جازمٌ بأنه إنما كان يفعل ذلك ليُثَبِّت في قلبي

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن سعد بن عبد الله العسكريّ الأنْدَرَشِيّ الصوفيّ. شيخ العربية بدمشق في زمانه، مشارك في الفضائل، وكان منجمعاً عن الناس اختصر تهذيب الكمال، وشرع في تفسير كبير. مولده بعد التسعين وستمائة، وتوفي سنة ٧٥٠هـ. انظر: الدرر ١/١٣٥، شذرات ٦/١٦٦.

عظمتَه، ويَحُثّني على ملازمته»[١].

يقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ ذاكراً بعض شيوخه الذين أَخَذ عنهم أو أجازوه وهو في طفولته بمصر: «وأجاز له ابن الشحنة[٢] ويونس الدَّبُّوسي[٣]، وأُسْمِع على يحيى بن المصري[٤]، وعبد المحسن الصابوني[٥]، وابن سيد الناس[٦]، وصالح بن مختار[٧]، وعبد القادر بن

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢) هو مُسْنِد الدنيا شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن الصالحي الحجَّار ابن الشحنة، أبو العباس. ولد سنة ٦٢٣هـ، وانفرد بالرواية عن الحسين الزبيدي، وبين سماعه للصحيح وموته مائة سنة، وحدَّث بالصحيح أكثر من سبعين مرة، ولما مات نزل الناس بموته درجة. توفي سنة ٧٣٠هـ. انظر: الدرر ١/١٤٢، شذرات ٦/٩٣.

(٣) هو يونس بن إبراهيم بن عبد القوي الكناني العسقلاني، فتح الدين، أبو النون الدبابيسي، ويقال أيضاً الدَّبُّوسي. عالم بالحديث، مُسْنِد مُعَمَّر. له «معجم». ولد سنة ٦٣٥هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٢٩هـ. انظر: الدرر ٤/٤٨٤، الأعلام ٨/٢٦٠.

(٤) لم أقف على ترجمته.

(٥) عبد المحسن بن أحمد بن محمد بن علي بن الصابوني، أمين الدين، أبو الفضل، حفيد الحافظ أبي حامد بن الصابوني. ولد في سنة ٦٥٧هـ، وتوفي في سنة ٧٣٦هـ. انظر: الدرر ٢/٤١١.

(٦) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو الفتح اليَعْمُري الشافعي. الحافظ العلامة الأديب المشهور، ولد بالقاهرة سنة ٦٧١هـ، وأصله من إشبيلية. من تصانيفه: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر»، و«بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب» قصيدة، و«النفح الشَّذي في شرح جامع الترمذي»، وغيرها. توفي بالقاهرة سنة ٧٣٤هـ. انظر: الدرر ٤/٢٠٨، الطبقات الكبرى ٩/٢٦٨، الأعلام ٧/٣٤.

(٧) صالح بن مختار بن صالح بن أبي الفوارس، تقي الدين أبو التقي وأبو الخير الأشنهي =

الملوك[1]، وغيرهم»[2].

وأما تلقيه بدمشق فيقول عنه: «ثم قدم مع والده دمشق سنة ٣٩، فسمع بها من زينب بنت الكمال[3]، وابن أبي اليسر[4]، وغيرهما. وقرأ بنفسه على المزي، ولازم الذهبي، وتخرج بتقي الدين بن رافع، وأمعن في طلب الحديث، وكَتَب الأجزاء والطباق مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية، حتى مَهَر وهو شاب، وخَرَّج له ابن سعد[5] مشيخة حَدَّث بها، وأجاد في الخط والنظم والنثر»[6].

والظاهر أن الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ يقصد بقوله: «وتخرج بتقي الدين بن رافع» أنه استفاد منه، لا أنه تَخَرَّج في صناعة الحديث به؛ لأن

= العجمي الأصل العزايزي المولد المصري. ولد سنة ٦٤٢هـ. كان صالحاً مباركاً. وتوفي سنة ٧٣٨هـ. انظر: الدرر ٢/٢٠٤، أعيان العصر ٢/٥٥٠.

(١) لم أجد ترجمته.

(٢) انظر: الدرر ٢/٤٢٥.

(٣) زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية، المعروفة ببنت الكمال. ولدت سنة ٦٤٦هـ. قال الذهبي: «تفردت بقدر وقر بعير من الأجزاء بالإجازة، وكانت ديِّنة خَيِّرة، روت الكثير، وتزاحم عليها الطَّلَبة، وقرأوا عليها الكتب الكبار». قال: «وكانت قانعة متعففّة كريمة النفس طيبة الخُلُق، وأصيبت عينُها برمدٍ في صِغَرها ولم تتزوج قطّ». ماتت سنة ٧٤٠هـ، وقد جاوزت التسعين، ونزل الناس بموتها درجة في شيءٍ كثير من الحديث حمل بعير. انظر: الدرر ٢/١١٧ ـ شذرات ٦/١٢٦.

(٤) لم أقف على ترجمته.

(٥) لم أقف على ترجمته.

(٦) انظر: الدرر ٢/٤٢٥، ٤٢٦.

التاج يصرِّح بنفسه أن الذي أدخله في هذا العلم وجَعَله من أهله العارفين هو شيخه الإمام الذهبي رحمه الله ورضي عنه، إذ يقول عنه في ترجمته: «وهو الذي خَرَّجنا في هذه الصناعة، وأدخلنا في عِدَاد الجماعة، جزاه الله عنا أفضل الجزاء، وجَعَل حَظَّه في غُرُفات الجِنان مُوَفَّر الإجزاء»[1].

ويقول أيضاً قبل ذلك في مطلع الترجمة: «اشتمل عصرنا على أربعةٍ من الحفَّاظ، بينهم عُمومٌ وخصوص: المِزِّيُّ، والبِرْزَاليُّ، والذهبيُّ، والشيخ الإمام الوالد، لا خامس لهؤلاء في عَصْرهم»[2] فتبيَّن بهذين النقلين أن الحافظ ابن رافع ـ رحمه الله ـ على جلالة قدره في الحديث لم يبلغ مبالغ هؤلاء الأربعة، ولم يكن هو الذي تخرج به التاج في صناعة الحديث، غاية ما في الأمر حصول الفائدة وهذا ليس بمدفوع.

وذكر ابن قاضي شهبة ـ رحمه الله تعالى ـ شيوخ التاج، ومما قال: «واشتغل على والده وعلى غيره، وقرأ على الحافظ المزي، ولازم الذهبي وتخرج به، وطلب بنفسه ودأب»[3].

وهذا هو المناسب من قوله: «ولازم الذهبي» أن يكون هو الذي تخرج به لا غيره. فالله أعلم هل في نسخةِ «الدرر» تحريف؟

ومن مشايخه البارزين: أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي أبو حيان الأندلسي، الذي قال عنه التاج رحمهما الله تعالى:

---

(١) انظر: الطبقات ٩/١٠١.

(٢) انظر: الطبقات ٩/١٠٠.

(٣) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٤.

«شيخنا وأستاذنا أبو حيان، شيخُ النحاة العَلَم الفَرْد، والبحرُ الذي لم يَعْرِف الجزرَ بل المدّ، سِيبَوَيْه الزمان، والمبرِّدُ إذا حَمَى الوطيس بتشاجر الأقران. وإمامُ النحو الذي لقاصده منه ما يشاء، ولسانُ العرب الذي لكل سمعٍ لديه الإصغاء. كعبةُ عِلْمٍ تُحَجُّ ولا تَحُجّ، ويُقصد مِن كل فَجّ. تَضْرِبُ إليه الإبلُ آباطها، وتَفِد عليه كلُّ طائفةٍ، سفراً لا يعرف إلا نمارِقُ البيد بساطَها»[1].

إلى أن قال: «سمع عليه الجمُّ الغفير، وأخذ عنه غالبُ مَشْيختنا وأقراننا، منهم الشيخ الإمام الوالد، وناهيك بها لأبي حَيَّان منقبةً، وكان يُعظمه كثيراً، وتصانيفه مشحونةٌ بالنقل عنه. ولما توجَّهنا مِنْ دمشقَ إلى القاهرةَ، في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، ثم أمرنا السلطان بالعود إلى الشام؛ لانقضاء ما كنا توجهنا لأجله ـ استمهله الوالدُ أياماً لأجلي، فمكث حتى أكملتُ على أبي حيان ما كنت أقرؤه عليه، وقال: يا بُنَيَّ هو غنيمةٌ، ولعلك لا تَجِدُه في سفرةٍ أخرى. وكان كذلك»[2].

ومن الطريف أن أبا حيان ـ رحمه الله ـ امتدح التاج وهو ابن ثلاث سنين فقال:

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٩/٢٧٦.

(٢) انظر: الطبقات ٩/٢٧٨. قلت: تأمل ـ رحمك الله ـ إلى مدى حرص الأب على عدم فوات هذه الفرصة العلمية الثمينة على ابنه، ثم تأمل نبوغ هذا الفتى الذي يستفيد من أبي حيان ـ رحمه الله ـ دقائق النحو وهو في سن الرابعة عشرة من عمره؛ لتعلم حقاً كيف الرجال تُبنى، بل كيف الأمة تُحيا، وراية الدين تُبْقى، وسنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تُعْلى.

ألا إنَّ تاجَ الدين تاجُ معــــارِفٍ وبَدْرُ هُدىً تُجْلى به ظُلَمُ الدَّهْــــرِ
سليلُ إمامٍ قَلَّ في الناسِ مِثْلُـــــهُ فضائلُه تَرْبُو على الزُّهْرِ والزَّهْــرِ[1]

ومن كبار مشايخه الذين تَلَقَّى عنهم في طفولتهم بمصر:

محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاة، بدر الدين أبو عبد الله الكِنانيُّ الحمويّ، حاكم الإقليمين مصر والشام، مولده في سنة ٦٣٩ بحماة، ومات بمصر سنة ٧٣٣هـ، يعني كان عمر التاج حين موته ست سنوات، ومع ذلك يقول عنه: «وسمعنا الكثير عليه»[2]، بل وينُصُّ التاج رحمه الله أنه سمع عليه وهو ابن ثلاث سنين، يقول رحمه الله: «أخبرنا شيخُنا قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة، قراءة عليه وأنا حاضِرٌ في الثالثة» ثم ساق بقية السند[3]. فلله دَرُّ هذا الإدراك والنبوغ.

ومن مشايخه في الفقه: الشيخ عمر بن محمد بن عبد الحاكم، أبو حفص البلفيائيّ، جبلٌ من جبال الفقه، وقال عنه التاج رحمه الله: «وقد خَرَّجتُ له أيام تَفَقُّهي عليه أجزاء من مَرْوِيَّاته، حَدَّث بها». وتوفي بصَفَد بمصر سنة ٧٤٩هـ[4].

ومن مشايخه أيضاً: شمس الدين أبو الثناء محمود بن أبي القاسم

---

(١) انظر: الطبقات ٩/٢٨٧.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٤٠.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٤٠.

(٤) انظر: الطبقات ١٠/٣٧٢ ـ ٣٧٣.

عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الأصبهانيّ، المولود بأصبهان سنة ٦٧٤هـ. قال عنه التاج: «وله التصانيف الكثيرة: شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح الطواله، وشرح الطوالع، وناظر العين، وغيرها، وشَرَع في تفسير كبير لم يُتمه، أوقفني على بعضه»[1] توفي سنة ٧٤٩هـ، بطاعون مصر.

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٣٨٤.

المبحث الرابع

تلامذته

قد ذكر الأخ الفاضل الدكتور سعيد الحميري في ترجمته للتاج رحمه الله مبحث تلاميذه، وذكر منهم ستة وهم:

الإمام ابن الجزري(١)، والشيرازي(٢)، والحموي(٣)،

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي ثم الشيرازي، الحافظ المُقرئ الشافعي، المعروف بابن الجزري نسبةً إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل. ولد سنة ٧٥١هـ بدمشق، تفقّه ولهج بطلب الحديث والقراءات وبَرَّز فيهما. من مصنفاته: «النشر في القراءات العشر»، و«إعانة المهرة في الزيادة على العشرة»، ونظم «طيبة النشر في القراءات العشر»، وغيرها. توفي سنة ٨٣٣هـ. انظر: شذرات ٧/٢٠٤، الدرر ٢/٢٥٧.

(٢) قال عنه ابن السبكي: «... من أصحابي الشيخ الإمام العَلاّمة نور الدين محمد بن أبي الطِّيب الشيرازيُّ الشافعيّ، وهو رجلٌ مقيمٌ في بلاد كِيلان، ورد علينا دمشق في سنة سبع وخمسين وسبعمائة، وأقام يلازم حَلْقتي نحو عامٍ ونصف عام، ولم أَرَ فيمن جاء من العَجَم في هذا الزمان أفضل منه، ولا أدين». الطبقات الكبرى ٣/٣٧٩.

(٣) هو أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرِّضى، شهاب الدين أبو الحسين الحموي الأصل، الشافعي. تفقه بدمشق على التاج السبكي وغيره، ومَهَر وتقدَّم ودَرَّس. قال ابن حجر: وكان فاضلاً عالماً كثير الاستحضار، عارفاً بالقراءات وله فيها نظم سَمَّاه «عقد البكر»، وله نظم في أشياء متعددة، وكانت دروسه حافلة، والثناء عليه وافراً. اهـ. قُتل في سنة ٧٩١هـ. انظر: الدرر ١/٢٢٧، شذرات ٦/٣١٤.

واللخمـــي[1]، والسلمي[2]، والكناني[3]. ولا شك أن التاج رحمه الله لـه تلامذة آخرون كثيرون؛ إذ قـد درَّس في معظـم مـدارس دمشـق، يقـــول رحمه الله: «فمـا في دمشـق مدرسـة مرموقـة بعـين التعظـيم إلا وقـد ولِيـت تدريسها بحمد الله إلا اليسير من المدارس»[4]. أضـف إلى أنـه ـ رحمـه الله ـ خطيب الجامع الأُموي بدمشق، فلا شك أن طلابه كثيرون، ورُوَّادَه وفيرون، ولكن لعل السبب في عدم ذكرهم مع ترجمته أن المؤرخين لم يعتنوا بهذا في غير رواة الحـديث؛ إذ معرفـة الشـيوخ والتلاميـذ في رواة الحـديث مهمَّـةٌ لمعرفـة الأسانيد، أما غيرهم من العلماء فلا حاجة ضرورية لذكر التلاميذ مع الترجمـة، فيكتفون ببيان المكانة العلمية الـتي تـدل غالبـاً علـى كثـرة التلاميـذ أو قلتـهم، ويذكرون شيوخه لبيان طلبه للعلم ومكانته أيضاً.

---

(١) هو محمد بن موسى بـن محمـد بـن سـند، الحـافظ شمـس الـدين أبـو العبـاس اللخمـي المصري الأصل، الدمشقي الشافعي، المعروف بابن سند. ولد في سنة ٧٢٩هـ. تـوفي سنة ٧٩٢هـ.

انظر: الدرر ٤/٢٧٠، شذرات ٦/٣٢٦.

(٢) هو الحافظ أبو المعالي نصر الدين محمد بن علي بـن عبـد الواحـد السـلمي. ولـد سـنة ٧٤٢هـ. توفي رحمه الله سنة ٧٨٩. انظر: تاريخ ابن حجـر ٤/٨٥، طبقـات الحفـاظ للسيوطي ص٥٤٠، الضوء اللامع ٦/٦٣.

(٣) هو عمران بن إدريس بن مُعَمَّر الزين أبو موسى الكناني الجلجولي المقدسيُّ الدمشـقيُّ الشافعيُّ المقرئ. ولد سنة ٧٣٤هـ بجلجولي، ولازم التـاج السـبكيَّ وغـيره في الفقـه، وأخذ القراءات عن ابن اللبان وابن السلار وتميَّز فيها وأقرأ. مات سنة ٨٠٣هـ. انظر: الضوء اللامع ٦/٦٣.

(٤) انظر: الأشباه والنظائر لابن السبكي ٢/٣٤٩.

يقول الحافظ الحسيني ـ رحمه الله ـ عن تزاحم الطلبة على دروس التاج السبكي ـ رحمه الله ـ مدة إقامته بمصر ثمانية أشهر، وذلك في عام ٧٦٤هـ: «وقد كان ـ أيده الله تعالى ـ في مدة إقامته بمصر على حالٍ شهيرة من التعظيم والتبجيل، يعتقده الخاص والعام، ويتبرك بمجالسته ذووا السيوف والأقلام، ويزدحم طلبةُ فنون العلم على أبوابه»[١]. وقد تتلمذ له بعض أقرانه كصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين الغزي[٢].

يقول في «الطبقات» عن الصلاح رحمه الله: «وكانت له همة عالية في التحصيل، فما صَنَّفَ كتاباً إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو، لا سيما «أعيان العصر»، فأنا أشرت عليه بعمله، ثم استعان بي في أكثره، ولما أخرجتُ مختصري في الأصلَيْن المسمَّى «جمع الجوامع» كتبه بخطّه، وصار يحضر الحَلْقة، وهو يقرأ عليَّ ويَلَذُّ له التقرير، وسمعه كلَّه عليَّ، وربما شارك في فهم بعضه رحمه الله تعالى»[٣].

---

(١) انظر: ذيول العبر في خبر مَنْ غَبرَ ٤/٢٠٠.

(٢) هو محمد بن خلف بن كامل، القاضي شمس الدِّين الغَزِّيّ، يقول عنه التاج رحمهما الله: «رفيقي في الطلب، مولده سنة ست عشرة وسبعمائة بغزَّة، وقدم دمشق فاشتغل بها، ثم رحل إلى قاضي حماة شرف الدين البارزيّ، فتفقه عليه، وأذن له بالفُتيا، ثم عاد إلى دمشق وجَدَّ واجتهد. صَحِبتُه ورَافقته في الاشتغال من سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، سنة مَقْدَمنا دمشق، إلى أن توفي وهو على الجدِّ البالغ في الاشتغال. أما الفقه فلم يكن في عصره أحفظُ منه لمذهب الشافعي، يكاد يأتي على الرافعيّ وغالب «المطلب» لابن الرفعة استحضاراً، وله مع ذلك مشاركة جيدة في الأصول والنحو والحديث». الطبقات الكبرى ٩/١٥٥، وانظر: الدرر ٣/٤٣٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٦.

ويقول عن رفيقه في الطَّلَبِ شمس الدين الغزيّ: «وجمع كتاباً نفيساً على الرافعي، يذكر فيه مناقب الرافعيِّ بأجمعها وما يمكن الجواب عنه منها بتنبيهات مهمات في الرافعيّ، ويستوعب على ذلك كلامَ ابن الرفعة والوالد رحمهما الله، ويذكر مِنْ قِبَله شيئاً كثيراً، وفوائد مهمة، ولم يبرح يعمل في هذا الكتاب إلى أن مات، فجاء في نحو خمس مجلَّدات، أنا سميته «ميدان الفرسان»، فإنه سألني أن أسميه له، وكان يقرأ عليَّ غالب ما يكتبه فيه، ويسألني عَمَّا يُشكل عليه، فلي في كتابه هذا كثيرٌ من العمل»[1].

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٥٥.

المبحث الخامس

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

قد تَفرَّس شيوخ التاج ـ رحمهم الله ـ فيه النبوغ، وأمَّلوا فيه التميز، فها هو الإمام الذهبي رحمه الله يُدرجه في «المعجم المختص» ويقول عنه: «عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقي الدين علي بن عبد الكافي، الولد القاضي تاج الدين أبو نصر السبكي الشافعي. ولد في سنة ثمانٍ وعشرين، وأجاز له الحجَّار وطائفة، وأسمعه أبوه من جماعة. كتب عني أجزاءً ونَسَخَها، وأرجو أن يتميزَّ في العلم، ثم دَرَّس وأفتى»[1].

وها هو شيخه الإمام المزي رحمه الله يُدرجه في الطبقة العليا من المحدثين، في قصةٍ يحكيها التاج رحمه الله تعالى فيقول:

«وشَغَر مرةً مكانٌ بدار الحديث الأشرفيَّة، فَنَزَّلني فيه، فعجبت من ذلك؛ فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده في المدارس، وها أنا لم آلِ في عمري فقاهةً في غير دار الحديث، ولا إعادةً إلا عند الشيخ الوالد، وإنما كان يُؤخِّرنا إلى وقت استحقاق التدريس، على هذا ربَّاناً، رحمه الله، فسألته فقال: ليقال إنَّك كنتَ فقيهاً عند المِزِّيّ.

ولما بلغ المِزِّيَّ ذلك ـ أَمَرَهم أن يكتبوا اسمي في الطبقة العليا. فبلغ ذلك

---

(١) انظر: المعجم المختص ص١٥٢.

الوالدَ، فانزعج، وقال: خرجنا من الجدِّ إلى اللعب، لا والله، عبدالوهَّاب شابٌّ ولا يستحق الآن هذه الطبقة، اكتبوا اسمه مع المبتدئين، فقال له شيخنا الذهبي: والله هو فوق هذه الدرجة، وهو محدِّث جيِّد. هذه عبارة الذهبي، فضحك الوالد، وقال: يكون مع المتوسِّطين»[١].

وهذا شيخه شمس الدين ابن النقيب ـ رحمه الله تعالى ـ يُجيزه بالإفتاء والتدريس وهو لم يبلغ الثامنة عشر من عمره.

يقول الحافظ شهاب الدين ابن حجي[٢]: أخبرني أن الشيخ شمسَ الدين ابن النقيب أجازه بالإفتاء والتدريس. ولما مات ابن النقيب كان عمر القاضي تاج الدين ثمان عشرة سنة[٣].

وقال الحافظ ابن حجي رحمه الله: «خرَّج له ابن سعد مشيخةً، ومات قبل تكميلها، وحَصَّل فنوناً من العلم من الفقه والأصول، وكان ماهراً فيه، والحديث والأدب، وبرع وشارك في العربية، وكان له يدٌ في النظم والنثر، جَيِّدَ البديهة، ذا بلاغةٍ وطلاقةِ لسان، وجراءة جَنَان، وذكاءٍ مُفْرط، وذهن وقَّاد، وكان له قدرة على المناظرة»[٤].

---

(١) انظر: الطبقات ٣٩٩/١٠.

(٢) أحمد بن حجي بن موسى السعدي الحسباني، الإمام العالم العلاّمة، الحافظ المحقّق، شيخ الشافعية شهاب الدين أبو العباس. ولد سنة ٧٥١هـ، سمع الحديث من خلائق، وتتلمذ للتاج السبكي. من تصانيفه: «جمع المفترق»، «الدارس من أخبار المدارس». توفي سنة ٨١٦هـ. انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٢/٤.

(٣) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٤/٣ ـ ١٠٥.

(٤) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٥/٣ ـ ١٠٦.

وهذا الإمام الأديب، الناظم الناثر، أديب العصر خليل بن أيبك الصفدي رحمه الله، الذي كتب أزيد من ستمائة مجلّدٍ تصنيفاً، وهو في طبقة شيوخ التاج ـ رحمهما الله ـ يقول عنه التاج:

«وكانت له همّةٌ عاليةٌ في التحصيل، فما صَنَّف كتاباً إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصولٍ ونحوٍ، لا سيما «أعيان العصر» فأنا أشرتُ عليه بعمله، ثم استعان بي في أكثره، ولما أخرجت مُخْتَصري في الأصلَيْن المسمَّى «جمع الجوامع» كتبه بخطِّه، وصار يحضر الحلقة، وهو يقرأ عليَّ ويَلَذُّ له التقرير، وسَمِعه كلَّه عليَّ، وربما شارك في فهم بعضه، رحمه الله تعالى»[1].

وهذا والده رحمه الله تعالى يصفه بمفتي الإسلام في قصةٍ يذكرها التاج رحمه الله تعالى فيقول: «وكتب إليَّ، وقد جَمَع لي بين نيابته في الحكم، وتوقيعِ الدَّسْت[2]، وكانت قد وَرَدت عليه فُتْيا في لعب الشِّطْرنج: أجِبْنا أيُّها الإمام، أحلالٌ هو أم حرام؟ ونحن قد عَرَفْنا مذهب الشافعيّ، ولكنا نريد أن نعرف رأيَك واجتهادَك. فألقاها إليَّ، وقال: اكتُبْ عليها مَبْسُوطاً مستدِلاً، ثم اعرِضْها. فكتبتُ كتابةً مطوَّلة جامعةً للدلائل، ونصَرْتُ مذهب الشافعي، فكتب إلى جانبها:

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٦.

(٢) توقيع الدَّسْت: هو توقيع مجلس الوزارة. قال الزبيدي في تاج العروس ٣/٥٠، مادة (دست): «واستعمله المتأخرون بمعنى: الديوان، ومجلس الوزارة، والرآسة». وانظر: المعجم الوسيط ١/٢٨٢.

أمُوَقِّعَ الدَّسْتِ الشريفِ ونائبَ الْـ ـحُكْمِ العزيزِ ومُفْتِيَ الإسـلامِ
خَفْ من إلهكَ أنْ يراكَ وقَدْ نَهـا كَ وما انتهيتَ ومِلْتَ للآثـامِ»[1]

وينبيك عن مكانته العلمية المبكرة تدريسه إلى جانب الرُّخامة التي بالجامع الأُموي في حياة والده، وأنشد والده في ذلك، ذاكراً العلماء الذين دَرَّسُوا بجانبها، وتعاقبوا على ذلك المكان بدءاً بابن عساكر[2] رحمه الله تعالى. يقول التاج:

«وأنشدوني عنه، وقد جلستُ للشُّغْل في العلم عَقِيبَ وفاة الشيخ الإمام فخر الدين المِصْريّ، إلى جانب الرُّخامة التي بالجامع الأُموي، التي يقال: إنَّ أوَّل مَنْ جلس إلى جانبها شيخُ الإسلام فخر الدين ابن عساكر، ثم تلميذه شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام، ثم تلميذه الشيخ تاج الدين ابن الفِرْكاح الفَزاريّ[3]، ثم تلميذه ولده الشيخ بُرهان الدين[4]، ثم

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/١٩٤.

(٢) هو علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم بن عساكر، إمام الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفاظ. ولد سنة ٤٩٩هـ. من مصنفاته: تاريخ الشام، تبيين كذب المفتري، وغيرهما كثير. توفي سنة ٥٧١هـ. انظر: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص١٨٦ ـ ١٨٩، سير ٢٠/٥٥٤، الطبقات الكبرى ٧/٢١٥.

(٣) عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء الفَزَاريّ، الشيخ تاج الدين أبو محمد، المعروف بالفِرْكاح، فقيه أهل الشام، كان إماماً مدقّقاً نَظّاراً. من تصانيفه: شرح ورقات إمام الحرمين، وتعليقة على الوجيز، وغيرهما. توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٨/١٦٣، طبقات ابن قاضي شهبة ٢/١٧٣.

(٤) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاريّ، الشيخ برهان الدين بن الفِرْكاح، فقيه الشام، وشيخ الإسلام. من مصنفاته: «التعليقة على التنبيه» في نحو عشر =

تلميذه الشيخ فخر الدين المِصْري[1]، ثم أنا[2]، وكتبتُها من خط الوالد رحمه الله تعالى:

الجامعُ الأُمَويُّ فيه رُخامَـــــةٌ ... يَأْوِي لها مَن للفَضائل يَطْلُـــبُ

الشيخُ فخرُ الدِّين نَجْلُ عَساكِـرٍ ... والشيخُ عِزُّ الدين عنه يُنْسَـــبُ

والشيخُ تاجُ الدين نَجْلُ فَــزارَةٍ ... عنه تَلقَّاها يُفيد ويَـــدْأبُ

ثم ابنُه أكرِمْ به من سَيِّـــدٍ ... ورِعٍ له كلُّ المناصب تَخْطُـبُ

وتلاه فخرُ الدِّين واحدُ مِصْـرِهِ ... بذكائه كالنارِ حِينَ تَلَهَّـــبُ

وابني يَليهِمْ زادَهُ ربُّ السَّمــا ... عِلْماً وفَهْماً ليس فيه يَنصَـبُ[3]

وقد نزل التقي ـ رحمه الله ـ عن مشيخة دار الحديث الأشرفية لابنه عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وذلك في أواخر عمره حينما كبر التاج وكان ابن ثمان وعشرين سنة أو نحوها، ولم يكن نزوله له إلا لأهليته التي شهد بها مشايخُه.

يقول التاج رحمه الله: «ولما نزل لي عن مشيخة دار الحديث الأشرفيّة،

= مجلدات، وتعليقة على مختصر ابن الحاجب في الأصول. توفي سنة ٧٢٩هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/٣١٢، طبقات ابن قاضي شهبة ٢/٢٤٠.

(١) هو محمد بن علي بن إبراهيم، أبو الفضائل القاضي فخر الدين المِصْريّ. ولد بالقاهرة سنة ٦٩١هـ، كان من أذكياء العالم، حفظ مختصر ابن الحاجب في تسعة عشر يوماً، وكان يحفظ في «المنتقى» كل يوم خمسمائة سطر. توفي بدمشق سنة ٧٥١هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٨٨، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/٦٢.

(٢) وعليه فعمر التاج آنذاك أربع وعشرون سنة.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/١٩٢.

واتفق أنه بعد أشهرٍ حَضَر درساً عَمِله الولدُ تقيُّ الدين أبو حاتم محمد ابن الأخ شيخِنا شيخِ الإسلام بهاءِ الدين أبي حامد، سلمهما الله، وكان أشار هو بذلك؛ ليفرح بتدريس ولدِ ولدِه بحضوره قبلَ وفاته ـ قال للجماعة الحاضرين: ما أعلم أحداً يَصْلحُ لمشيخة دار الحديث غيرَ ولدي عبدالوهَّاب، وشخصٍ آخرَ غائبٍ عن دمشق.

وأكثر الناس لم يَفهم الغائب، وأنا أعرف أنه الشيخ صلاحُ الدين العلائيُّ، شيخ بيت المقدس وحافظه»[1].

وكتب له الشيخ برهان الدين القيراطي[2] جواباً لرسالةٍ أرسلها إليه التاج ـ رحمهما الله ـ فمما قال فيها:

«إلى شيخنا شيخ الإسلام أوحدِ المجتهدين، تاج الدين أبي نصر، أسبغ الله ظِلالَه»[3] إلى أن قال: «فهو إمام العلوم على الأبد، والسابقُ للعَلياء سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَد، والسيِّد الحافظ الذي دارُه لا دارَ مَيّةَ بين العلياءِ والسَّنَد.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١٠/٢٠٩.

(٢) هو إبراهيم بن شرف الدين عبد الله بن محمد الطائيّ القيراطيّ، الشاعر المشهور. ولد في سنة ٧٢٦هـ، وتَفَقَّه واشتغل، وتَعَانى النظم ففاق فيه، وله ديوان جمعه لنفسه يشتمل على نثر ونظم في غاية الإجادة، وكان عابداً فاضلاً. قال ابن حجر = رحمه الله: «وكان له اختصاص بالسبكي، ثم بأولاده، له فيهم مدائح ومراثي، وبينهم مراسلات». توفي بمكة مجاوراً سنة ٧٨١هـ. انظر: الدرر ١/٣١، شذرات ٦/٢٧٩.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٩/٣٣٦.

والشيخ الذي اختُصَّ بعُلُوّ الإسناد والمَحَل، والرُّحَلَةُ الذي يُنشِد الطالبُ إذا حثَّ ركائبَه إليه ورَحَل:

إليكَ وإلاَّ لا تُساقُ الركائبُ ... وعنكَ وإلاَّ فالمحدِّث كاذبُ

على أنه عالمٌ مناظِر، وحافِظٌ مذاكِر، وأديبٌ مُحاضِر... فهو بين العلماء إمامُ مِلّتهم، ومُصَلَّى قِبلتهم، ومُجَلِّي حَلْبَتِهم، والمنشِدُ عند طلوع أهِلَّتهم:

أخذنا بآفاقِ السماءِ عليكُمُ ... لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطوالعُ»[1]

ومما قاله أيضاً بعد ذلك هذين البيتين:

«عِلْمُ الحديثِ إلى أبي نصرٍ غَدَا ... من دونِ أهلِ العَصْرِ حَقّاً يُسْنَدُ

أضحى أميرَ المؤمنين بقُبَّةٍ ... ويَدُ الخلافةِ لا تُطاوِلُها يَدُ»[2]

ويقول الحافظ الحسيني عن التاج ـ رحمهما الله ـ في أكثر مِنْ موطن: «سيدنا قاضي القضاة شيخ الإسلام تاج الدين السبكي»[3].

وقال السيوطي رحمه الله ـ في «حسن المحاضرة»: «كتب مرةً ورقةً إلى نائب الشام يقول فيها: وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحدٌ يردُّ عليَّ هذه الكلمة. وهو مقبول فيما قال عن نفسه»[4].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٩/٣٥٤.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٩/٣٥٧.

(٣) انظر: ذيول العبر ٤/١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٦.

(٤) انظر: حسن المحاضرة ١/٣٢٨.

ومن العجائب التي تدل على قوة الرجل وفَرَط ذكائه، وتبحره في الفنون، وغَوْصه في الكنوز والمكنون ـ هذه الحادثة التي سَطَّرها في كتابه «الأشباه والنظائر» حيث يقول:

«وقد أحببت أن أذكر هنا آيةً كانت ابتداء درسي بالمدرسة الأمينية في يوم الأحد ثالث شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وكان مِنْ شأن هذا الدرس أني لما وَلِيت هذه المدرسة في الشهر المذكور عزمتُ أن لا أعمل أجلاساً، ولا أجمع جمعاً؛ لأنه سبق لي تداريس كثيرة، فما في دمشق مدرسة مرموقة بعين التعظيم إلا وقد وليت تدريسها بحمد الله، إلا اليسير من المدارس.

فلما وليت هذه المدرسة رأيتُ أنَّ تَرْك ذلك أجمل، فحملني حاملٌ على أن أذكر درساً أرجو أن يكون لي فيه نية، وذلك أنَّ بعض من لا أهلية له سعى في هذه المدرسة، وكاد أنْ يُقَدَّم عليَّ؛ لقربه من الدولة، فأحببتُ أنْ أُرِيَهُ كيف يكون التدريس، وكيف ينبغي لِمَنْ يَطْلب مناصب العلماء أن يكون، فعمدتُ إلى آيةٍ من الكتاب العزيز واستنبطتُ منها ما وصَلَتْ إليه قوتي.

وها أنا أحكي الدرس فأقول: قلتُ بعد الخطبة ما نَصُّه:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء: ٥٤، ٥٥.

اعلم أنَّ المدرسين وإنْ تباينت مراتبهم في العلم، وتفاوتت منازلهم في الفهم ـ أصنافٌ ثلاثة لا رابع لهم:

الأول: مَنْ إذا دَرَّس آية اقتصر على ما فيها من المنقول، فحكى أقوال المفسِّرين بسبب النزول والمناسبة، ووجوه الإعراب، ومعاني الحروف، ونحو ذلك. وهذا لا حظَّ له عند المحققين، ولا نصيب له بين فرسان الكلام.

والثاني: مَنْ يأخذ في وجوه الاستنباط منها، ويَسْتَعمل فكره بمقدار ما آتاه الله من الفهم، ولا يشتغل بأقوال السابقين، وتصرفات الماضين، علماً منه أنَّ ذلك أمرٌ موجود في بطون الأوراق ولا معنى لإعادته.

والثالث: مَنْ يرى الجمع بين الأمرَيْن، والتحلي بالوصفَيْن، ولا يخفى أنه أرفع الأوصاف.....

وأنا إن شاء الله تعالى أستخرج من هذه الآية ـ دون ما قبلها وما بعدها ـ من فنون الفوائد في أنواع العلوم ما يزيد على مائة وعشرين فائدة في أصول الدين، وأصول الفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، والتصريف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، والجدل، والتصوف، والمغازي، والسِّيَرَ، والفراسة، والطب.

وشرطي في ذلك على نفسي: أن لا أذكر شيئاً أَعْلَمُ أني سُبقت إليه، ولا أتعدى الآية إلى غيرها، ولا أشتغل بتقرير ما أَسْتنبطه منها إلا بتقرير وجه الاستنباط منها، فإذا قلتُ مثلاً: «دَلَّت على كيت وكيت» لم أنتقل

إلى الكلام في كيت وكيت؛ لأن ذلك خروجٌ إلى فنٍّ آخر، وعدولٌ عن البحث، وعلى غيري أن لا يعترضني في فائدة حتى يتمَّ تقريرُها، ثم يعترض بما شاء»[1].

فلله درُّ هذا الإمام الفذِّ، والملهم الفرد. ولقد نَوَّه الحافظ ابن كثير رحمه الله بهذا الدرس الحافل، والمشهد الهائل، إذ يقول رحمه الله: «وفي صبيحة يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول كان ابتداء حضور قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضي القضاة تقي الدين بن الحسن بن عبد الكافي السبكي الشافعي - تدريسَ الأمينية عِوَضاً عن الشيخ علاء الدين المحتسب، بحكم وفاته رحمه الله كما ذكرنا، وحضر عنده خلق من العلماء والأمراء والفقهاء والعامة، وكان درساً حافلاً، أخذ في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2] الآية وما بعدها، فاستنبط أشياء حسنة، وذكر ضرباً من العلوم بعبارةٍ طَلْقة جارية معسولة، أخذ ذلك من غير تلعثم ولا تلجلج ولا تكلف، فأجاد وأفاد، وشكره الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم، حتى قال بعض الأكابر: إنه لم يسمع درساً مثله»[3].

واسمع كلام التاج وهو يصف مَنْ هو المحدث، عائباً على أقوامٍ من العلماء جَهِلوا ذلك: «ومنهم فرقةٌ ترقّت عن هذه الفرقة وقالت: لابد مِنْ

(١) انظر: الأشباه والنظائر ٢/٣٤٩ - ٣٥١. وقد ذكر الشارح تلك الفوائد في كتابه المذكور، وهي تبتدي من ٢/٣٥١ - ٣٨٢.

(٢) سورة النساء: ٥٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٤/٣٠٥، ٣٠٦.

ضمَّ علم الحديث إلى التفسير، فكان قصاراها النظر في «مشارق الأنوار» للصاغاني[1]، فإنْ ترفَّعت ارتقت إلى مصابيح البغوي، وظنت أنها بهذا القدر تصل إلى درجة المحدثين، وما ذاك إلا لجهلها بالحديث، فلو حفظ مَنْ ذكرناه هذين الكتابين عن ظهر قلب، وضمَّ إليهما من المتون مثليهما ـ لم يكن محدثاً، ولا يصير بذلك محدِّثاً حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط. فإذا رامت بلوغ الغاية في الحديث ـ على زعمها ـ اشتغلت بجامع الأصول لابن الأثير[2]، وإنْ ضمَّت إليه كتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح، أو مختصره المسمَّى بـ «التقريب والتيسير» للنووي، ونحو ذلك ـ فحينئذ يُنادَى مَن انتهى إلى هذا المقام بمحدِّث المحدثين، وبخاريِّ العصر، وما ناسب هذه الألفاظ الكاذبة، فإنَّ مَنْ ذكرناه لا يُعَدُّ محدِّثاً بهذا القدر، إنما المحدث مَنْ عرف الأسانيد، والعِلَل، وأسماءَ الرجال، والعالي والنازل، وحَفِظ مع ذلك جملةً مستكثرة، وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن

(١) هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حَيْدر، أبو الفضائل القرشيُّ العدويُّ العمريُّ، من ولد عمر بن الخطاب ﷺ، الصاغانيُّ الأصل، الهنديُّ اللَّوْهَوْريُّ المولد، البغداديُّ الوفاة، المكيُّ المَدْفن، الفقيه الحنفيُّ، المحدِّث، اللغويُّ، صاحب التصانيف. ولد سنة ٥٧٧هـ. من تصانيفه: «مشارق الأنوار» في الجمع بين الصحيحين، و«مجمع البحرين»، و«العباب»، وغيرها. توفي سنة ٦٥٠هـ. انظر: الجواهر المضية ٢/٨٢، الفوائد البهية ص٦٣، سير ٢٣/٢٨٢.

(٢) علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزريّ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين الإمام الحافظ العلاّمة المؤرخ، ولد بالموصل سنة ٥٥٥هـ. من تصانيفه «اللباب في تهذيب الأنساب»، و«أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة»، و«الكامل في التاريخ». توفي سنة ٦٣٠هـ. انظر: وفيات ٣/٣٤٨، تذكرة ٤/١٣٩٩، الطبقات الكبرى ٨/٢٩٩.

البيهقيّ، ومعجم الطبرانيّ، وضَمَّ إلى هذا القدر ألفَ جزءٍ من الأجزاء الحديثية. هذا أقلُّ درجاته. فإذا سمع ما ذكرناه، وكتب الطِّباق، ودار على الشيوخ، وتكلَّم في العِلَل والوَفيات والأسانيد ـ كان في أول درجات المحدثين، ثم يزيد الله مَنْ شاء ما شاء[1].

ومنهم فرقةٌ ترفَّعت، وقالت: نضم إلى الحديث الفقه، وكان غايتها البحث في «الحاوي الصغير» لعبد الغفَّار القزويني[2]، والكتاب المذكور أعجوبة في بابه، بالغٌ في الحسن أقصى الغايات، إلا أنَّ المرء لا يصير به فقيهاً ولو بلغ عنان السماء، وهذه الطائفة تضيع في تفكيك ألفاظه وفهم معانيه زماناً لو صرفته إلى حفظ نصوص الشافعي وكلام الأصحاب لحصلت على جانب عظيم من الفقه، ولكن التوفيق بيد الله تعالى»[3].

---

(١) ولذا لما ترجم السيوطي رحمه الله للحافظ الهيثمي رحمه الله قال: «ورافق العراقيَّ في السماع، فسمع جميع ما سمعه، وكان ملازماً له، مبالغاً في خدمته، وكان يحفظ كثيراً من متون الأحاديث، فكان إذا سُئل العراقيُّ عن حديث بادر إلى إيراده، فيظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه، وليس كذلك، وإنما الحفظ المعرفة». انظر: ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ٥/٣٧٢.

(٢) هو عبد الغفّار بن عبد الكريم بن عبد الغفار القَزْويني، الشيخ الإمام نجم الدين، كان أحد الأئمة الأعلام، له اليد الطولى في الفقه والحساب وحسن الاختصار، ومن الصالحين أهل الكرامات. من مصنفاته: «الحاوي الصغير»، و«اللباب»، و«شرح اللباب» المسمّى بـ«العُجاب». توفي سنة ٦٦٥هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٨/٢٧٧، طبقات ابن قاضي شهبة ٢/١٣٧.

(٣) انظر: معيد النعم ص ٨١ – ٨٣.

المبحث السادس

مناصبه العلمية

قال الحافظ شهاب الدين ابن حجي: «وانتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام»(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يَجْرِ على قاضٍ قبله، وحَصَل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحدٍ قبله، وانتهت إليه الرياسة بالشام»(٢).

والمناصب التي تولاها التاج - رحمه الله - وترقّى فيها هي:

تولّيه توقيعَ الدَّسْت في سنة ٧٥٤هـ(٣).

ونيابة والده في القضاء بعد وفاة أخيه القاضي الحسين؛ لأن الحسين كان نائباً عن والده في الحكم، فلما تُوفي ناب عنه التاج - رحمهم الله جميعاً - وذلك في عام ٧٥٥هـ.

ثم استقل بالقضاء بسؤال والده في شهر ربيع الأول سنة ٧٥٦هـ(٤)،

---

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

(٢) انظر: الدرر ٢/٤٢٨، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٥.

(٣) انظر: الدرر ٢/٤٢٦، الطبقات الكبرى ١٠/١٩٢ - ١٩٣.

(٤) أي: قبل موت التقي بشهر وأيام، لأن التاج يقول عن والده: «واستمر بدمشق عليلاً إلى أنْ وَلَيْتُ أنا القضاء، ومكث بعد ذلك نحو شهر، وسافر إلى الديار المصرية، =

ثم عُزل مدة لطيفة، ثم أُعيد، ثم عُزِل بأخيه بهاء الدين، وتوجَّه إلى مصر على وظائف أخيه، ثم عاد إلى القضاء على عادته، ثم عُزل وحصل له محنة شديدة، ثم عاد إلى القضاء. واستمر به إلى أن توفي عام ٧٧١هـ[١].

ولقد كان التقي يُوصِي ابنه التاج ـ رحمهما الله ـ أن لا يطلب القضاء ولا يرغب فيه؛ لئلا يُوكل إلى نفسه فيهلك، فإنَّ مَنْ تولى القضاء ذُبح بغير سكين.

يقول التاج رحمه الله: «وكان يقول لي في أيام مرضه قبل أن يحصل لي القضاء: إيّاكَ ثم إيّاكَ أن تطلُبَ القضاء بقلبك، فضلاً عن قالَبِك، فأنا أطلبُه لك؛ لعلمي بالمصلحة في ولايتك لك ولقومك وللناس، وأما أنت فاحذَرْ، لئلا يكِلَكَ اللَّهُ إليه، على ما قال ﷺ: «يا عبدَ الرحمنِ[٢] لا تَسْأَلِ الإمارة»[٣] الحديث.

= وكان يذكر أنه لا يموت إلا بها، فاستمر بها عليلاً يُوَيْمات يسيرةً، ثم تُوفي ليلة الاثنين المسفرة عن ثالث جمادى الآخرة...». الطبقات ١٠/٣١٥ ـ ٣١٦. وعليه فيكون تولى التاج للقضاء في آخر شهر ربيع الأول؛ لأن الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ذكر يوم سفر التقي إلى مصر بأنه كان في السادس والعشرين من ربيع الآخر. انظر: البداية والنهاية ١٤/٢٦٤.

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٥.

(٢) هو عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمسِ العَبْشَمِيّ، أبو سَعيد، أسلم يوم الفتح، وهو الذي افتتح سجستان وكابل وغيرهما، وشهد غزوة مؤتة. مات بالبصرة سنة خمسين، ويقال إحدى وخمسين. انظر: تهذيب ٦/١٩٠.

(٣) أخرجه مسلم ٣/١٢٧٣، كتاب الإيمان، باب نَدْب مَنْ حلف يميناً، رقم ١٦٥٢، وتتمة الحديث: «يا عبدَ الرحمن بن سَمُرة لا تَسْأَل الإمارة، فإنك إنْ أُعْطِيتَها عن =

وحضرتُه وقد جاء إليه بعضُ الفقراء، فقال: أريد ثلاثاً: ولايةَ ابني هذا مَوْضعي، ورؤيةَ ولدي أحمدَ، وموتي بمصْرَ. أشهدُ بالله لَسَمِعتُ ذلك منه.

فقال له الفقير: سَلِ اللّهَ في ذلك إنْ كان مصلحةً.

فقال: قد تحقَّقتُ أنَّ كلَّ واحدٍ من الثلاثة مصلحةٌ.

فقال له: القضاء مصلحةٌ لهذا!

فقال: نعم، تحقَّقتُ أنه مصلحة له في الدنيا والدين جميعاً»[1].

ومن المناصب التي تولاها التاج ـ رحمه الله ـ منصب الخطابة بالجامع الأُموي بدمشق، وذلك بعد وفاة خطيبه جمال الدين أبي الثناء محمود بن جُملة[2] ـ رحمه الله ـ في عام ٧٦٤هـ.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله:

= مسألة وكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنْتَ عليها، وإذا حَلَفتَ على يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها فكفِّر عن يمينك وائتِ الذي هو خير» وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، ١٤٥٦/٣، رقم ١٦٥٢.

(١) انظر: الطبقات ٢١٠/١٠.

(٢) هو محمود بن محمد بن إبراهيم بن جُمْلة، جمال الدين أبو الثناء المَحَجِّيُّ الأصل، من قرية مَحَجَّة، الصالِحيُّ المولد، مِن صالحية دمشق. ولد سنة ٧٠٧هـ. له تعاليق في الفقه والحديث، مات سنة ٧٦٤هـ، ودُفن بالصالحية.

انظر: الطبقات الكبرى ٣٨٥/١٠، البداية والنهاية ٣١٧/١٤.

«وفي يوم السبت عاشره[1] جُمِع القضاة والأعيان بدار السعادة. وكتبوا خطوطهم بالرضى بخطابة قاضي القضاة تاج الدين السبكي بالجامع الأُموي، وكاتِب نائب السلطنة في ذلك.....

وفي يوم الجمعة سابع شهر ذي القَعْدة خَطَب بجامع دمشق قاضي القضاة تاج الدين السبكي...»[2].

ومن المناصب التي تولاها التدريس في أغلب مدارس دمشق، وكذا دَرَّس في مدارس مصر.

يقول ابن قاضي شهبة:

«وقد درس بمصر والشام بمدارس كبار: العزيزية[3]، والعادلية الكبرى[4]،

---

(١) أي: عاشر شهر شوال.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٣١٨/١٤.

(٣) المدرسة العزيزية جوار الكلاَّسة لضيق الجامع الأُمويّ. أول مَنْ أسسها الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي، ثم أتمها أخوه الملك العزيز عثمان. انظر: الدارس في تاريخ المدارس ٣٨٢/١.

(٤) أول من أنشأ هذه المدرسة الشافعية نور الدين محمود بن زنكي، شرع في بنائها سنة ٥٦٨هـ، وتوفي ولم تتم، فاستمرت كذلك. ثم بَنَى بعضها الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي، أخو صلاح الدين الأيوبي، وشرع في بنائها سنة ٦١٢هـ، وكان قد أزال ما بناه نور الدين، وبناها بناءً متقناً محكماً لا نظير له في بنيان المدارس، ثم توفي ولم تتم أيضاً، فتممها ولده الملك المعظم، وأوقف عليها الأوقاف، وكان قد تكامل بناؤها سنة ٦٢٠هـ. وقد جمع النعيمي كتابه «الدارس» في هذه المدرسة. انظر: الدارس ٣٥٩/١ - ٣٦١.

والغزاليــة[1]، والعذراوية[2]، والشـاميـتين[3]، والناصرية[4]، والأمينيـة[5]،

---

(١) المدرسة الغزالية داخل الجامع الأمويّ، في الزاوية الشمالية الغربيـة منـه. قـال النعيمـي رحمـه الله: «قـال ابـن شـداد في ذكـر مـا في الجـامع مـن المـدارس: المدرسـة الغزاليـة، وتعرف بالشيخ نصر المقدسيّ. وقال في موضع آخر: الزوايا بالجامع: الزاوية الغزاليـة، منسـوبة إلى الشـيخ نصـر المقدسـيّ، وتنسـب إلى الغـزاليّ رحمهمـا الله تعـالى؛ لكـون الغـزاليّ ـ رحمـه الله تعـالى ـ دخـل إلى دمشـق المحروسـة، وقصـد الخانقـاه (أي: دار الصوفية) السميساطية ليدخل إليها، فمنعـه الصـوفية مـن ذلـك؛ لعـدم معرفتـهم بـه، فعَدَل عنها، وأقام بهذه الزاويـة بالجـامع إلى أن عُلـم مكانـه وعرفـت منزلتـه، فحضـر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، ثم أدخلوه الخانقاه السميساطية فعُرفت الزاوية بـه، وإنمـا تُنسـب إلى الشـيخ نصـر المقدسي بعـده. انتـهى» الـدارس في تـاريخ المـدارس ٤١٣/١ ـ ٤١٤. وهـي مـن مـدارس الشـافعية، وأول مَـنْ درَّس بهـا الشـيخ نصـر المقدسيّ رحمه الله. انظر: الدارس ٤١٥/١.

(٢) هي مدرسة أنشأتها الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب بن شادي. وشاهنشاه أخو صـلاح الـدين الأيـوبي فـاتح بيـت المقـدس رحمـه الله تعـالى. وأنشـأت المدرسـة سـنة ٥٨٠هـ، بحارة الغرباء، داخـل بـاب النصـر، المسـمى ببـاب دار السـعادة. كـذا قـال النعيمي. وهي وقف علـى الشـافعية والحنفيـة. توفيـت السـت عـذراء سـنة ٥٩٣هــ، ودفنت بترتبها في مدرستها. انظر: الدارس في تاريخ المدارس ٣٧٣/١ ـ ٣٧٤.

(٣) سبق الكلام عنهما.

(٤) هي دار الحديث الناصرية، وبها رباط، بمحلة الفواخير بسفح قاسيون. أنشـأها الملـك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيـز محمـد ابـن الملـك الظـاهر عزيـز الـدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فاتح بيـت المقـدس. وهـذه الـدار هي الناصرية البرانية، وهـي مـن أغـرب الأمكنـة في البنيـان المحكـم. وهنـاك الناصـرية الجوانية وهي من أحسن المدارس، وقد بناها الملـك الناصـر أيضـاً. انظـر: الـدارس في تاريخ المدارس ١١٥/١ ـ ١١٧.

(٥) قال النعيمي: «المدرسـة الأمينيـة قِبْلـي بـاب الزيـادة، مـن أبـواب الجـامع الأمـويّ، المسمَّى قديماً بباب الساعات». الدارس ١٧٧/١. والباب القبلي: يعرف اليـوم =

ومشيخة دار الحديث الأشرفية(١)، وتدريس الشافعي بمصر، والشيخونية، والميعاد بالجامع الطولوني، وغير ذلك».

فرحم الله هذا الإمام الرباني الذي جمع العلم والعمل والدعوة إلى دين الله، فهو القاضي بين الناس والحاكم بينهم، وهو المعلِّم والشيخ في مدارسهم، وهو الخطيب والواعظ في مسجدهم.

ولم تكن المناصب غرضاً للتاج، ولا سعى إليها، بل هي التي سَعَت إليه، ولا طلبها بل هي التي طلبته، ولذلك فقد عانى ما عانى من محنٍ وبلايا من جراء حاسديه على تلك المكانة العالية بين الناس، وعلى محبة الخاص والعام له، فكادوه، وافتروا عليه تهماً؛ ليسقطوا نَجْمه، وليطفئوا قمره، ولكن هيهات، من الذي يُطاول النجم ليسقطه، أو القمر ليطفئه!

= بباب القوافين. كذا ذكر محقِّق «الدارس». قيل: إنها أول مدرسة بُنيت بدمشق للشافعية، بناها أتابك العساكر بدمشق أمين الدين كمشتكين بن عبدالله الطغتكيني. وهو أمير جليل، كثير الحرمة، توفي سنة ٥٤١هـ. انظر: الدارس ١٧٨/١.

(١) سبق الكلام عنها.

المبحث السابع

فصاحته وبلاغته

لقد جمع للتاج رحمه الله مع قوته في العلم والذكاء والحفظ، بسطةٌ في البيان واللفظ، فتراه في مطالع تراجمه التي يترجم بها لأهل مذهبه يُطْرِب الأسماع، ويستولي على القلوب والألباب، بعبارات سبكية ذهبية، لا زيف فيها بل خالصة نقية، بلا تكلف أو تقعر بل سَلِسَةٌ عَذْبة رويِّة، قد انقادت له البلاغة والفصاحة كما انقادت للبلغاء من أهل العربية.

اسمع هذه الأبيات التي يرثي بها شيخَه الذهبي عند وفاته ـ رحمه الله ـ والتاج آنذاك ابن إحدى وعشرين سنة:

مَن للحديثِ وللسَّارينَ في الطَّلَبِ	من بعدِ موتِ الإمامِ الحافظِ الذهبي
مَن للرِّواية للأخبار يَنشُرُها	بين البريَّةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
مَن للدراية والآثار يَحفَظُها	بالنَّقْدِ من وَضْعِ أهلِ الغيِّ والكذبِ
مَن للصناعة يَدْري حَلَّ مُعْضِلها	حتى يُريكَ جِلاءَ الشَّك والرِّيَبِ
مَن للجَماعَةِ أهلِ العلمِ تُلْبِسُهُمْ	أعلامُهُ الغُرُّ من أبرادِها القُشُبِ[1]

---

(١) أعلام جمع عَلَم: رسْم الثوب ورَقْمُه في أطرافه. انظر: لسان العرب ٤٢٠/١٢، تاج العروس ٤٩٨/١٧، مادة (علم). الغُرُّ: البيض. وفي اللسان ١٤/٥ ـ ١٥، مادة (غرر). والأبراد جمع بُرْد: وهو ثوبٌ فيه خطوط، وخَصَّ بعضهم به الوشْي. انظر: لسان العرب ٨٧/٣، مادة (برد). والقُشُب جمع قَشِيب: وهو الثوب الجديد =

من للتخاريج يُبْديها ويَدْخُلُ في أبوابها فاتحاً للمُقْفَلِ الأَشِبِ[١]

مَن في القِراآتِ بين الناس نافعُهُمْ وعاصِمٌ رُكْنُها في الجَحْفَلِ اللَّجِبِ[٢]

مَن للخِطابةِ لما لاحَ يَرْفُلُ في ثَوْبِ السَّواد كبدرٍ لاحَ في سُحُبِ[٣]

ومنها:

باللهِ يا نفسُ كُوني لي مساعدةً وحاذري جَزَعَ الأَوْصابِ والرُّعُبِ[٤]

فهذه الدَّارُ دار لا ذِمامَ لها ليستْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ[٥]

= النظيف. والقَشيب من الأضداد يُقال للجديد وللخَلِق. والمعنى: من الذي بعد الإمام الذهبي - رحمه الله - يُلبسنا ثياب العلم البيضاء الناصعة، المرقومة والموشَّاة بالألوان الجميلة!

(١) الأَشِب: المختلط الملتبس. في اللسان ١/٢١٤، مادة (أشب).

(٢) الجَحْفل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خَيْل. انظر: لسان العرب ١١/١٠٢، مادة (جحفل). واللَّجَبُ: الصوت والصياح والجَلَبة، تقول: لَجِبَ، بالكسر. واللَّجَبُ: ارتفاع الأصوات واختلاطها. واللَّجَبُ: صوت العَسْكر. وعَسْكرٌ لَجِبٌ: عَرَمْرَمٌ وذو لَجَبٍ وكثرة. انظر: لسان ١/٧٣٥. والمعنى: من الذي يضاهي هذا الإمام في علم القراءات، فهو نافعنا وهو عاصمنا بين جموع العلماء العظيمة الكثيرة عالية الصوت.

(٣) رفل: مَشَى مُسْبلاً ثوبه متبختراً فيه. انظر: اللسان ١١/٢٩٢، مادة (رفل).

(٤) الرُّعْب والرُّعُب: الفزع والخوف. انظر: لسان العرب ١/٤٢٠، مادة (رعب).

(٥) النَّبْع: شجر من أشجار الجبال تُتخذ منه القِسيّ. وقَوْس النَّبْع أفضل الأقواس، لجمعه الشدة واللين ومن أغصانه تُتخذ السهام. انظر: لسان العرب ٨/٣٤٥ - ٣٤٦. الغَرَب جمع غَرَبة: ضربٌ من الشجر تُعمل منه الأقداح البيض. انظر: تاج العروس ٢/٢٧٩، لسان العرب ١/٦٤٤، مادة (غرب). والمعنى: أن دار الدنيا لا عهد لها ولا ذمة، فهي كثيرة الغدر والخداع، وهي ليست بشيء قليل ولا كثير، ولا قوي ولا ضعيف، فلا معوَّل عليها. فشجر النبع مثال للقوة، والغَرَب مثال للضعف. =

وليس تَبْقَى على حالٍ وليس لهـــا   عَهْدٌ يُمَسَّكُ بالأَوْتاد والطُّنُـــبِ[1]
بينا يُرَى المرءُ في بَحْرِ المَعَـــزَّةِ ذا   خَوْضٍ تَرامَتْ عليه ذِلَّةُ النُّـــوَبِ[2]

إلى أن يقول رحمه الله:

وإنْ تَغِبْ ذاتُ شمسِ الدين لا عَجَبٌ   فأيُّ شَمْسٍ رأيناها ولم تَغِـــبِ
هو الإمامُ الذي رَوَّتْ روايتُـــهُ   وطَبَّقَ الأرضَ مِن طُلَّابه النُّجُـــبِ
مُهَذَّبُ القولِ لاعِيٌّ ولَجْلَجَـــةٌ   مُثَبَّتُ النَّقْلِ سامِي القَصْد والحَسَبِ
ثَبْتٌ صَدُوقٌ خبيرٌ حافِظٌ يَقِـــظٌ   في النقلِ أصْدَقُ أنباءً مِن الكُتُـــبِ
كالزُّهْرِ في حَسَبٍ والزَّهْرِ في نَسَـــبٍ   والنَّهْرِ في حَدَبٍ والدَّهْرِ في رُتَـــبِ

وانظر قصيدته في «المُعاياة» وهي ألغاز ذكرها شعراً، ومع كونها مسائل علمية، إلا أن حلاوة أسلوبها، وطلاوة ألفاظها لتطرب السمع، ومنها قوله:

مَن باتِّفاقِ جميعِ الخَلْقِ أفضَلُ مِـــنْ   شيخِ الصِّحابِ أبي بكر ومِنْ عُمَـــرِ

= والله أعلم. والشطر الثاني من البيت مقتبس من قصيدة أبي تمام في فتح عمورية. انظر: ديوانه ١/٤٢.

(١) في اللسان ١/٥٦٠ ـ ٥٦١، مادة (طنب): «الطُّنْبُ والطُّنُبُ معاً: حَبْلُ الخِباء والسُّرادقِ ونحوهما... والأَطْناب: الطوال مِنْ حبال الأَخْبِية، والأُصُر: القِصار، واحدها: إِصار».

(٢) النُّوَب جمع نائبة: وهي ما يَنُوب الإنسان، أي: ينزل به من المهمات والحوادث. وجمع النائبة نوائب وهو الأكثر، أما جمعها على نُوَب فهو نادر. انظر: لسان العرب ١/٧٧٤، مادة (نوب).

ومِن عليٍّ ومن عثمانَ وهْوَ فَتًى ... من أمة المُصطفى المبعُوثِ من مُضَرِ[1]

وقد سبق ذكر بعض قصيدته التي رَثَى بها والده ـ رحمهما الله تعالى ـ وهي ملحمة رائعة، يُضَمِّن فيها التاج أبياتاً للفرزدق ـ رحمه الله ـ فلا تكاد تفرِّق بين أبيات الفرزدق وسائر القصيدة.

يقول الحافظ ابن حجي رحمه الله: «وكان له يدٌ في النظم والنثر، جيدَ البديهة، ذا بلاغةٍ وطلاقة لسان»[2].

وكذا يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وأجاد في الخطِّ والنظم والنثر... وكان ذا بلاغة وطلاوة اللسان... وكان جَيِّدَ البديهة طَلْق اللسان»[3].

ويصف الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فصاحة التاج وطلاقة لسانه، وهو عصريُّه وبلديُّه: «وفي يوم الجمعة سابع شهر ذي القَعْدة[4] خطب بجامع دمشق قاضي القضاة تاج الدين السبكي خطبةً بليغةً فصيحةً أدَّاها أداء حسناً، وقد كان يُحَسُّ من طائفة من العوام أن يُشَوِّشُوا، فلم يتكلم أحدٌ منهم، بل ضَجُّوا عند الموعظة وغيرها، وأعجبهم الخطيب وخطبته، وأداؤه وتبليغه ومهابته، واستمر يخطب هو بنفسه»[5].

---

(١) انظر: الطبقات ٩/١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣) انظر: الدرر ٢/٤٢٦.

(٤) من سنة ٧٦٤هـ.

(٥) انظر: البداية والنهاية ١٤/٣١٨ ـ ٣١٩.

وأختم الحديث عن هذا المبحث بأبياتٍ قالها التاج ـ رحمه الله ـ في أول الشباب ما أظرفها، وهي أول السيل، فكيف بآخره!

يقول التاج في ترجمة الصفدي ـ رحمهما الله ـ: «كنت أصحبه منذ كنت دون سنِّ البلوغ، وكان يكاتبني وأكاتبه، وبه رغبتُ في الأدب، فربما وقع لي شعرٌ ركيكٌ من نظم الصِّبيان فكتبه هو عني إذ ذاك، وأنا ذاكِر بعضَ ما بيننا مما كان في صِغَري، ثم لمّا كان بعد ذلكَ كتب إليَّ مرة وقد سافر إلى مِصْر ولم يودِّعْني:

يا سيِّداً سافرتُ عنه ولم أجِدْ ... جَلَدي يُطَاوِعُني على توديعِهِ
إنْ غِبْتُ عنكَ فإنَّ قَلْبِيَ حاضِرٌ ... يَصِفُ اشتياقِي لِلْحِمَى ورُبُوعِهِ

في أبياتٍ أُخَر، فكتبتُ الجواب:

يا راحلاً بحشا المُقيم عَلَى الوَفا ... ما الطَّرْفُ بَعْدَكَ مُؤْذناً بهُجُوعِهِ
إن غبتَ عنه فما تغيَّر منه إلاَّ جِسْمُـ ... ـه سَقَماً ولَونُ دُمُوعِه[1]
والقلبُ بيتُ هواكَ راحَ كأنَّهُ ... بَيْتُ العَرُوضِيِّين مِن تَقْطِيعِهِ

في أبياتٍ أُخَر أُنْسِيتُها»[2].

---

(١) أي: أصبحت دموعه دماً.

(٢) انظر: الطبقات ١٠/٦ ـ ٧.

المبحث الثامن

حفظه

مَنْ قرأ «الطبقات» عَلِم أن التاج رحمه الله استوعب علوماً كثيرة، وتبحَّر في فنون عديدة، فضلاً عن كونه آيةً في المذهب، فهو يترجم لعلماء مذهبه، ثم يذكر عن كل واحدٍ منهم غرائبه وفرائده[1]، ويناقش بعض المسائل، ويرجِّح ما هو الراجح عنده.

وتراه في ثنايا ذلك يُورد من حفظه، ففي ترجمة الإمام أبي الفرج الدارمي يقول: «وهذه فوائد حضرتني من كتاب «الاستذكار» أذكرها على غير ترتيب، بحسب استحضارها»[2].

ثم ذكر عشر فوائد، وهي من دقائق المسائل الفقهية، واستحضارها عَسِر.

وفي ترجمته لوالده ـ رحمه الله ـ يقول: «أنشدنا الشيخ الإمام لنفسه جواباً لبعض الصوفية، من أبياتٍ في الذِّكْر»[3]، ثم ذكر التاج اثنين وعشرين بيتاً، وقال بعدها: «هذا ما أحفظ من هذا الجواب»[4].

---

(١) انظر: الطبقات ١/٢٠٦ ـ ٢٢٠، ففيها يذكر منهجه في الكتاب.

(٢) انظر: الطبقات ٤/١٨٥.

(٣) انظر: الطبقات ١٠/١٨٤.

(٤) انظر: الطبقات ١٠/١٨٦.

وهذا كتابه «منع الموانع» في أصول الفقه يكتب كثيراً منه من حفظه، فقد وَرَد عليه ثلاثة وثلاثون سؤالاً من الشيخ الأسدي[١]، أجابه عنها جميعاً من حفظه في كتابه «منع الموانع»[٢].

وفي ترجمة أبي الفتح السبكي ـ رحمه الله ـ يقول: «أخبرنا الحافظ أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي بقراءتي عليه من حفظي بقرية يَلْدا من دمشق» ثم ذكر بقية السند[٣].

---

(١) لعله هو: يوسف بن محمد بن عمر، القاضي جمال الدين ابن القاضي نجم الدين الأسديّ، المعروف بابن قاضي شهبة. ولد في رمضان سنة ٧٢٠هـ. كان فاضلاً في الفقه، غير أنه حَصَل له ثِقَلٌ في لسانه في مرضةٍ مرضها، فكان يعسر عليه الكلام. وكان خيِّراً ديِّناً منجمعاً على نفسه. توفي سنة ٧٨٩هـ انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٨٣/٣، الدرر ٤٧٢/٤.

(٢) انظر: مقدمة محقّق منع الموانع ص٩١، ٩٦، ١٠٢.

(٣) انظر: الطبقات ١٦٨/٩.

المبحث التاسع

أخلاقه وصفاته

لا شك أنَّ التاج ـ رحمه الله ـ كما أفاد من علم والده الغزير، فقد أفاد من أخلاقه وتقواه الشيء الكثير، فالمرء على دين خليله.

وإنَّ أخلاق المرء لعنوان على طويته وسريرته، فأكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً.

وابن السبكي ـ رحمه الله ـ اغترف من بحر والده، وانسبك في بوتقته، فكان ذهباً من ذهب، وكريماً من كريم، وإماماً من إمام.

وإليك بعض أخلاقه وصفاته التي وقفنا عليها، وهي تدل على ما سواها دلالةَ المثالِ على المثال، والنظيرِ على النظير:

١ ـ الإنصاف:

وهو وصف عزيز، وخُلُق مُنِيف، كيف لا ومالك ﷺ يقول: «ليس في زماننا شيءٌ أعزَّ من الإنصاف»[1]، فما ظنك بعزته في مثل هذه الأزمنة إن لم يكن بفقدانه!

وابن السبكي ـ رحمه الله ـ يتكلم عن خلق الإنصاف من خلال

(١) ذكرته من حفظي، ولا يحضرني الآن أين هو، وقد فتشت عنه فلم أعثر عليه.

القاعدة التي تكلم عنها في حق المؤرخين، الذين يتحملون تبعةً عظمى في نقل الحقائق والوقائع، وسير العلماء والوجهاء والملوك، كما هي من غير محاباة أو تحامل.

ومن إنصاف التاج ـ رحمه الله ـ ثناؤه على ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مع ما بينهما من تنافرٍ من الآراء، فها هو يذكر قصيدة ابن تيمية في الرد على أحد الزنادقة. ويقول: «جواب الشيخ تقي الدين الحنبلي» ثم يذكر القصيدة وهي أربعة وأربعون بيتاً كما هي في الطبقات[1]، ثم هو ينقل كلام شيخه الذهبي بأنه ما رأى أحفظ من أربعة، وذكر منهم ابن تيمية رحمه الله[2]، ويَعْزُو إليه في «معيد النعم، ومبيد النقم» في معرض كلامه عن سفك دم مَنْ ينتقص النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: «ومنها سفك دم من ينتقص جناب سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد المصطفى ﷺ أو يسبه، فإن ذلك مرتد كافر، ذهب كثير من العلماء إلى أن توبته لا تُقبل، وهو اختيار طوائف من المتأخرين. فإن كان الذي وقع منه هذا ممن يتكرر هذا الحال منه، أو عُرف بسوء العقيدة وصحبة المشهورين بذلك، أو وقع منه ما وقع على وجهٍ فظيع تشهد القرائن فيه بالخبث الباطن، فأرى أنه لا تقبل له توبة، ويُسفك دمه، وهو رأي الشيخ الإمام الوالد تغمده الله تعالى برحمته، والشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية»[3].

---

(١) انظر :الطبقات ١٠/٣٥٤ ـ ٣٥٧.

(٢) انظر: الطبقات ١٠/٢٢١.

(٣) انظر: معيد النعم ص٢٣ ـ ٢٤.

ومن إنصافه ترجيحه لغير المذهب الشافعي في مسألة نظر العبد إلى سيدته فيقول: «... أكثر أصحابنا أنَّ نظر العبد إلى سيدته حلال، وإن كان سليم الذَّكَر والأُنثيين. هذا ما رجَّحه الرافعي والنووي. وعلى هذا نَظَرُ الطواشي[1] أولى بالحل، ولكن الصحيح عند الشيخ الإمام وجماعة أنَّ نظر السليم الذكر والأنثيين إلى سيدته حرام، وهو الحق، فكيف يُباح نظر المماليك الحِسان الذين يفتنون بجمالهم - إلى سيداتهم، والنساء ناقصات عقلٍ ودين»[2].

٢- الرجوع إلى الحق:

الرجوع إلى الحق من سمات أهل الإخلاص، ولا ضَيرْ على المرء أن يُقر بخطئه، ويُفصح عن زَلَلِه؛ لأنَّ ذلك علامة نُبْله ومروءته.

ونفس اللئيم تأبى الاعتراف، وتُصِرُّ على الاقتراف، وتظن أن ذلك مِن حفظ قدرها، ومراعاة شأنها، وما ظَنَّ الوضيع أن ذلك سبيل بَخْسها، وطريق ذِلَّتها، فالعزُّ في الذل، والذلُّ في العزّ، فَعِزُّها في ذلها للحق وخضوعِها له، وذلها في عزها عن الحق واستكبارها عنه.

وما زال الفضلاء في كل عصر ومصر يتبجحون بالرجوع إلى الحق، والاعتراف بالخطأ، لأن هذا سبيل الشُّرَفا، أهل الصِّدق والوفا. وهذا الإمام ابن السبكي رحمه الله يُفصح عن مروءته ونُبْله بتسطير خطأ وقع فيه

---

(١) هو الممسوح الذي ذهبت أنثياه وذَكَرُه بالكلية. انظر: معيد النعم ص٣٩.

(٢) انظر: معيد النعم ومبيد النقم ص٣٩.

في أحد كتبه فيقول:

«وأما ما وقع في كتابي «طبقات الفقهاء» في ترجمة الإمام من أن الشافعيَّ في «الأم» في الجزء الرابع مِن أجزاء تسعة في باب ما يقع به الطلاق من الكلام وما لا يقع، وهو بعد الطلاق الذي يملك فيه الرَّجْعة، وقبل الحجة في البتة وما أشبهها ـ نَصَّ على ما ذكره الإمام عنه مِنْ أنَّ العبرة بعموم اللفظ: فذلك خطأ مني في الفهم، وأردت أن أُنَبِّه على ذلك هنا؛ لئلا يُغْتَرَّ به، فإنَّ حَذْفَه مِن ذلك الكتاب تعذَّر؛ لانتشار النُّسَخ به»[1] ثم ساق كلام الشافعي ـ ﷺ ـ وبَيَّن وجه الخطأ في فهمه الذي ذكره في «الطبقات».

٣ـ إعراضه عن المناصب:

ربما يظن الظان بأن التاج ـ رحمه الله ـ كان ممن يسعون إلى المناصب والوجاهات، ولذلك تولَّى ما تولَّى. ومَنْ تأمل وأنصف علم أن الرجل بلَّغه علمُه وتفوقُه، فهو رحمه الله ذو مواهب خارقة، وهمة عالية، ومشايخه أدركوا ذلك وهو شابٌّ غَضّ، وبَوَّؤوه منزلةً رفيعة، وهو في ذلك السن، وليس بغائب عنا شهادة المزي له بأنه في الطبقة العليا من تلاميذه وهو غضٌّ طريٌّ[2]، ونزول شيخه الذهبي له عن مشيخة دار الحديث الظاهرية،

(١) انظر: الإبهاج ١٢٢٨/٣.

(٢) لأنَّ المزي رحمه الله، توفي في ثاني عشر من شهر صفر سنة ٧٤٢هـ، والتاج رحمه الله، ولد ٧٢٧هـ، وفي قول٧٢٨، فسنه حين مات المزي رحمه الله، بين =

وإذن شيخه شمس الدين ابن النقيب بالفتيا له وهو دون الثامنة عشرة من عمره، فما عساك بشاب يبلغ هذا المبلغ وهو دون العشرين كيف حاله إذا بلغ أو قارب الثلاثين! وكتابه «الإبهاج» الذي نحقّقه هو أول كتاب يؤلفه في أصول الفقه، قد أتى فيه بالعجب العجاب وهو ابن أربع وعشرين سنة، وألفه في وقت السآمة كما قال هو: «وقد كنا نكتب فيه بأطراف الأنامل، ونجيء إليه وقد سئمنا الطلب» فمَنْ كان هذا حاله كيف لا تخطبه المناصب الشرعية وتَفِدُ إليه، وكيف لا يتولاها والكل يشهد بأهليته وعُلُوِّ كعبيه! ووالله مَنْ قرأ كتبه وَتَمَعَّن فيها عَلِم أنه سيد زمانه، وإمام أوانه، والفارس المقدَّم، والإمام المبجَّل.

٤ـ العفو والصفح:

ما أجمل العفو ولكنه عند المقدرة أجمل، وما أعظم الصفح ولكنه مع الإحسان أكمل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١).

العفو من شيم الرجال، والصفح من أخلاق الكرام، وأولى الناس بهما أهل الإيمان، بَلْه أهل العلم والقرآن.

وابن السبكي ـ رحمه الله ـ قد ضرب المثل الحيَّ في هذا الخلق النبيل.

= الرابعة عشرة والثالثة عشرة، وشهادة المزي رحمه الله، إن كانت قبل وفاته بسنة، أو قريباً منها، فعمر التاج آنذاك الثالثة عشرة على الأكثر، فسبحان الواهب.

(١) سورة فصِّلت: ٣٤.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وحصل له بسبب القضاء محنة شديدة مرةً بعد مرة، وهو مع ذلك في غاية الثبات، ولما عاد إلى منصبه صفح عن كل مَنْ أساء إليه»[1].

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يَجْرِ على قاضٍ قبله، وحَصَل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحدٍ قبله، وانتهت إليه الرياسة بالشام، وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوةٍ على المناظرة حتى أفحم خصومَه مع كثرتهم، ثم لما عاد عفا وصفح عمن قام عليه»[2]. وبنحوه قال الحافظ ابن حجي رحمه الله[3].

٥ـ الجود والإحسان:

يقول الحافظ ابن حجي رحمه الله: «وكان سيداً جواداً كريماً..»[4].

ويقول الحافظ ابن كثير: «وكان كريماً»[5]. وكذا قال ابن حجر رحمه الله[6] ويقول التاج ـ رحمه الله ـ في ترجمته للشيخ صلاح الدين الصفدي: «وكنتُ قد ساعدتُه آخرَ عمره، فَوَلِي كتابة الدَّسْت بدمشق ثم

---

(١) انظر: الدرر ٢/٤٢٦.

(٢) انظر: الدرر ٢/٤٢٨.

(٣) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

(٤) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

(٥) انظر: الدرر ٢/٤٢٨.

(٦) انظر: الدرر ٢/٤٢٨.

ساعدتُه فَوَلِي كتابةَ السِّرِّ بحلب، ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدَّسْت»[1].

٦ـ التواضع:

رحم الله القائل:

تواضعْ كما النجمُ استبان لناظرٍ | على صَفَحات الماءِ وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالدخان يرفع نفسَه | إلى طبقات الجو وهو وضيعُ[2]

يقول ابن السبكي في ترجمة الإمام الذهبي رحمه الله:

«وأنشدنا لنفسه، وأرسلها معي إلى الوالد رحمه الله، وهي فيما أراه آخِرَ شعرٍ قاله؛ لأنَّ ذلك كان في مرض موته، قبل موته بيومين أو ثلاثة:

تقي الدين يا قاضِي الممالِكْ | ومَنْ نحن العبيدُ وأنت مالِكْ

(ثم ذكر التاج بقية الأبيات، إلى أن قال:

وذكر بعد هذا أبياتاً على هذا النمَّطَ، تتعلَّق بمدحي، لم أذكرها»[3].

وفي «منع الموانع» يقول بعد أن رَدَّ كلام ابن الحاجب ـ رحمه الله ـ في تعريف الأداء: «وقد كان ابن الحاجب ـ رحمه الله ـ إماماً مقدَّماً في الأصول والفقه، والنحو والتصريف، أمسكتْه البلاغةُ زِمامَها، وألقت إليه الفصاحةُ مقاليدَها، وأعطاه الإيجازُ كلَّه، ومِنْ بحر علمه اغترفنا، وبكثير

---

(١) انظر: الطبقات ١٠/٥ ـ ٦.

(٢) انظر: الدرر ٤/٣٧٨.

(٣) انظر: الطبقات ٩/١٠٦.

علمه اعترفنا، فلا يَظُنَّن الظَّانُّ أنّا أردنا في هذا الكتاب مطاولتَه، فأين الثريَّا مِنْ يد المتطاول»[1].

ومَنْ أنصف، ونظر في «جمع الجوامع» للتاج، وقارنه بمختصر ابن الحاجب ـ رحمه الله ـ تبيَّن تفوق التاج في جمعه تفوقاً ظاهراً، فما ظنُّك بكتاب هو زبدة مائة كتاب مِنْ كتابٍ جُلُّ ما فيه مأخوذٌ من «الإحكام» للآمدي[2]؛ لأن «المختصر» هو اختصار كتاب «منتهى السُّؤْل والأمل في علمي الأصول والجدل»، وهو لابن الحاجب أيضاً اختصره من «الإحكام»، وبالمقارنة بين الأصل والمنتهى يتجلى بوضوح أن ابن الحاجب ـ رحمه الله ـ لم يزد على ما في «الإحكام» إلا قليلاً، بل هو عالةٌ عليه لا شك ولا ريب.

وليس هذا انتقاصاً لابن الحاجب رحمه الله، فقدره في العلم معلوم، ولكن القصد بيان تواضع التاج مع تقدمه وتفوقه، هذا ما نقوله أمانةً لا تعصباً.

٧ـ مهابته وحبُّ الناس له:

قال الحافظ ابن حجي رحمه الله: «وكان سيداً، جواداً، كريماً، مهيباً،

---

(١) انظر: منع الموانع ص١٢٦.

(٢) هو علي بن أبي محمد بن سالم التعلبي، أبو الحسن سيف الدين الآمديُّ، الأصوليُّ المتكلِّم، الحنبليّ الشافعيّ. ولد بعد سنة ٥٥٠ بيسير. من مصنفاته: «أبكار الأفكار» في أصول الدين، و«الإحكام» في أصول الفقه. توفي ـ رحمه الله ـ بدمشق سنة ٦٣١ هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٣٠٦/٨، سير ٣٦٤/٢٢، شذرات ١٤٤/٥.

تخضع له أرباب المناصب من القضاة وغيرهم»[1].

وكذا قال ابن كثير وابن حجر رحمهما الله[2].

ويقول ابن كثير - رحمه الله - في وفاة الخطيب جمال الدين ابن جملة: «وقد حضر جنازته بالصالحية على ما ذُكر جَمٌّ غفير، وخلقٌ كثير، ونال قاضيَ القضاة الشافعيَّ مِن بعض الجهلة إساءةُ أدب، فأخذ منهم جماعة وأُدِّبوا، وحضر هو بنفسه صلاة الظهر يومئذ، وكذا باشر الظهر والعصر في بقية الأيام، يأتي للجامع في مَحْفَلٍ من الفقهاء والأعيان وغيرهم، ذهاباً وإياباً...»[3].

ولا شك أنَّ تأديب الجهلة مِنْ حفظ الحرمة والمهابة، والاستخفاف بمقام العالم مصيبة تربو على المصائب؛ لأنها مصيبة الدين، وضياع الملة، وخُلُق الفَسَقة والمرتدين، ونحن في أيام غربة وبلاء، وضيق وضرَّاء، ضُيِّعت فيه المكارم، ووئدت الأخلاق، فأسعد الناس أجهلهم، وأكرمهم أسفلهم، وعِلْم العالم تحت الأقدام، ومال الجاهل على الرؤوس والأعيان، فلا حول ولا قوة إلا بالله الملك الديَّان.

والمهابة لا تعني الكبر والتعالي على الناس، بل هي وقارٌ وجلال بلا تَكَلُّف، وحِلْم ولين بلا تَضَعُّف، وقوةٌ وحزمٌ في الأمور مع التروي

---

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

(٢) انظر: الدرر ٢/٤٢٦، ٤٢٨.

(٣) البداية والنهاية ١٤/٣١٧.

والتلطف.

ولـذا كـان المهيـبُ محـلَّ إجـلال النـاس، والمتكبِّـر محـل انتقاصـهم وازدرائهـم، وقليـلٌ مِـنَ النـاس مَـنْ يكـون مَهِيبـاً لا متكـبرا، فالمهابـة مـن أوصاف كُمَّل الرجال، وأفذاذ العقلاء، والسَّـادة النجبـاء، لا أهـل التصنع والرياء.

وسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم هـو سيد المُهيبين، وهو مَنْ إذا رآه الرائي بديهة هابه، وإذا خالطه معرفةً أحبَّه.

والتاج ـ رحمه الله ـ كان مهيباً محبوباً، يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في أحداث سنة ثلاثٍ وستين وسبعمائة:

«ورد البريد بطلبه من آخر نهار الأحد بعد العصر، الحادي عشر من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فأرسل إليه حاجِب الحجَّاب قماري وهو نائب الغيبة: أن يُسافر مِن يومه. فاستنظرهم إلى الغد فأمهل. وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين بن السبكي بقضاء الشام عِوَضاً عن أخيه تاج الدين... وجاء الناس إليه ليودِّعوه ويستوحشون له، وركب مِن بستانه بعد العصر يوم الاثنين ثاني عشر شعبان، متوجِّهاً على البريد إلى الديار المصرية، وبين يديه القضاة والأعيان، حتى قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي، حتى ردَّهم قريباً من الجسورة، ومنهم مَنْ جاوزها، والله المسؤول في حُسن الخاتمة في الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٤/٣٠٩ ـ ٣١٠.

٨ـ أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

إن الصدع بالحق، ومقارعة الباطل من أهم واجبات العلماء إن لم يكن أهمها، والناس تبعٌ لعلمائهم، فإذا تبع العلماءُ الأمراءَ ضلَّت العامَّة، وزاغ الناس عن الجادَّة، وهلَكت الأمة.

والعالم إن لم يَقْو على قول كلمة الحق فليسكت عن الباطل، فسكوته عن الباطل خير، أما أنْ ينطق بالباطل ليُرضيَ ذوي النفوذ والأمر فتلك الداهية الدهياء، والمصيبة الصماء، وتلك الخيانة وإضاعة الأمانة.

ومع ذلك فربَّ كلمة حقٍّ قيلت في غير وقتها، أو غير محلها، جَلَبت شراً كثيراً، فالعالم الورع في دينه مَنْ يُراعي ذلك، ولا يُبالي بذم أحدٍ أو مدحه؛ لأن كلمة الحق إنما يُراد بها تحقيق مصلحة ودفع مفسدة، فإذا كان المتحقِّق هو العكس لم تكن من الحق، ولم يكن قائلها ناصحاً حكيماً. فكلمة الحق كما تحتاج إلى إيمان وشجاعة، تحتاج إلى علم وحكمة يُقَدَّر بهما المصالح والمفاسد الحقيقية، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [١]، فرحم الله مَنْ قال ونفع، لا مَن في الضَّرَر أوقع.

والحاصل أن أمانة الصدع بالحق حِمْلٌ ثقيل نِيط بالعلماء، والله سائلهم عنه، فضعيفهم ينكر بقلبه، وقويُّهم بلسانه، أما أن يسكت الجميع تخاذلاً وإيثاراً للدنيا على الآخرة، فضلاً عن المداهنة والمصانعة فنعوذ بالله

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٨.

من الهلاك، ونعوذ بالله من شر كلِّ أفَّاك: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾ [(١)].

٩ـ مشاركته في الجهاد:

يقول ابن كثير رحمه الله: «وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث صفر[(٢)] نُودي في البلد أن لا يتخلف أحد مِنْ أجناد الحلقة عن السفر إلى بيروت، فاجتمع الناس لذلك، فبادر الناس والجيش ملبسين إلى سطح المزة، وخرج ملك الأمراء أمير علي ـ كان نائب الشام ـ مِنْ داره داخل باب الجابية في جماعته ملبسين في هيئة حسنة، وتجملٍ هائل، وولده الأمير ناصر الدين محمد، وطلبه معه، وقد جاء نائبُ الغيبة والحَجَبَةُ إلى بين يديه إلى وطاقه، وشاوروه في الأمر، فقال: ليس لي ها هنا أمر، ولكن إذا حضر الحرب والقتال فلي هناك أمر. وخرج خلق من الناس متبرعين، وخطب قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالناس يوم الجمعة على العادة، وحَرَّض الناس على الجهاد، وقد ألبس جماعةً مِنْ غلمانه اللأمة والخُوذ، وهو على عزم المسير مع الناس إلى بيروت، ولله الحمد والمنة.

ولما كان من آخر النهار رجع الناس إلى منازلهم وقد ورد الخبر بأن المراكب التي رؤيت في البحر إنما هي مراكب تجار، لا مراكب قتال، فطابت قلوب الناس، ولكن ظهر منهم استعداد عظيم، ولله الحمد»[(٣)].

---

(١) سورة هود: ١١٣.

(٢) سنة ٧٦٧هـ.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٤/٣٣٧.

المبحث العاشر

محنته

صدق القائل:

مُحَسَّدُونَ وشَرُّ الناسِ منزلةً مَنْ عاشَ في الناس يوماً غيرَ مَحْسُودِ[1]

والقائل:

إنْ يَحْسِدوني فإنِّي غيرُ لائمهمْ قَبْلي مِن الناس أهلِ الفضلِ قد حُسِدوا
فدامَ لِي ولَهُمْ ما بِي وَمَا بِهِمُ وماتَ أكثرُنا غيظاً بما يَجِدُ[2]

وصدق المولى حيث يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] وقلَّ أن تجد ذا نعمةٍ لا يُحسد، فعلى العاقل الصبر والدفع بالتي هي أحسن وأرشد، فهذه دار الأكدار، لا دار الصفاء والقرار:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُريدُها صَفْواً من الأَقْذار والأكدارِ

لقد حُسِد الإمام ابن السبكي - رحمهما الله - كما حُسِد غيره، وحِيكت له المؤمرات لتنحيته عن منصبه، وليتولاها حاسدوه، وليطفئوا

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ١٣/٣٦٧.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين ص٢٦٢، تاريخ بغداد ١٣/٣٦٧.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٤.

جمرةَ غيظهم أمام شمسه وقمره التي أضات لهما الشام وما حولها. وليس عندنا تفاصيل تلك المحن الثلاث التي مرت بالتاج - رحمه الله - ولكن عندنا بعض نُقول تدل على مُجْمل المؤامرة، وأنها في الحقيقة حسدُ النفوس، وحُبُّ الدنيا والظهور.

وقد تكلم الدكتور سعيد الحميري عن محنة التاج كلاماً جيداً أكتفي بالإحالة عليه[1]، وأكتفي أيضاً ببعض النقول التي تدل على براءة التاج ونزاهته رحمه الله:

يقول الحافظ ابن حجي: «وحصلت له محنة بسبب القضاء، وأوذي فصبر، وسُجن فثبت. وعقدت له مجالس فأبان عن شجاعة، وأفحم خصومه مع تواطئهم عليه، ثم عاد إلى مرتبته وعفا وصفح عمن قام عليه»[2].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وحصل له بسبب القضاء محنةٌ شديدة، مرةً بعد مرة، وهو مع ذلك في غاية الثبات، ولما عاد إلى منصبه صفح عن كل مَنْ أساء إليه»[3].

---

(١) انظر: مقدمته لتحقيق منع الموانع ص١٥٩.

(٢) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣.

(٣) انظر: الدرر ٤٢٦/٢.

المبحث الحادي عشر

مصـــنـــفاتـــــه

قال الحافظ ابن حجي رحمه الله: «صَنَّف تصانيف عدة في فنون على صِغَر سنه، وكثرة أشغاله، قُرئت عليه، وانتشرت في حياته وبعد موته»[1].

وعبارة ابن حجي كما هي في «الدرر»: «وقد صَنَّف تصانيف كثيرةً جداً على صِغَر سنه، قُرئت عليه، وانتشرت في حياته وبعد موته»[2].

ويقول ابن حجر رحمه الله: «وانتشرت تصانيفه في حياته، ورُزق فيها السَّعد»[3].

ولم يكن ـ رحمه الله ـ ممن يسلك مسلك الجمع المجرد في التأليف أو الاختصار لكتابٍ سبقه، فيكون عمله مسبوقاً لا جديداً، بل كان يسلك مسلك الاختراع والابتكار في كل مؤلفاته، ومَنْ قرأ مؤلفاته أدرك ذلك، وهذا لون من التأليف لا يطيقه إلا الجهابذة حقاً، والراسخون صدقاً؛ لأنه يُنبئ عن إحاطة واستقراء، وفهم واستيعاب، ثم استنباط واستنتاج، هذا مع ما تمتع به ـ رحمه الله ـ من أسلوب مُشْرقٍ أخَّاذ، له حلاوة وطلاوة، كسا

---

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

(٢) انظر: الدرر ٢/٤٢٧.

(٣) انظر: الدرر ٢/٤٢٦.

به كتبه جمالاً على جمال، فجمال الاختراع والابتكار، مع جمال الصياغة واللفظ المدرار.

هذا مع تمكنه ورسوخه في فنون النقل والعقل، والأثر والنظر، فكانت كتبه بحق تجديداً، وصاحبها مجدِّداً، ولولا صِغَر سنه، وقلة أيامه ـ لكان مجدِّد عصره، وهو بلا شك أحد المجددين؛ إذ اجتمع له العلم والعمل والمنصب والخطابة، مع النزاهة والقوة في الحق والصَّلابة.

يقول رحمه الله في كتابه «الإبهاج» وهو أول كتاب أصولي ألَّفه: «وأنا مِنْ عادتي في هذا الشرح الإطنابُ فيما لا يُوجد في غيره، ولا يُتَلقَّى إلا منه، من بحثٍ مخترع، أو نقل غريب، والاختصار في المشهور في الكتب؛ إذ لا فائدة في التطويل فيما سَبَقنا مَنْ هم سادتُنا وكبراؤنا إلى جمعه، وهل ذلك إلا مجرد جمعٍ من كتب متفرقة، لا يصدق اسمُ المصنِّف على فاعله!»[1].

ويقول في «الطبقات الكبرى»: «وأنا دائماً أستهجن ممَّن يدَّعِي التحقيق من العلماء إعادةَ ما ذكره الماضون، إذا لم يَضُمَّ إلى الإعادة تنكيتاً عليهم، أو زيادةَ قيدٍ أهملوه، أو تحقيقٍ تركوه، أو نحو ذلك مما هو مَرامُ المحقِّقين... إنما الحبر مَنْ يُملي عليه قلبُه ودماغُه، ويُبرز[2] التحقيقات التي تشهد الفطر السليمة بأنها في أقصى غايات النظر، مشحونةً باستحضار

---

(١) الإبهاج ص: ١٣٦١.

(٢) في الأصل المطبوع من الطبقات: «وتُبرز». والظاهر أنه خطأ؛ لأنه لا يناسب العطف على قوله: «مَنْ يُملي عليه...»، والمناسب هو «ويُبرز»، فهو يُملي ويُبرز.

مقالات العلماء، مشاراً فيها إلى ما يستند الكلام إليه مِن أدلة المنقول والمعقول، يرمز إلى ذلك رمز الفارغ منه الذي هو عنده مقررٌ واضح، لا تفيده إعادتُه إلا السآمة والمَلامة، ولا يُعيده إعادةَ الحاشدِ الجمَّاعة، الولاَّجِ الخرَّاج، المُحِبِ أن يُحْمدَ بما لم يَفْعل»[1].

وهذه أسماء الكتب التي وقفت عليها من مؤلفاته رحمه الله:

أولاً: في أصول الدين:

١ ـ «السيف المشهور في شرح عقيدة أبي منصور» الماتريدي رحمه الله تعالى. ذكره المصنف في كتابه «منع الموانع»، في مسألة الاسم هل هو المسمَّى أو غيره؟[2]، وكذا ذكره في الطبقات الكبرى[3]، وذكره حاجي خليفة[4].

٢ـ قصيدة نونية في العقائد، ذكر جُلَّها في «الطبقات الكبرى»[5].

٣ـ «الدلالة عن عموم الرسالة»، جواباً عن أسئلة أهل طرابلس، ذكره بروكلمان[6].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ١/٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) انظر: مقدمة محقّق منع الموانع ص١٧٥.

(٣) انظر: الطبقات ٣/٣٨٤.

(٤) انظر: كشف الظنون ٢/١١٥٧، هدية العارفين لإسماعيل باشا ٥/٦٣٩.

(٥) انظر: الطبقات ٣/٣٧٩ ـ ٣٨٩.

(٦) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/١٨.

ثانياً: في أصول الفقه:

١ـ «الإبهاج شرح المنهاج». وهو كتابنا هذا الذي نحقّقه.

٢ـ «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب»[١]. حُقِّق في الأزهر.

٣ـ التعليقة في أصول الفقه. مخطوط، وقد ذكره في باب الإجماع من «رفع الحاجب» وأشاد به[٢].

٤ـ «جمع الجوامع». مطبوع.

٥ـ «منع الموانع». وهو شرح لكتابه «جمع الجوامع»، أجاب فيه عن أسئلة وردت عليه بخصوص كتابه «جمع الجوامع»[٣].

ثالثاً: في الفقه:

١ ـ «الأشباه والنظائر». حُقِّق في جامعة الأزهر[٤].

٢ ـ «التوشيح على التنبيه والمنهاج والتصحيح»[٥]. يحقق الآن في جامعة الإمام محمد بن مسعود.

---

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣، الدرر ٤٢٦/٢.

(٢) انظر: مقدمة محقّق منع الموانع ص١٧٣.

(٣) انظر: مقدمة محقق منع الموانع ص٩٢. وقد ذكر إسماعيل باشا في هدية العارفين (٦٣٩/٥) كتاب «تشحيذ الأذهان على قدر الإمكان» في الرد على البيضاوي. ولا أدري أهو في أصول الفقه أم غيره، ولذلك وضعته في الهامش.

(٤) مقدمة محقّق منع الموانع ص١٧٥.

(٥) ذكره المصنف في الطبقات الكبرى ٢٥٨/١٠، وكذا ذكره ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣، وابن حجر في الدرر ٤٢٦/٢.

٣ ـ «ترشيح التوشيح». ذكر فيه اختيارات والده[١].

٤ ـ منظومة في الفقه، أورد منها السيوطي تسعة أبيات في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض» ص٢٢[٢].

٥ ـ فتاوي. ذكره بروكلمان[٣].

٦ ـ «أوضح المسالك في المناسك». ذكره بروكلمان[٤].

٧ ـ تبيين الأحكام في تحليل الحائض. ذكره بروكلمان[٥].

٨ ـ أرجوزة في خصائص النبي ﷺ ومعجزاته. ذكر منها التاج بيتين في «الطبقات»[٦].

٩ ـ «جلب حلب». وهو جواب أسئلة سأله عنها الأذرعي[٧].

---

(١) ذكره المصنف في الطبقات ١١٦/٨، وكذا ذكره ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣، وابن حجر في الدرر ٤٢٦/٢.

(٢) انظر: مقدمة محقّق منع الموانع ص١٧٤، مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١٦/١.

(٣) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١٩/١.

(٤) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١٧/١.

(٥) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١٧/١.

(٦) انظر: الطبقات الكبرى ٢٠٥/٩، وانظر: مقدّمة منع الموانع ص١٧٤، ومقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١٦/١.

(٧) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣.

رابعاً: في الحديث:

١ـ أحاديث رفع اليدين في الدعاء. ذكره بروكلمان[1].

٢ـ جزء في الطاعون. ذكره حاجي خليفة[2].

٣- جزء على حديث «المتبايعَيْن بالخيار». ذكره التاج في «الطبقات»[3].

٤ـ كتاب الأربعين. وهي أربعون حديثاً خَرَّجها في زمن شبابه[4].

٥ـ ما ورد في إحياء علوم الدين من الأحاديث وليس لها إسناد[5].

خامساً: في التاريخ والتراجم:

١ـ «الطبقات الصغرى». وهي مخطوطة.

٢ـ «الطبقات الوسطى». وهي مخطوطة.

٣ـ «الطبقات الكبرى». وهي مطبوعة ومحقَّقة في عشرة أجزاء.

قال ابن قاضي شهبة: «وفيها غرائب وعجائب»[6].

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/١٧.

(٢) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/١٨.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٧١، ١٠/١٩١.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ٩/١٧١.

(٥) قال التاج رحمه الله في الطبقات ٦/٢٨٧: «وهذا فصلٌ جمعتُ فيه جميع ما وقع في كتاب الإحياء من الأحاديث التي لم أجد لها إسناداً». وهو فصل طويل بدأ من ٦/٢٨٧ - ٣٨٩.

(٦) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦.

٤ ـ مناقب الشيخ أبي بكر بن قوام. ذكره بروكلمان[1].

سادساً: في الأخلاق والإصلاح:

١ـ «معيد النعم ومبيد النقم». وهو بحقٍّ كتابٌ فرد في بابه، عظيمٌ نفعه لكل مجتمع، وفيه تظهر شخصية التاج ـ رحمه الله ـ الغيور على دينه، الصادق في نصيحته، الصادع بالحق لا يُرهبه سلطان، ولا يُخيفه ظلم أو عدوان.

٢ـ «رفع الحَوْبة بوضع التوبة». ذكره التاج في «الطبقات»[2]، وذكره بروكلمان[3].

سابعاً: في الألغاز:

١ـ قصيدته في المعاياة، ذكر منها في «الطبقات» ثلاثة وعشرين بيتاً[4].

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/١٩.

(٢) انظر: الطبقات ٢/٣٢٧.

(٣) انظر: مقدمة تحقيق الطبقات الكبرى ١/١٨.

(٤) انظر: الطبقات ٩/١٣٣ ـ ١٣٨.

المبحث الثاني عشر

وفاتـــه

توفي رحمه الله شهيداً بالطاعون في سابع ذي الحِجة سنة ٧٧١هـ، خطب يوم الجمعة الثالث من ذي الحجة، فطُعِن ليلة السبت رابِعَه، ومات ليلة الثلاثاء، ودُفن بتربتهم بالسفح عن أربع وأربعين سنة[١] رحمه الله رحمةً واسعة، وأنزل على قبره شآبيب رحمته، وحشرنا معه في زمرة سيد أنبيائه، صلى الله وسَلَّم عليه وعلى آله.

ولئن غاب عنا التاج بمحياه، فلم يغب عنا علمه وفتاواه[٢]، فهما باقيان خالدان، وتلك هي الحياة، وذلك هو البقاء، وصدق عليٌّ رضي الله عنه حيث يقول:

ما الفخرُ إلا لأهل العلمِ إنَّهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقَدْرُ كلِّ امرئ ما كان يُحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

فَفُزْ بعلمٍ تَعِشْ حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وخلَّف رحمه الله ذريةً من بعده منهم ابنه تقي الدين علي بن تاج

---

(١) انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ١٠٦/٣، الدرر ٤٢٨/٢.

(٢) في تاج العروس ٣٨/٢٠، مادة (فتى): «والفُتْيا والفُتْوى بضمهما، وتفتح الأخيرة: ما أفتى به الفقيه في مسألة .... والجمع الفتاوِي، بكسر الواو على الأصل، وقيل: يجوز الفتح للتخفيف» مع تصرف يسير.

الدين عبد الوهاب السبكي، وصالحة بنت عبد الوهاب، رحمهم الله جميعاً.

يقول ابن العماد الحنبلي - رحمه الله - في سنة ٧٧٢هـ:

«وفي مُحَرَّمها دَرَّس بدمشق بالمدرسة الأمينية تقي الدين علي بن تاج الدين عبد الوهاب السبكي، وهو ابن سبع سنين،وهذا من العجائب»(١).

وفي وَفَيات سنة ٧٧٦هـ، يقول ابن العماد رحمه الله:

«وفيها علي بن عبد الوهاب بن علي السبكي، وَلِيَ خطابة الجامع الأُموي بعد أبيه وله عشر سنين، ودَرَّس في حياة أبيه بالأمينية وعمره سبع سنين، ومات كما تقدم مع ولدَيْ عَمِّه في يومٍ واحد»(٢).

ويُفهم من النَّصَّيْن أن تقي الدين كان عمره يوم وفاة والده سبع سنين، ودَرَّس في حياة والده، وبعده، إلى أن بلغ العشر سنين، ثم تولى خطابة الجامع الأموي، وتكون فترة خطابته نحو السنتين.

وولدا عمه المُتوفَّيان مَعَه هما جمال الدين عبد الله بن أحمد بن علي السبكي، وأخوه عبد العزيز، مات الثلاثة كلُّهم في يوم واحد خامس عشر ذي القَعْدة بالطاعون، وعمتهم سُتَيْتَة قبلهم بقليل(٣).

وأما ابنته صالحة رحمهما الله، فيقول عنها السخاوي رحمه الله: «صالحة ابنة التاج عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي. أجاز لها

---

(١) انظر: شذرات ٢٢٣/٦.

(٢) انظر: شذرات ٢٤٢/٦.

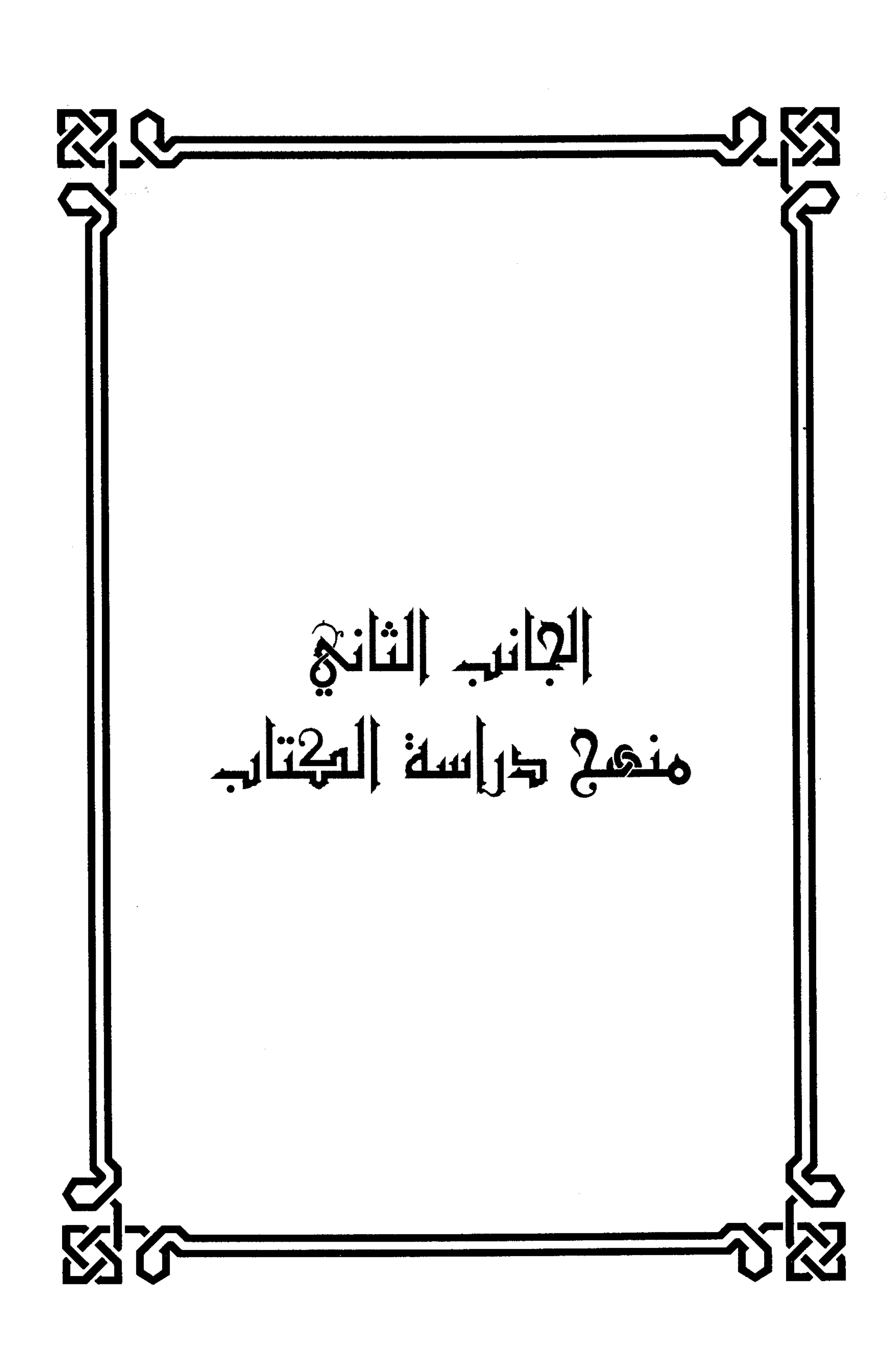
(٣) انظر: شذرات ٢٤٢/٦.

العِز بن جماعة في الاستدعاء المعيَّن، وكذا أجاز لها ابن أُمَيْلة، ولقيها الزين رضوان فاستجازها، وقال: أظن أنني قرأتُ عليها شيئاً. ماتت وبَيَّض لوفاتها»[1].

---

(١) انظر: الضوء اللامع ١٢/٧٠.





الجانب الثاني

منهج دراسة الكتاب

المبحث الأول

توثيق نسبة الكتاب

أجمعت المصادر كلها على صحة نسبة كتاب «الإبهاج في شرح المنهاج» للتقي السبكي وابنه التاج رحمهما الله.

فبالنسبة للجزء الذي شرحه التقي ـ رحمه الله تعالى ـ نص عليه ابنه التاج في ترجمة أبيه فقال في الطبقات الكبرى (١٠/٣٠٧) في ذكر مصنفاته: «الإبهاج في شرح المنهاج، في أصول الفقه، عمل منه قطعةً يسيرة، فانتهى إلى مسألة مقدِّمة الواجب، ثم أعرض عنه، فأكملته أنا».

وكذا ذكر الذين ترجموا للتقي – رحمه الله – هذا الكتاب ضمن مصنفاته. انظر: طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦، الفتح المبين ٢/١٦٩.

وبالنسبة لتتمة التاج – رحمه الله – نص التاج نفسه على ذلك في «الطبقات الكبرى» كما سبق ذكره، وقال في موطن آخر من الطبقات ٢/١٦٨ عن نص نقله من مختصر البويطي رحمه الله: وهذا نص وقفت عليه في حياة الوالد رحمه الله، وكتبته إذ ذاك في «شرح منهاج البيضاوي»، ثم كتبته في «شرح مختصر ابن الحاجب، ولم أزل أغتبط به». وهذا النص يدل على أنه بدأ شرح والده في حياته.

وقال عن حديث: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» في الطبقات الكبرى ٢/٢٥٣: «هذا الحديث كثر ذكره على ألسنة

الفقهاء والأصوليين، وتكلمتُ عليه قديماً فيما كتبته على أحاديث منهاج البيضاوي».

وقد نص التاج على كتابه أيضاً في «جمع الجوامع» فقال في مقدمته: «بسم الله الرحمن الرحيم نحمدك اللهم على نعمٍ يُؤذِن الحمدُ بازديادها، ونصلي على نبيك محمد هادي الأمة لرشادها، وعلى آله وصحبه ما قامت الطروس والسطور لعيون الألفاظ مقام بياضها وسوادها. ونضرع إليك في منع الموانع عن إكمال جمع الجوامع الآتي من فن الأصول بالقواعد القواطع البالغ من الإحاطة بالأصلين مبلغ ذوي الجد والتشمير، الوارد من زهاء مائة مصنَّف منهلاً يروي ويَمير، المحيط بزبدة ما في شرحي المختصر والمنهاج مع مزيد كثير». انظر: شرح المحلي ١/٧ — ٢٦.

كما نصت المصادر الأخرى على نسبة الكتاب إلى التاج رحمه الله. انظر الدرر الكامنة ٢/٤٢٦، طبقات ابن قاضي شهبة ٣/١٠٦، حسن المحاضرة ١/٣٢٨، كشف الظنون ٢/١٨٧٩، هدية العارفين ٥/٦٣٩.

هذا مع اتفاق جميع النسخ المخطوطة على اسم الكتاب والنسبة إلى مؤلفَيْه.

المبحث الثاني

الملاحظات العامة على كتاب

(الإبهاج في شرح المنهاج)

المتأمل لمؤلف التقي السبكي – رحمه الله – يلاحظ أنه يملي من حفظه، ويكتب من فكره؛ لأنه لا يعتني بالنقل عن غيره كثيراً، بل يتميز مُؤَلَّفُه بأسلوب مستقل، واعتناء كبير بتحقيق المسائل والتنبيه على دقائق الشرح، والاستدراك على شُراح المنهاج، وتبيين ما أخطأ فيه بعضهم. إلا أن أسلوبه – رحمه الله – يتميز بالصعوبة والغموض في بعض الأحيان، وذلك إذا أغرق في بحث المعقولات؛ إذ هو – رحمه الله – بحر البحار كما وصفه ابنه التاج البحر الزخار.

انظر على سبيل المثال بحثه في الفرق بين التصور والتصديق في: ص ٧٣ – ٧٨.

وانظر التنبيهات الخمسة في تعريف الفقه: ص ٨٢ – ٨٩.

أما قوته – رحمه الله – في البحث والتحقيق فينبيك عنها بحثه في كل المسائل، واستدراكه على كثيرين، ودونك مسألة الأداء والإعادة والقضاء، وهي المسألة الخامسة من الباب الأول: ص ١٩٩ – ٢١٤.

وانظر على سبيل المثال أيضاً ردَّه على شمس الدين الأصفهاني في قوله بأن قيد «الشرعية» في تعريف الفقه احتراز من قول المعتزلة: ص ٨٩ - ٩٣، وردَّه عليه في قوله بأن البعثة حادثة.

ورده على شيخه الباجي - رحمه الله - في قوله بأن قيد «العملية» في تعريف الفقه احتراز عن أصول الدين. انظر: ص ٩٤ - ٩٧.

وانظر ردَّه على الأصوليين ومنهم شيخه الباجي في تعريف الواجب: ص ١٤٣.

واستدراكه على أكثر الناس - ولعله يقصد بهم شُراح المنهاج - في تقرير أن الفقه قطعي والظن في طريقه انظر: ص ١٠٤ - ١٠٨.

وانظر سعة اطلاعه في دفع قول نسب لبعض الشافعية في أنهم يقولون بأن الصلاة تجب في أول الوقت، مع أنه لا يعرف في شيء من كتب المذهب أن أحداً قاله من الشافعية، ولا يعرف ما سبب هذه النسبة إليه، حتى قال السبكي: سألت ابن الرفعة وهو أوحد الشافعية في زمانه فقال: تتبعت هذا في كتب المذاهب فلم أجده، ثم بيَّن التقي - رحمه الله - سبب هذه النسبة من كتاب «الأم» للشافعي رضي الله عنه وهو أن الشافعي نقل ذلك عن غيره، قال التقي: «فقد ثبت هذا المذهب بنقل الشافعي عن غيره، فلعل بعض الناس نقل ذلك عن نقل الشافعي، فالتبس ذلك على من بعده، وظن أنه من مذهب الشافعي». انظر: ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

كما أن السبكي - رحمه الله - قد يطيل حينما لا يكون قد سُبق على

تحقيق المسألة، وذلك كمسألة الكلام عن أقسام التصورات الأربعة: تصور الموضوع، وتصور المحمول، وتصور النسبة بينهما، وتصور وقوع النسبة وهو التصديق. ثم بيّن الفرق بين التصور الثالث والرابع، ثم بين نسبة التصور والتصديق على العلم والحكم وفصَّل في ذلك، ثم قال: وقد أطلنا في هذا لأنا لم نجد من حقّقه هكذا. انظر: ص ٧٣ - ٧٨.

المبحث الثالث

في المنهج الذي اتبعه التاج في شرح الكتاب

حرص الإمام تاج الدين السبكي أن يكون الشرح آخذا بعناق المتن دون أي خلل، لا يشعر القارئ بوجود أي فجوة بينهما، فكان يحذو في شرحه حذو المصنف البيضاوي في متنه ترتيباً وتبويباً وموضوعات، وإن رأى خلاف ذلك ينوه عليه.

ومن الضروري جداً أن ننبه هنا إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أنّ شرح الشيخ تاج الدين السبكي لمنهج البيضاوي إنما هو تتمة لما بدأ به والده، وقد بدأ من قول المصنِّف: «الرابعة: وجوب الشيء مطلقاً يوجب وجوب ما لا يتم إلا به وكان مقدوراً».

وهذا يعني أن الإمام تاج الدين السبكي شرح معظم الكتاب.

والآن نبدأ في تتبع منهجه ابتداء من المقدمة إلى خاتمة الشرح، مروراً بجميع الأبواب.

أولاً: مقدمة الشرح:

بدأ الشارح - رحمه الله - بالبسملة والثناء على الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، بدأ المقدمة ببراعة استهلال، بلفظ مسجوع، غاية في الحبكة الأدبية، وانتقاء الألفاظ، ضمنها ما تضمنه

كتاب المنهاج للبيضاوي من أبواب أصول الفقه، بدأ بالأصول المتفق عليها (الكتاب والسنة والإجماع والقياس)، ثم النسخ ثم طرق الاستنباط من عام وخاص وأمر ونهي وظاهر ومؤول ثم الأدلة المختلف فيها كالاستصحاب وشرع من قبلنا إلى نهاية الاجتهاد والتراجيح. ولم ينس أن يعرج عن الأحكام الشرعية التكليفية منها (كالواجب والمندوب، والحرام والمكروه والمباح)، والوضعية كالشرط والمانع، وانتهى بالكلام عن واضع هذا العلم: الشافعي وكل من سار وراءه من الأصوليين. ولتوضيح ذلك نسرد مقدمته واضعين خطاً على كل كلمة تومئ إلى ذلك.

قال التاج رحمه الله: «الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي جعل لنا من هذا الدّين القيم شرعة **ومنهاجا**، وأطلع لنا في سماء العلم الشريف من **الكتاب والسنة** سراجاً وهاجاً، وقدر للفقيه أن يكون على **الإجماع** محتالاً، وإلى **القياس** محتاجاً، نحمده على نعمه التي **خصَّنا بعمومه**، **ورجحنا** على من سواه **بأدلة مفهومها**، واستوعب لنا ما وجد منها عند **سبرها وتقسيمها**، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة **ظاهرة** غير **مؤولة** دائمة، **نستصحب** منها **أحكاماً** غير مبدلة نامية الثواب يوم الميعاد، فلا يحتاج إلى **بيان أحكامها المجملة**، ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي **نسخ شرع من قبله** بشرعه المؤيد، **وأمر ونهى فأوجب وندب وحرم وأباح، وأطلق وقيد، واجتهد في إبلاغ ما أمر به،** فذب العقل عن **فعل** ما **قرره**، وشيّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الذين **فهموا خطاب وضعه**، وقاموا **بشرائط** دينه، وعلموا **أدلة**

شرعه، واتبعوه فما منهم إلا قال **بموجب أصله وفرعه**، **صلاة**، تصل **أخبارها** إليهم بكرة وعشياً، وتفد **أجناسها** المتنوعة بفصولها المتميزة عليهم فتسلك صراطاً سوياً، وتَخَلّصُ قائلها من الأهوال يوم يموت ويوم يبعث حيًّا، دائمة ما افتقر **فرع إلى الرجوع إلى أصله**، واحتاج **المجادل إلى تجويد نصه**، كما يحتاج المجالد إلى تجريد نصله، باقية لا ينعكس **طردها**، ولا **يشتبه محكمها** بترهات الملحد، وزخرف قوله، ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان المقتفين آثارهم الحسان، وخصّ بمزيد الرضوان العلماء الحامين حمى الشريعة أن يضام أو يضاع، الوارثين بالدرجة الرفيعة هدى النبوة الذي لا يرام ولا يراع، الوافدين على حياطته بالهمة الشريفة، لا سيما الإمام المطلبي **مستخرج علم أصول الفقه محمد بن إدريس الشافعي** الذي ساد المجتهدين بما **أصّل وأنشا**، وسار نبأ مجده والبرق وراءه يتحرق عجله وهو إمامه على مهل يتمشى، وساق إلى سواء السبيل بعلومه التي غشاها من تقوى الله ما غشى، وقدَّس أرواح أصحابه، الذين زيّنوا أسماء العلوم من أنفسهم بزينة الكواكب، وهاموا باتباع مذهبه المذهب، وللنّاس فيما يعشقون مذاهب. وذادوا عن **بيان ما أجمله وإيضاح ما أشكله**، والعلوم عطايا من الله ومواهب، رضا يتكفل بنجاة كل منهم ونجاحه، ويمر بروض الإيمان فيتعطر بأنفاسه رياحُه، ويفخر عقدُ الجوزاءِ إذا كان درّةً في وشاحِه. أما بعد:»[1].

فلله درّه من أديب فحل، كيف استطاع أن يمتلك زمام البيان،

---

(١) ينظر: ص ٢٩٢ — ٢٩٥.

ويوظفه في إبراز علم الأصول، علم أشبه بجلمود صخر حطّه السيل من علٍّ، وهو في ذلك يحاكي إمام مذهبه في الرسالة، حيث سلاسة العبارة، فهذا هو التاج قد استاك بشذا البلاغة، فطوّعها فلِينت له كما لين الحديد بيد سليمان عليه السلام، فعمل منها براعة استهلال في مقدمة، وقدّر منها ديباجة شرحه.

هذا كلّ ما جاء قبل لفظة: «أما بعد»، وأمّا ما بعدها فهو في إبراز منهجه في الشرح، فقد ذكر الآتي:

بيان أهمية علم الفقه ومعرفة الحلال والحرام.

ذكر ذلك بقوله: «أما بعد: فإن العلوم وإن كانت تتعالى شُرفاً وتطلع في أفق الفخار من كواكبها شَرفاً، فلا مرية في أنّ **الفقه** نتيجة مقدماتها، وغاية نهاياتها وواسطة عقدها، ورابطة حلها وعقدها، به يعرف الحرام من الحلال، وتستبين مصابيح الهدى من ظلام الضلال»(١).

بيان أهمية أصول الفقه.

يقول التاج السبكي: «وهيهات أن يتوصل طالب، وإن جد المسير إليه أو يتحصل بعد الإعياء والنصب عليه إلا بعد العلم **بأصول الفقه** والمعرفة والنهاية فيه،وكيف يفارق الموصوف الصفة»(٢).

---

(١) ينظر: ص٢٩٥.

(٢) ينظر: ص٢٩٥ – ٢٩٦.

بيان أهمية كتاب المنهاج للبيضاوي.

يقول هنا أيضاً: «...وقد نظرنا فلم نر مختصراً أعذب لفظاً وأسهل حفظاً، وأجدر بالاعتناء وأجمع لمجامع الثناء من كتاب (منهاج الوصول إلى علم الأصول) للشيخ الإمام العالم العلامة قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي بيّض الله وجهه يوم تبيَّض وجوه، وتسود وجوه، وروَّض تربته بغمام الغفران، حتى يأتي يوم القيامة، وما ثلم جانبه ولا فضّ فوه، فإنّه موضوع على أحسن منهاج محمول على الأعين، وليس له منها من هاج، بعبارة أعذب من ماء السحاب، وألعب من ابنة الكرم بعقول أولي الألباب، آل فضل البلاغة إليه، وآلى فصل الخطاب ألا يتمثل إلا بين يديه»[1].

بيان الدافع لتأليفه هذا الشرح.

«وقد رأيت شراحه على كثرتهم مالوا إلى الإيجاز، وقالوا وكأنما ضاق بهم الفضاء الواسع، فعدّ مقالهم في الألغاز، قنع كل منهم بحاجة في نفسه من اسم التصنيف قضاها، وجمع نفسه على ما شف به سجل الكتاب من تقارير إذا أنصف من نفسه لا يرضاها»[2].

بيان أن والده شرع في شرح هذا المتن.

قال التاج السبكي: «وقد كان والدي أطال الله عمره شرع في وضع

---

(١) ينظر: ص٢٩٦.

(٢)ينظر: ص٢٩٧.

شرح عليه أبهى وأبهج من الوشي المرقوم، وأسرى وأسرع إلى الهداية من طوالع النجوم، عديد شهب لائحة ورسل سحب سائحة، وسماه علم يهتدى بكوكبه، وعلاء قدر أخذ بلمة الفخر، ولم يزاحمه بمنكبه، لا تنقشع عارضته، ولا نتوقع معارضته خضعت رقاب المعاني لكلامه، وخشعت الأصوات، وقد رأته جاوز الجوزاء وما رضيها دار مقامه لكنه أحسن الله إليه ما غاص في بحره إلى القرار، ولا أوصل هلاله إلى ليلة البدار، بل أضرب عنه صفحاً بعد لأي قريب وتركه طرحاً وهو الدرّ اليتيم بين إخوانه كالغريب»[1].

بيان أهمية شرحه لمتن البيضاوي.

قال التاج: «وقد حدثتني النفس بالتذييل على هذه القطعة، وأحاديث النفس كثيرة، وأمرتني الأمارة بالتكميل عليها، ولكنني استصغرتها عن هذه الكبيرة، وقلت: للقلم أين تذهب؟ وللفكر أين تجول؟ أطنب لسانك أم أسهب؟ ووقفت وقفة العاجز والنفس تأبى إلا المبادرة بما به أشارت، وجرت على تيارها منادية إئت بما أمرتك بما استطعت، وتوارى اللسان وما توارت، فلما تعارض المانع والمقتضي، وعلمت أنّ الحال إذا حاولت مجهودها قام لها العذر الواضح فيما استقبلته، ومضيٌّ أي مضي أعملت الفكرة في الدجنة والوجه والليل كلاهما كالح، وشرعت فيه وقلت: لعل الغرض يتم ببركته، وبقصده الصالح وجردت همة ما ورد رائدها إلاّ وقد سئم من النشاط، ولا أغمد مهندها إلا وقد ترك ألف

---

(١) ينظر: ص٢٩٧ - ٢٩٨.

طريح على البساط، ولا عاد نصلها إلا وقد قضى المأمول، ولا فترت عزائمها إلا وقد حصلت على نهاية السول، وأعملنا هذه الهمة في مدلهم الديجور، وصرفنا قلمها بشهادة النجوم وفلكها يدور، فلم تنشب ليالي أسبلت جلبابها، وأرخت نقابها، معدودة ساعاتها، ممدودة بالألطاف الخفية أوقاتها، إلى أن انهزمت تلك الليالي ودارت الدائرة عليها، وجاء من النسيم العليل بشير الصبح متقدماً بين يديها، فوافى الصباح بكل معنى مبتكر، وجلا عرائس بدائعه فشنف السمع وشرف البصر. وجاء كتاباً ساطعاً نور شمسه، وشمس السماء في غروب، طالعاً في أفق الفخار على أحسن أسلوب، حائزاً لما يراد منه في كل طريقة حائزاً حقاً على مقالات المتقدمين والمتأخرين، وحسبك بمن مجازه حقيقة»[١].

بيان أن عادته في الشرح الإطناب والاختصار حيث يقتضي ذلك.

أثناء الشرح ذكر منهجه في الشرح أيضاً، مبينا عدم الإطناب إلا اذا اقتضى الأمر، والاختصار حين يستلزم الأمر. يقول التاج: «...وأنا من عادتي في هذا الشرح الإطناب فيما لا يوجد في غيره، ولا يتلقى إلا منه بحث مخترع أو نقل غريب، أو غير ذلك، والاختصار في المشهور في الكتب إذ لا فائدة في التطويل فيما سبقنا من هم سادتنا وكبراؤنا، إلى جمعه، وهل ذلك إلا مجرد جمع من كتب متفرقة لا يصدق اسم المصنف على فاعله»[٢].

---

(١) ينظر: ص٢٩٩ – ٣٠١.

(٢) ينظر: ص١٣٦١.

وإن كان لابد أن نعلق على هذه المقولة – وهي بحق مقولة ينبغي أن تخط بماء الذهب- فتعليقنا سيكون منصباً على حالنا -نحن طلاب الدراسات العليا – الذين ابتلينا بالنقل والتجميع واجترار المعلومات، فليس هناك اختراع لجديد أو نقل لغريب، أو تعمق في الدراسة، بحوثنا تكاد تكون معادة ومكررة، سمتها السطحية، تعتمد في الغالب الأعم على تجميع ما في الكتب وسردها، فقد يكتب الباحث منا في التعريف اللغوي عدّة صفحات، ويتعب آخر نفسه في مناقشة التعريفات الاصطلاحية، والتي – أحيانا – لا يخرج منها بثمرة بعد العناء والبحث. ناهيك عن الهوامش والحواشي التي نثقلها بالتراجم وتخريج الأحاديث وغيرها من المعلومات خاصة في مجال التحقيق. فتجد البحث قد جاوز المجلدين أو أكثر، ولو أنعمت النظر في البحث من أوّله إلى منتهاه يمكن أن تخلص إلى الفائدة في بضع صفحات قلائل. فالله المستعان.

بيان خاتمة المقدمة بالدعاء، وبيان بداية شرحه عند المحل الذي بلغه والده.

قال: «فأسأل الله تعالى أن يعمّ النّفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للفوز لديه، وقد وصل والدي الشيخ الإمام جزاه الله الخير إلى مسألة مقدمة الواجب، ونحن نتلوه والله الموفق المعين بخفي ألطافه، والمحقق لرجاء العبد بإسعاده وإسعافه»[1].

---

(١) ينظر: ص٣٠١.

ثانياً: خاتمة الشرح

ثنينا بالخاتمة لما للخاتمة من علاقة بالمنهج المتبع أثناء شرحه فقد بينه كما سبق في المقدمة، ثم أوضحه في الخاتمة. فذكر أنه راعى فيه جانب التوسط، فلم يطل ولم يخل، وعلل ذلك بأن كتاب البيضاوي مختصر، والأجدر بمن يتصدى لشرح مثل هذا المختصر أن يحذو حذوه، وقد كان أحيانا يطيل النفس في المسألة، وهناك مباحث ترك ذكرها خشية التطويل، وأضرب عن الخوض فيها، مع أنّ النفس فيها حزازات، وهو يعتذر أنه لم ينصف المصنف في شرحه، رغم أنه لم يغادر مسألة صغيرة كانت أم كبيرة إلا وقد جمع لها من النقول والزيادات والفوائد ما جعل شرحه متكاملا من كل جوانبه، وقد صاغ هذا في خاتمة مؤنقة بألفاظ راعى فيها الصناعة الأدبية. ونتركه يعبر عن نفسه فيقول:

«وقدْ راعينا فيه جانب التَّوسط؛ لأنَّ الكتاب مختصر، فالأَلْيَقُ بشارحه أنْ يحذو حذوه ولا يتعدى ممشاه فوق خطوه، وقد كنّا نروح ونغدو على المسألة، وربما لم نخرج عن حدّ الشرح قدرَ أُنْمُلة، وفي النفس حزازات من مباحثَ نترك ذكرَها خشيةَ التطويلِ، ونَسْلُكُ في الإضرابِ عنها سبيلَ غيرنا، وإنْ كنَّا لا نرتضي تلك السبيل، على أنَّا لم نألُ جهداً فيما وضعناه، ولم نرض إلاَّ أنْ نحله محلَ النَّجم، وفي الظنِّ أنَّا ما أنصفناه، فإنَّا لم نغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطالب الشارح بها إلاَّ وقد جمعناها فيه، مع زيادات مِنْ نُقُولٍ، وفرائدَ يَهِيمُ الفَهْمُ إذا سَمِعَها طرباً، وينطق شاكرُها ملءَ فيه، ومباحثٍ ما البدورُ الكواملُ إلاَّ ما تطلعُ، ولا العُرُبُ الأترابُ إلاَّ

ما تَفُوهُ به بناتُ فكرِها وتسمعُ.

لكنَّ الكتابَ مع أنّه الروضُ المبدعةُ أزهارُه، والواضحُ الجليُّ الذي ينضال لديه النّهار وأنواره، لم يغنِ على نفسه لقلّة ما أودع فيه من المسائل، ولم يبن عن جمعٍ كبيرٍ، فلم نهتم له ولا به، وكيف لا؟ وقد كنَّا نكتب فيه بأطراف الأنامل، ونجيء إليه وقد سئمنا الطلب، وقالت: النَّفس حِطَّة، وبعد عليه، فنقول: من رأى القلم يكتب والهمّة تملي عليه. أمَّا القلم قد أبلَ وليس في تلك شطّة ...»[1].

وفي ختام الخاتمة عزم أن يجعل لمختصر ابن الحاجب الأصولي شرحا يميط فيه اللثام، وقد فعل فقد كان كتابه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب) من أحسن ما كتب في شروح ابن الحاجب، وقد حقق في الأزهر الشريف، هو مطبوع الآن ثلاثة أجزاء بمطبعة عالم الكتب، تحقيق علي معوض وعادل أحمد.

يقول التاج: «وفي عزمي والله الميسر أنْ أضع شرحاً على مختصر ابن الحاجب بسيطاً لا عذر لي إذا لم آتِ فيه بالعَجَبِ العُجَاب، محيطاً بهذا العلم على أتمّ وجه، لا أميط عنه إلاَّ القشر عن اللباب، والله المسؤول أنْ يوفقنا لصالح الأعمال، ويجمعنا على العلم ونشره في كلّ حال بمنِّه وكرمِه، إنّه المرجو خيرُه المأمولُ يسرُه، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا إلى يوم الدين»[2].

---

(١) ينظر: ص٢٩٦٧، ٢٩٦٨.

(٢) ينظر: ص ٢٩٦٨.

ثالثاً: موضوعات الكتاب:

وهي أهم نقطة في المنهج، فعبر القراءة المتكررة أثناء البحث، تكونت لنا فكرة عن منهج الرجل في عرض أفكاره وترجيحاته في شرحه لهذا المتن، ولذلك يمكن أن نجملها في نقاط عدة حسب تعامله مع كل مسألة سواء مع المصطلحات، أو التعريفات، أو تعامله مع المصادر، وفي بيان وجهة نظر المصنف ونقدها أحياناً، كما نبين طريقة تعامله مع المسائل الأصولية، وموقفه من آراء العلماء سواء كانت آراء فردية أو آراء جماعية، كما نتعرض إلى تعامله مع القضايا اللغوية والنحوية والأدبية، ومع الصناعة الحديثية، ومع القضايا الفقهية، وأخيرا استقلال شخصيته، وترجيحاته. وسنجعل لكل ما ذكرنا عنواناً خاصاً.

تعامله مع التعريفات والمصطلحات

أولاً: التعريفات اللغوية:

دأب المصنف أثناء الشرح على ذكر التعريفات اللغوية أحياناً لما يورده من مصطلحات ويذكر أحياناً مصدره اللغوي.

مثال ١: «أقول: القياس في اللغة التقدير، ومنه قست الأرض بالخشبة، أي قدرتها بها. والتسوية، ومنه قاس النعل بالنعل أي حاذاه، وفلان لا يقاس بفلان، أي لا يساويه»[١].

---

(١) ينظر: ص٢١٥٧.

مثال٢: «والسبر في اللغة: الاختبار»[1].

مثال٣: «الاجتهاد لغة: استفراغ الوسع في تحصيل الشيء»[2].

ثانياً: التعريفات الاصطلاحية:

كان رحمه الله في أغلب أحيانه يقتصر على المعنى الاصطلاحي، ولا يعطف على المعنى اللغوي، وهو في ذكره للمعاني الاصطلاحية، يذكر حدا واحداً، وفي النزر القليل يذكر أكثر من ذلك ثم يرجح أحسنها في نظره، وهو على كل حال ممن يرون أن ذكر التعاريف ومناقشتها ليس فيه كبير فائدة. يقول: «وهذا التعريف [أي تعريف الاجتهاد] الذي ذكره المصنف سبقه إليه صاحب الحاصل وهو من أجود التعاريف، **فلا نطول بذكر غيره إذ ليس في تعداد التعريف كبير فائدة**»[3]. ونكتفي بذكر بعض الأمثلة على التعريفات الاصطلاحية:

مثال١: «وأما تعريفه [أي القياس] في الاصطلاح بين العلماء فقد ذكروا فيه أموراً أقربها، ما ذكره المصنف وهو الذي أبداه الإمام في المعالم، وهو إثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت»[4].

---

(١) ينظر: ص٢٣٨٦.

(٢) ينظر: ص٢٨٦٣.

(٣) ينظر: ص٢٨٦٤.

(٤) ينظر: ص٢١٥٨ - ٢١٥٩.

مثال٢: «إلحاق المسكوت عنه بالمنصوص عليه بإلغاء الفارق يسمى تنقيح المناط....وأما تحقيق المناط: فهو أن يتفق على علية وصف نص أو إجماع ويجتهد في وجودها في صورة النزاع... وأما تخريج المناط: فهو الاجتهاد في استنباط علة الحكم الذي دلّ عليه النص أو الإجماع من غير تعرض لبيان علته لا بالصراحة ولا بالإيماء»[1].

مثال٣: «الاستقراء ينقسم إلى تام وناقص، فأما التام: فهو إثبات الحكم في جزئي لثبوته في الكلي، وهو هو القياس المنطقي وهو يفيد القطع... وأما النّاقص: فهو إثبات الحكم في كلي لثبوته في أكثر جزئياته، وهذا هو المشهور بإلحاق الفرد بالأعم الأغلب»[2].

وأحياناً يغوص في شرح التعريفات بعد ذكرها كما هو الشأن في تعريف الاجتهاد.

مثال٤: «وفي الاصطلاح ما ذكره في الكتاب. فقوله: استفراغ الوسع: جنس. وقوله: في درك الأحكام: فصل خرج به استفراغ الوسع في فعل من الأفعال العلاجية مثلاً. وقوله: الشرعية: فصل ثان تخرج اللغوية والعقلية والحسية. والأحكام الشرعية تتناول الأصول والفروع ودركها أعم من كونها على سبيل القطع أو الظن هذا مدلول لفظه... وهذا التعريف الذي ذكره المصنف سبقه إليه صاحب الحاصل وهو من أجود التعاريف،

---

(١) ينظر: ص٢٣٩٥، ٢٣٩٩، ٢٤٠١.

(٢) ينظر: ص٢٦٢٠، ٢٦٢١.

فلا نطول بذكر غيره إذ ليس في تعداد التعريف كبير فائدة»[1].

تعامله مع المصادر

بالتتبع والاستقراء توصلنا إلى أن تعامل التاج مع المصادر أخذ منهجاً معيناً يمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

أولاً: الدقة في النقل، والتحري فيه.

لقد كان رحمه الله دقيقاً في النقل ومتحرياً فيه، فهو على سبيل المثال في مبحث صيغة (افعل) هل هي للوجوب أم للندب أم للوقف؟

يقول التاج: «واعلم أنّ الآمدي لم ينقل في الإحكام عن إمام الحرمين إلا الوقف، كما هو الواقع، وهذه عبارة الآمدي، ومنهم من نفى احتمال التكرار، وهو اختيار أبي الحسين البصري وكثير من الأصوليين، ومنهم من توقف في الزيادة ولم يقض فيها بنفي ولا إثبات، وإليه ميل إمام الحرمين والوقفية انتهى. **والظاهر أن نسخة الأصفهاني، وكذلك هذا الشارح من الإحكام سقيمة سقط منها من قوله: ومنهم إلى قوله إليه، وهذه النسخة التي عندي صحيحة مقروءة على الآمدي وعليها خطه**»[2].

فمن خلال هذه العبارة التي ينبغي أن تكتب بحروف من نور والتي تبين منهج السلف في تحقيق النصوص وتوثيقها، لترد على المدارس الحديثة الغربية والتي تتبجح من أنها السباقة إلى علم التحقيق والتوثيق.

---

(١) ينظر: ص٢٨٦٣ - ٢٨٦٤.

(٢) ينظر: ص١٠٩٦ — ١٠٩٧.

مثال آخر: يقول التاج في الإبهاج: «...وابن العارض هذا بالعين المهملة بعد ألف ثم راء ثم ضاد معجمة، واسمه الحسين بن عيسى معتزلي قدري له كتاب في أصول الفقه سماه النكت، ورأيت عبارته تشابه عبارة المحصول، فعلمت أن الإمام كان كثير المراجعة له، وقد انتخب ابن الصلاح هذا الكتاب، ووقفت عليه بخط ابن الصلاح، وكتبت منه فوائد، وقد وهم القرافي فظن أن العارض قد وقع في المحصول مصحفا. قال: وإنما هو ابن القاص بالقاف والصاد المهملة المشددة وهو الشيخ أبو العباس أحد أئمة الشافعية، هذا كلام القرافي، وهو وهم..»[1].

فانظر إلى الدقة في التحري بين النسخ وعمق الاطلاع.

ثانياً: الإكثار من الاقتباس من مصادر أصولية بالنص أحيانا وبالمعنى.

كان رحمه الله لا يذكر مسألة من مسائل أصول الفقه، إلا ويوثقها من مصادرها الأصلية، ولكون كتاب المنهاج شديد الصلّة بمحصول الرازي، والحاصل لتاج الدين الأرموي، والتحصيل لسراج الدين الأرموي، فلا تفوته الفرصة أن يبين مدى متابعة البيضاوي لهم أو مخالفته، فكان يوثق من هذه الكتب، ومن مصادره التي استقى منها شرحه، فيأخذ منها نصاً، وأحيانا بالمعنى، وإذا نقل بالنّص يقتبس الجملة أو الفقرة ذات العلاقة بالمسألة التي هو بصدد شرحها. وقد يقتبس الصفحات الكثيرة إذا كان المقام يقتضي ذلك.

---

(١) ينظر: ص١٤٦١ – ١٤٦٢.

والملاحظ أنّ جلّ اقتباسه من كتاب الصفي الهندي، فلا يكاد يخلو موضع من موضوعات الكتاب إلا ويقتبس فيه من كتاب النهاية للصفي الهندي، بل نكاد نجزم أنه ينقل منه إما عن حفظ وإما نقلاً حرفياً من كتابه، وقد ظهر ذلك واضحاً في صياغة المسائل ودون العزو أحياناً. وقد أحصينا تكرر ذكر صفي الهندي في الكتاب، وقد اقتصرنا على إحصاء ذكر صفي الدين من كتاب القياس إلى نهاية الكتاب فوجدناه يزيد عن الثلاثين مرة بقليل، كما أنه يأتي في الدرجة الثانية من حيث النقل كتاب التلخيص لإمام الحرمين لخص فيه كتاب التقريب والإرشاد للباقلاني. وقد أحصينا تكرره في النقل عنه في هذا القدر أيضاً، فألفيناه يزيد عن العشرين مرة.

الأمثلة:

مثال على مطابقة المصنف للرازي «ما ذكره المصنف وهو الذي أبداه الإمام في المعالم»[1].

مثال على النقل بالنص: «وعبارة التحصيل: لو قال ذلك لم يكن قياسا...»[2].

مثال آخر: «وعبارة الآمدي نحو عبارة المصنف فإنه قال: يكون التحريم ثابتاً في كل الصور بجهة العموم....»[3].

---

(١) ينظر: ص٢١٥٨.

(٢) ينظر: ص٢٢٣٠.

(٣) ينظر: ص٢٢٣٠.

مثال على النقل والاقتباس للنصوص الطويلة: ينقل عن إمام الحرمين.

يقول التاج: «ولإمام الحرمين هنا كلمات لا نرى إخلاء هذا الشرح منها فلا يطولنّ الفصل عليك ففيه كبير فائدة. قال: قد يظن الظان في هذا المقام .....واعتقاد المشبه والمشبه به في صورة واحدة.

وهو بليغ لا يخدشه شيء وهذا ما أردنا إيراده من كلام إمام الحرمين»(١). وهذا الاقتباس من البرهان من ٢/١٠١٥-١٠١٧. أي ما يزيد عن ثلاث صفحات.

مثال آخر على الاقتباس الطويل أيضاً من كتاب الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للقرافي تحقيق أبوغدة: ٩٥-١١٨. مع شيء من التصرف، حين قال: «وستعرف الفرق بينهما بسؤال نذكره من كلام القرافي ...فلا يتوقف على إذن إمام»(٢).

مثال آخر على النقل عن الغزالي في المستصفى ٢/٣٣٦ – ٣٤١. فقد نقل عما يزيد عن أربع صفحات: في معرض الكلام عن النقض كقادح من قوادح العلّة: «وأمّا حجّة الاسلام الغزالي فذهب إلى مقالة تاسعة فقال: تخلف الحكم عن العلّة... إلى قوله: فيفيد المِلْكَ بأنْ سَرَقَ نصاباً كاملاً من حرز لا شبهة له فيه»(٣).

---

(١) ينظر: ص٢٤٨٦ – ٢٤٩٣.

(٢) ينظر: ص٢٨٧٥ – ٢٨٧٧.

(٣) ينظر: ص ٢٤١٧ – ٢٤٢٣.

وبعض الأحيان يصرح بكثرة النقل من بعض المصادر الأصولية، فانظر إليه حين يقول: «واعلم أن هذا الكتاب قد أكثرنا النقل عنه في هذا الشرح، وهو كتاب التلخيص لإمام الحرمين، وذلك حيث يظهر لي أن الكلام من إمام الحرمين، فإنه زاد من قبل نفسه أشياء على طريقة المتقدمين في الاختصار، وتارة أعزوه إلى مختصر التقريب وهو حيث لا يظهر لي ذلك، والذي أقوله ليستفاد أني على كثرة مطالعتي في الكتب الأصولية للمتقدمين والمتأخرين، وتنقبي على ثقة بأني لم أر كتاباً أجل من هذا التلخيص لا لمتقدم ولا لمتأخر، ومن طالعه مع نظره إلى ما عداه من المصنفات علم قدر هذا الكتاب»[1].

ثالثاً: مقارنة موجزة بين شرح التاج وكتاب الصفي الهندي.

لو تصفحنا أي باب من أصول الفقه في كتاب الإبهاج وحاولنا أن نجري مقارنة بينه وبين كتاب النهاية للصفي الهندي، فلن نجد فرقاً كبيراً في العبارة، اللهم إلا تقديم أو تأخير في الفقرات، أو تصرف في اللفظ والمؤدى واحد، وهذا لا يخدش في التاج، فهو قد عرف بسيلان في الذهن، والموسوعية في المعرفة، فقد يكون كتبها من حفظه، وقد ورد عنه في معرض الكلام عن أحد العلماء شيء من هذا «...الحسين بن عيسى معتزلي قدري له كتاب في أصول الفقه سماه النكت ورأيت عبارته تشابه عبارة المحصول، فعلمت أن الإمام كان كثير المراجعة له»[2] ولا تكون هذه

---

(١) ينظر: ص١٢٧٢ – ١٢٧٣.

(٢) ينظر: ص١٤٦١ – ١٤٦٢.

دعوى تشابه الكتابين في العبارة صادقة، إلا إذا اكتنفها من القرائن والأدلة التي لا تقبل النقض. ومن الأمثلة على ذلك لا على سبيل الحصر فنأخذ مثالا من أول الكتاب وآخر من وسطه وثالث من أخيره.

مثال من أول الكتاب: في مبحث جريان القياس في الحدود، والكفارات: يقول التاج: «البحث الثاني: أنَّه يجري في الحدود والكفارات والرخص والتقديرات خلافا لأبي حنيفة.

لنا أنّ أدلة القياس دالة على جريانه في الأحكام الشرعية مطلقاً من غير فصل بين باب وباب ويخص المسألة ما روي أنّ الصحابة اجتهدوا في حدّ شارب الخمر فقال علي: أراه ثمانين؛ لأنّه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى وحدّ المفتري ثمانون، وهذا قياس في الحدود ثم لم ينكر عليه فكان إجماعاً.

إن قلت: إن أردتم أنَّ أدلة القياس تدل على جريانه في الأحكام الشرعية مطلقاً سواءً أوجدت الأركان والشرائط أو لم توجد فهو ممنوع ظاهر الفساد...»[1].

ويقول الصفي الهندي في النهاية: «ذهب أصحابنا وأكثر الأئمة إلى أنه يجوز إثبات الحدود والكفارات، والرخص، والتقديرات بالأقيسة خلافاً لأبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله.

لنا: ما تقدم من أدلة القياس، فإنه يدل على جواز القياس في الأحكام

(١)ينظر: ص٢٢٥٠ - ٢٢٥١.

الشرعية مطلقاً من غير فصل بين باب وباب، فالتخصيص بباب دون باب خلاف لإطلاق تلك الأدلة فكان باطلاً.

ويخص المسألة ما روى أنّ الصحابة اجتهدوا في حد شارب الخمر فقال علي ﷺ: أراه ثمانين، إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري ثمانون، ولا شك أنه قياس...

فإن قيل: تدعي أن تلك الأدلة تدل على جريان القياس في الأحكام الشرعية مطلقاً سواء وجدت أركان القياس وشرائطه، أو لم توجد، أو تدعي أن دلالتها عليها إنما هي عند حصول الأركان والشرائط، والأول ظاهر...»[1].

مثال من وسط الكتاب: في الكتاب الخامس في دلائل اختلف فيها.

يقول التاج في الإبهاج: «هذا الكتاب معقود للمدارك التي وقع الاختلاف بين المجتهدين المعتبرين في أنّها هل هي مدارك للأحكام أم لا؟ أولها: الأصل في المنافع الإذن وفي المضار المنع خلافا لبعضهم. وهذا بعد ورود الشرع فأمّا قبله، فقد تقدّم تقريره في مسألة حكم الأشياء قبل ورود الشرع»[2].

يقول الصفي الهندي في النهاية «الكلام في المدارك التي اختلف المجتهدون في أنها هل هي مدارك للأحكام أم لا؟ وفيه مسائل: المسألة

---

(١) ينظر: النهاية للهندي: ٣٢٢٠/٧.

(٢) ينظر: ص٢٥٩٩ - ٢٦٠٠.

الأولى: في أن الأصل في المنافع الإذن، وفي المضار المنع خلافاً لبعضهم. هذا بعد ورود الشرع أما قبله فلا سواء كان ذلك بطريق اليقين، أو غيره على ما تقدم تقديره في مسألة حكم الأشياء قبل ورود الشرع...»[1].

مثال من آخر الكتاب: من كتاب الاجتهاد (المجتهد فيه)

قال التاج في الإبهاج: «ذهب طوائف من المسلمين على طبقاتهم إلى أنه ليس كل مجتهد في الأصول مصيباً، وأن الإثم غير محطوط عنه إذا لم يصادف ما هو الواقع وإن بالغ في الاجتهاد والنظر سواء كان مدركه عقلياً كحدث العالم وخلق الأعمال أو شرعياً لا يعلم إلا بالشرع ...»[2].

قال الصفي الهندي في النهاية: «ذهب الجماهير إلى أنه ليس كل مجتهد في الأصول مصيباً، وأن الإثم غير محطوط عنه إذا لم يصادف ما هو الواقع وإن بالغ في الاجتهاد والنظر سواء كان مدركه عقلياً كحدوث العالم وخلق الأعمال أو شرعياً لا يعلم إلا بالشرع ...»[3].

نكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة للدلالة على الباقي.

رابعاً: الاقتباس من المصادر بالواسطة.

نرى التاج أحياناً ينقل بالواسطة، ولا ينقل مباشرة من المصدر، إما لعدم توفره، أو لدقة نقل الواسطة عن الأصل. ويظهر ذلك جلياً على وجه

---

(١) ينظر: النهاية للهندي: ٣٩٣٨/٨.

(٢)نظر: ص٢٩٠٩ - ٢٩١٠.

(٣)ينظر: النهاية للهندي: ٣٨٣٧/٨.

الخصوص في نقله آراء الحنفية في الأصول كآراء الكرخي مثلاً، وكان الأولى أن تنقل من مصادر أصول الحنفية، لكنه فضل نقلها من كتب أخرى ككتب الشافعية كأن يعزو لنهاية الصفدي أو الإحكام للآمدي أو المستصفى للغزالي ويتضح ذلك بالأمثلة التي سأوردها.

يقول التاج في الإبهاج في معرض كلامه عن الطرد كقادح من قوادح العلّة: «وقال الكرخي: هو مقبول جدلاً، ولا يسوغ التعويل عليه عملاً ولا الفتوى به...»[1].

ويقول أيضاً: «وأما نفس الأمر فمنعه الكرخي والإمام أحمد وجمع من فقهائنا وجوزه الباقون، هذا هو النقل المشهور»[2].

وهذا مثال آخر: يقول التاج في الإبهاج: «ونقله الشيخ أبو إسحاق عن أكثر أصحابنا وأبي حنيفة، وأكثر الفقهاء، وعن اختيار شيخه القاضي أبي الطيب، والشيخ أبي حامد، ونقل بعض الشارحين تبعاً للأصفهاني في شرح المحصول عن الآمدي أنه قال: وإليه ميل إمام الحرمين والواقفية، ثم خَطَّأ هذا الشارحُ الآمديَّ بأنّ إمام الحرمين إنما يرى الوقف ولا يقضي في الزيادة بنفي ولا إثبات»[3].

مثال آخر: «وقد صرح بجواز مثل هذا الماوردي كما نقله الرافعي فقال: ولو ولي الإمام رجلاً وقال: لا تحكم في قتل المسلم الكافر والحر

---

(١) ينظر: ص٢٣٩٢.

(٢) ينظر: ص٢٦٩٨.

(٣) ينظر: ص١٠٩٥ - ١٠٩٦.

العبد جاز، وقد قصر عمله على باقي الحوادث...»[1].

فمن خلال هذا النّص نلاحظ أنه لم يرجع إلى المصادر الأساسية لـرأي الآمدي بل اكتفى بنقل رأيه من مصادر أخرى بالواسطة وهي بعض شراح المحصول تبعا للأصفهاني وهو أحد شارحي المحصـول أيضـا، كمـا أن رأي إمام الحرمين، كان المفروض أن يرجع إليـه في مصـادره الأصلية كالبرهـان والتلخيص وغيرهما.

خامساً: ذكر الأقوال التي أخذها شفاهاً عن والده وبعض شيوخه.

من خلال تتبع كتابه الإبهاج، يتضح أنه ينقل بعض الآراء مشافهة، تلقاها من بعض شيوخه، وعلى رأس هؤلاء والده رحمه الله، وشيخه الذهبي.

أما والده فالنصوص كثيرة في الكتاب، ونكتفي ببعض الأمثلة خشية الإطالة.

مثال: «قال والدي أيـده الله: والـذي يظهـر لنـا ويكـاد يقطـع بـه أن الاتفـاق فيـه خـير مـن الاخـتلاف، لكـن هـل نقـول الاخـتلاف ضـلال كالقسمين المذكورين أو لا؟. كلام ابن حزم ومن سلك مسلكه ممـن منـع التقليد يقتضي أنه مثلـهما. وأمـا نحـن فإنـا نجـوز التقليـد للجاهـل والأخـذ بالرخصة من أقوال العلماء بعض الأوقات عند مسيس الحاجة من غير تتبـع الرخص، ومن هذا الوجه يصـح أن يقـال، الاخـتلاف رحمـة، إذ الرخصـة

---

(١) ينظر: ص٢٩٢٨.

رحمة»[1].

مثال آخر: «وقد مال والدي أيده الله تعالى إلى ترجيح الأول، وقال: لم أجد في كلام الأصحاب إلى الآن ما أعتضد به في الجزم بأحدهما غير أني أميل إلى عدم النقض، وأن الحاكم لا يحكم ولا ينتقض إلا بمستند...»[2].

مثال آخر: «قال والدي أيده الله: والقرآن دالٌّ على أنّ الرحمة تقتضي عدم الاختلاف»[3].

مثال آخر: «ومازال الشيخ الإمام الوالد والدي رحمه الله أطال الله عمره يستشكل الجمع بين كلاميهما إلى أن جاء ببديع من القول فقال: في مختصر لطيف كتبه على هذا السؤال وسماه (ورد العلل في فهم العلل) ولا تناقض بين الكلامين؛ لأنَّ المراد أنّ العلّة باعثة على فعل المكلف مثاله: حفظ النفوس فإنّه علّة باعثة على القصاص الذي هو فعل المكلف المحكوم به من جهة الشرع فحكم الشرع لا علّة له ولا باعث عليه؛ لأنّه قادرٌ أنْ يحفظ النفوس بدون ذلك، وإنما تعلق أمره بحفظ النفوس وهو مقصود في نفسه، وبالقصاص لكونه وسيلة إليه فكلا المقصد والوسيلة مقصود للشرع، وأجرى الله تعالى العادة أنّ القصاص سبب للفظ فإذا فعل المكلَف من السلطان والقاضي وولي الدم القصاص وانقادَ إليه القاتل امتثالاً لأمر الله به ووسيلةً إلى حفظ النفوس كان لهم أجران أجرٌ على القصاص وأجرٌ على

---

(١) ينظر: ص٢٢٢١.

(٢) ينظر: ص٢٩٣٨.

(٣) ينظر: ص٢٢٢٠.

حفظ النفوس، وكلاهما مأمورٌ به من جهة الله تعالى»[١].

أمثلة أخرى عن شيخه الذهبي:

مثال: «وقد استدل على ذلك بما روي أنَّه ﷺ قال لأبي بكر ﵁: «لا تقض في شيء واحد بحكمين مختلفين» وهذا الحديث لا أعرفه وقد سألت عنه شيخنا **الذهبي** فلم يعرفه»[٢].

مثال آخر: «واستدل المصنف على ذلك مما روي من قوله ﷺ: «نحن نحكم بالظاهر والله متولي السرائر» وهو حديث لا أعرفه، وقد سألت عنه شيخنا أبا عبدالله **الذهبي** فلم يعرفه»[٣].

سادساً: منهجه في النقد.

قليل هم العلماء الذين يتميزون بشخصية في النقل فلا ينقلون كل ما جاء بين أيديهم من آراء، بل يتخيرون بينها، وإن نقلوا أمراً لا يرضونه بيّنوا وجهة نظرهم فيما نقلوه، وكذلك كان شيخنا تاج الدين السبكي كان إماماً في النقد، بل مدرسة من مدارس النقد الأصولي، فلا يكاد يمر عليه رأي لا يرتضيه، إلا علّق عليه وبيّن وجه الخلل فيه، وفي كل ذلك كله، لا ينسى أدب المناظرة، والتخلق مع العلماء، انظر إليه حين يقول: «... والأدب مع الشيخ عز الدين الاقتصار على جوابه»[٤]. ويقول أيضاً:

---

(١) ينظر: ص٢٢٨٧ - ٢٢٨٨.

(٢) ينظر: ص٢٧٠٤.

(٣) ينظر: ص٢٦٢٣ - ٢٦٢٤.

(٤) ينظر: ص١٢٥٩.

«وإمام الحرمين أجلّ من أن يصادم كلامه بكلمات أمثالنا، ولكنا نقول على جهة الاستشكال دون المناظرة ...»[1].

وأوَّل من تعرض لكثرة النقد، وعدم الرضا عن بعض آراءه أو ترجيحاته هو الإمام البيضاوي صاحب المتن الذي شرحه.

فنذكر بعض الأمثلة التي وردت أثناء شرحه من الكتاب كله.

مثال: «وقوله «مطلقاً» عبارة ركيكة وليس المراد حقيقة المطلق بل أنه عام ينطلق على الصور، ولو قال يدل مطلقا عموماً لكان أحسن لا سيما وقد قال بعد ذلك خصوصاً»[2].

مثال: «اللائق بهذه المسألة [أي مسألة نسخ بعض القرآن] أن تذكر في الفصل التالي الذي أودعه ما ينسخ وما لا ينسخ»[3].

مثال: «...والمصنف عبر عنها بنسخ الوجوب قبل العمل، وهذا يوهم اختصاص المسألة بالوجوب، وليس كذلك. والتعبير الأول غير واف بالمقصود أيضاً؛ لأنه لا يتناول ما إذا حضر وقت العمل به لكنه لم يمض مقدار ما يسعه وهذه الصورة من صور النزاع .... ولو عبر عنها بنسخ الشيء قبل مضي مقدار ما يسعه وقته لتناول جميع صور النزاع من غير شك»[4].

---

(١) ينظر: ص٢٤٣٤.

(٢) ينظر: ص١٦٠٩. وعبارة المتن: «لنا مطلقاً قوله تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾...».

(٣)ينظر: ص١٦٤٨.

(٤) ينظر: ص١٦٦٠.

مثال عن نقد تعريفات البيضاوي (تعريف الإجماع): «وفي التعريف نظر من جهة إشعاره بعدم إنعقاد الإجماع إلى يوم القيامة، فإن أمّة محمد ﷺ جملة من اتبعه إلى يوم القيامة، ولم يقل بذلك أحد من المعترفين بالإجماع، فكان ينبغي تقييده بعصر من الأعصار»[1].

مثال آخر: «وقد أهمل المصنف من شروط الفرع كونه حكمه مماثلاً لحكم الأصل إما نوعاً كقياس وجوب القصاص في النفس في صورة القتل بالمثقل على وجوبه فيها في القتل بالمحدد، أو جنساً كإثبات ولاية النكاح على البنت الصغيرة بالقياس على إثبات الولاية في مالها...»[2].

مثال آخر: «كذا حكى المصنف هذا المذهب، وهو وهْمٌ، وإنما هذا قول من مسألة أخرى وهي أنه هل يجوز للعالم تقليده؟»[3].

مثال أخير على نقده من الناحية المنهجية، وكأن لجان المناقشة في عصرنا، يحاكون ما كان عليه العلماء في نقد بعضهم بعضاً.

يقول مخاطباً البيضاوي: «لك هنا مناقشتان:

إحداهما: كان من حسن الوضع تأخير هذا الباب عن الذي بعده، وهو الثالث من شرائط الإجماع.

---

(١) ينظر: ص٢٠٢٤. وتعريف البيضاوي للإجماع: «الإجماع وهو اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور».

(٢) ينظر: ص٢٥٩٠.

(٣)ينظر: ص٢٦٧٥.

والثانية: أن الإجماع شيء واحد، ليس تحته أنواع، لكنه أراد الأنواع ما لا يكون إجماعاً عند طائفة دون آخرين، وهو إجماع بالاتفاق....»[1].

أما نقده للأصوليين غير البيضاوي أثناء الشرح فأورد له هذه الأمثلة:

مثال: نقده للقاضي في مختصر التقريب: «قال القاضي في مختصر التقريب: ثم إن ابن عباس كان ابن سبع لما توفي رسول الله ﷺ وما بلغ ابن الزبير أيضاً حلمه في حياته.

قلت: هذا وهم كان ابن عباس لما توفي رسول الله ﷺ ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل ابن عشر وهو ضعيف، وقيل ابن خمس عشرة ورجحه أحمد بن حنبل، وأما ابن الزبير فإنه ولد بعد عشرين شهراً من الهجرة فيصح ما ذكره القاضي من أنه لم يبلغ الحلم في حياة النبي ﷺ»[2].

مثال آخر لنقده لإمام الحرمين وقلة بضاعته في الحديث: «وقد قال في البرهان أيضاً أنّ الشافعي رضي الله عنه احتج ابتداءً على إثبات القياس بحديث معاذ يعني هذا.

قال: والحديث مدّون في الصّحاح متفق على صحّته لا يتطرق إليه تأويل.

قلت: وهذا عجيب من إمام الحرمين فقد قال إمام الصناعة أبو عبدالله البخاري لا يصحّ هذا الحديث، وقال الترمذي ليس إسناده عندي

---

(١) ينظر: ص٢٠٧٥.

(٢) ينظر: ص١٨٩٨.

بمتصل»[1].

مثال آخر لنقده للغزالي وإمام الحرمين والقاضي الباقلاني، وقلة بضاعتهم في الحديث: «وقول الغزالي إن الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح متلقى من إمام الحرمين، فإنه قال: هذا لم يصححه أهل الحديث، وإمام الحرمين تلقى ذلك من القاضي أبي بكر فإنه قال في مختصر التقريب: هذا الحديث ضعيف غير مدون في الصحاح، وهذا باطل، فإن الحديث ثابت صحيح مدون في البخاري ومسلم»[2].

مثال على نقده بعض شرَّاح المنهاج كالعبري والجاربردي: «واعلم أن ظاهر إيراد المصنف يفهم أن هذا الدليل الذي أجاب عنه دليل للمانع مطلقاً، وعلى ذلك قرره العبري والجاربردي وليس كذلك بل هي حجة أبي الحسين كما قلناه، وبه صرح الإمام»[3].

مثال آخر في نقده للرازي في المحصول «وقد وقع في المحصول بدل القاضي أبي حامد المروزي الشيخ أبو حامد الإسفراييني وكأنه اشتبه أبو حامد بأبي حامد، ووقع فيه الجزم بأن المواضع سبعة عشر وهو وَهْمٌ والذي نقله الشيخ أبو إسحاق ما ذكرناه»[4].

مثال آخر على نقده للرازي: «حفظ الراوي، وقد أطلقه وهو يحمل

---

(١) ينظر: ص٢١٩٦.

(٢) ينظر: ص٩٧٥ - ٩٧٦.

(٣)ينظر: ص١٦٢٠.

(٤) ينظر: ص٢٧٠٧.

أمرين كلاهما حق معتبر، أحدهما: أنْ يكون قد حفظ لفظ الحديث، واعتمد الآخر على المكتوب فالحافظ أولى؛ لما لعلّه يعتور الخطّ من نقص وتغيير. قال الإمام: وفيه احتمال. قلت: وهو احتمال بعيد. وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّه لا يحتج برواية من يعول على كتابه»[1].

ولعلنا بذكر هذه الأمثلة نكون قد أحطنا ببعض الجوانب من نقده لمن سبقوه، وجئنا بنبأ عن هذه النقطة، ومن أراد المزيد، فعليه الرجوع إلى شرحه، فهو مشحون بآرائه النقدية.

تعامله مع المسائل الأصولية والقواعد الفقهية

اهتم التاج اهتماماً بالغ النظير بالمسائل الأصولية لا من حيث الشرح والتوضيح فحسب، بل حقق المسائل وأماط اللثام عن الكثير من الفوائد، ويمكن تبيين ذلك في النقاط التالية:

العناية بتقسيم الموضوع

لا يمر موضوع من الموضوعات إلا ويقدم له بمقدمة أو تمهيد يبين فيه خلاصة الموضوع، وتقسيماته، ولو أخذنا أي موضوع دون أن نختار، نجد أنفسنا أمام منهج لم يحد عنه صاحبه قدر أنملة في طرحه لهذه الموضوعات، والمثال أحسن دليل على ما ادعيته:

مثال: يقول التاج في الإبهاج: «أركان القياس أربعة، الأصل، والفرع، والجامع بينهما، وحكم الأصل، وأما حكم الفرع فهو حكم

(١) ينظر: ص٢٧٧١ - ٢٧٧٢.

الأصل بالحقيقة، وإن كان غيره باعتبار المحل فلذلك لم تكن الأركان خمسة، وقول الآمدي: حكم الفرع ثمرة القياس وليس ركناً منه لأنَّ الحكم في الفرع متوقف على صحة القياس، فلو كان ركناً منه لتوقف على نفسه، مدخول، فإن المتوقف على صحة القياس هو العلم بثبوت الحكم في الفرع الذي هو ثمرة القياس، لا نفس حكم الفرع، ثمّ إنّ المصنف اكتفى بتعريف الحكم في أوّل الكتاب عن إعادته هنا»[1].

مثال آخر: «إنما أفرد بيان العلّة بفصل مقدّم على بيان الأصل والفرع ومتعلقاتهما لكثرة تشعب الآراء عندها وعِظَم موقعها ولتشتت المباحث فيها.

قد اختلفت مقالات الناس في تفسيرها على مذاهب:

الأول: وبه جزم المصنف واختاره الإمام، وأكثر الأشاعرة أنّها المعرِّف للحكم، وقد يقال: العلامة، والأمارة....»[2].

مثال آخر: «هذا مبدأ القول في الأمور المبطلة للعلية وهي ستة: النقض، وعدم التأثير، والكسر والقلب، والقول بالموجب، والفرق.

الأول: النقض: وهو عبارة عن إبداء الوصف الذي ادّعى المستدل حجّة عليته في بعض الصور مع تخلف الحكم عنه فيها وربما يعبر عنه المعبرون بتخصيص العلّة.

---

(١) ينظر: ص٢٢٧٣ - ٢٢٧٤.

(٢) ينظر: ص٢٢٨٣ - ٢٢٨٤.

ومثاله قولنا: من لم يبيت النّية يعرى أوّل صومه عنها، فلا يصح؛ لأنَّ الصوم عبارة عن إمساك النّهار جميعه مع النية، فيجعل العراء عن النيّة في أوّل الصّوم علّة بطلانه...

الكلام في النقض من عظائم المشكلات أصولاً وجدلاً، ونحن نتوسط في النقض، فلا نسهب ولا نوجز بل نأتي بالمقنع، فقول: ...»[1].

مثال آخر: «الأحكام الكلية للتراجيح هي الأمور العامة لأنواعها التي لا تخص فرداً منها. والباب مشتمل على مقدمة معرفة لماهية الترجيح وأربع مسائل.

وقد عرّف الترجيح بأنّه: تقوية إحدى الأمارتين على الأخرى ليعمل بها أي بالأمارة التي قويت، وهو مأخوذ من الإمام إلا أنّ الإمام أبدل الأمارتين بالطريقين

وما فعله المصنف أصرح بالمقصود، إذ يمتنع الترجيح في غير الأمارتين، والإمام قال ليعلم الأقوى فيعمل به. وحذف المصنف لفظة العلم وهو حسن، إذ يكتفى في الترجيح بالظنّ»[2].

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة التي سردناها لبيان هذه النقطة فالمقام لا يتسع لأكثر من ذلك. وحتى يتسنى لنا أن نعرج على كل نقطة بالبيان والتوضيح.

---

(١) ينظر: ص٢٤٠٧ - ٢٤١٠.

(٢) ينظر: ص٢٧٢٣ - ٢٧٢٤.

بيان موضع الخلاف وتحرير محل النزاع فيه:

مثاله: «أول ما نقدمه تحرير محل الخلاف في المسألة فنقول: الحكم المستفاد من العباد على أمور أحدها: ما جاء على طريق التبليغ عن الله وهذا مختص بالرسل عليهم السلام، وهم مبلغون فقط. والثانية المستفاد من اجتهادهم وبذلهم الوسع في المسألة، وهذا من وظائف المجتهدين من علماء الأمة، وفي جوازه للنبي ﷺ خلاف...»[1].

مثال آخر: «الكلام في النقض من عظائم المشكلات أصولاً وجدلاً، ونحن نتوسط في النقض، فلا نسهب ولا نوجز بل نأتي بالمقنع، فنقول: اعلم أولاً أنّ الصور في النقض تسع؛ لأنَّ العلّة إمّا منصوصة قطعاً أو ظنّا أو مستنبطة، وتخلف الحكم؛ إمّا لمانع أو فوات شرط أو دونهما، فصارت تسعاً من ضرب ثلاثة في ثلاثة، فالقائل بأنّ النقض قادحٌ مطلقاً قائل به في التسع، ومقابله مانع في جميع ذلك ولنذكر صورها:

الأولى: القطعية المتخلف الحكمِ عنها لوجود مانع.

الثانية: القطعية المتخلف الحكمِ عنها لفوات شرط.

الثالثة: القطعية المتخلف الحكمِ عنها لا لمانع ولا لفوات شرط، وإنّما يكون ذلك بعض تعبدي أو إجماع مع عدم ظهور مانع أو شرط.

الرابعة والخامسة والسادسة الظنيّة كذلك.

السابعة والثامنة والتاسعة: المستنبطة كذلك.

---

(١) ينظر: ص٢٦٨٣.

وعلى الفقيه طلب أمثلتها وسنذكر في أثناء الفصل من أمثلتها الكثير إن شاء الله تعالى»[1].

مثال آخر: «والجواب: أنّه حينئذ لا يكون النّص على العلّة وحده هو المقيد للأمر بالقياس، بل التنصيص مع كون الأغلب عدم التقيد، والنّزاع إنما هو في أن التّنصيص وحده هل هو كافٍ؟»[2].

مثال آخر «واتفقوا على امتناعه أيضاً في أسماء الفاعلين والمفعولين وأسماء الصفات كالعالم والقادر؛ لأنها واجبة الاطراد نظراً إلى تحقق معنى الاسم، فإنّ العالم من قام به العلم، فإطلاقه على كلّ من قام به العلم بالوضع لا بالقياس، إذ ليس قياس أحد المسميين المتمثلين في المسمّى على الآخر بأولى من العكس وإنما النزاع في الأسماء الموضوعة للمعاني المخصوصة الدائرة مع الصفات الموجودة فيها وجوداً وعدماً كالخمر فإنّها اسم للمسكر المعتصر من العنب، وهذا الاسم دائرٌ مع الإسكار وجوداً وعدماً فهل يقاس عليه النبيذ في كونه مسمى بذلك الوصف لمشاركته في وصف الإسكار؟ وكإطلاق اسم السارق على النباش بواسطة مشاركته للسارق من الأحياء في أخذ المال على سبيل الخفية، واسم الزاني على اللائط لمشاركته بإيلاج فرج في فرج»[3].

مثال آخر: «واحتج القاضي بأن الشبه ليس مناسباً وغيرُ المناسب

---

(١) ينظر: ص٢٤١٠ - ٢٤١١.

(٢) ينظر: ص٢٢٢٩.

(٣) ينظر: ص٢٢٦٠ - ٢٢٦١.

مردود بالإجماع، فلا يعتبر.

وأجاب: بالمنع، فإنّ ما ليس بمناسب ينقسم إلى الشبه وغيره، والشبه غير مردود بالإجماع، **وهو محل النزاع**»[1].

مثال آخر: «ويلزم منه تقديمه على الدوران أيضاً عند من يقدم الدوران على المناسبة، **ثمّ محل الخلاف في غير المقطوع به**، فإنّ العمل بالمقطوع متعين وليس من قبيل الترجيح لما علم أنّ تقديم المقطوع على المظنون ليس من الترجيح في شيء وإنما **النزاع** في السبر المظنون في كل مقدماته»[2].

فمن خلال هذه النصوص يتبين مدى اهتمام السبكي بتحرير المسائل وبيان موطن الخلاف، ومحل النزاع بين العلماء في كل مسألة.

التنصيص على الرأي المختار

الإمام التاج السبكي، حباه الله بذهن وقّاد، وعقل جبار، فلم يقف عند الشرح وإيراد كلام العلماء، بل كان يختار بينها أحياناً، أو يختار رأياً خاصاً به، وقد عبّر عن ذلك بعبارات، أو بالأحرى مصطلحات مختلفة أبان من خلالها عن رأيه، وقد حاولنا أن نحصر هذه المصطلحات فوجدناها تنحصر فيما يلي: (**عندي، والصحيح، والحق عندي، قلت: وهذا حق، قلت وهذا تأويل حسن، قلت: ما نقله الغزالي فواضح، وهذا هو**

---

(١) ينظر: ص٢٣٧٠.

(٢) ينظر: ص٢٨٥١.

المختار، والمختار عندنا، وهو عندنا كلام جيد مرضي، وما ذكره حق متقبل، ونحن تابعناه على ما فعل، قلنا: الصحيح عندنا، وبه نقول، والذي يظهر لي.

ونذكر أمثلة على ذلك:

مثال: «**والحق عندي** جريان القياس فيها إنْ قلنَا برجوع السببية إلى الأحكام الشرعية على ما تقدم ذلك في أوائل الكتاب»[(١)].

مثال: «قال الهندي: وهذا الإشكال ضعيف جدًّا؛ لأنَّ المأخوذ في حدِّ القياس إنَّما هو الإثبات لا الثبوت الذي يترتب عليه، ونتيجة القياس، وهو الثبوت لا الإثبات.**قلت وهذا حقّ**»[(٢)].

مثال: «**قلت: وهذا تأويل حسن**، وهو أحسن مما نقله إمام الحرمين في النهاية عن الحليمي»[(٣)].

مثال: «**قلت: أما على ما نقله الغزالي فواضح**؛ لأنّه جعله من باب العموم»[(٤)].

مثال: «وقد صرح إمام الحرمين في كتاب الأساليب بأن السبر والتقسيم لا يحتج به إلا إنْ قام الدليل على أنّ الحكم معلل، وأنّ العلّة

---

(١) ينظر: ص٢٢٦٧.

(٢) ينظر: ص٢١٧٣.

(٣) ينظر: ص ٢٢١٩.

(٤) ينظر: ص ٢٢٢٥.

منحصرة في أحد أوصاف معينة ومتحدة، ثمّ يبطل ما عدا الوصف المدّعى علّة فيثبت حينئذ عليّة ذلك الوصف، **وهذا هو المختار**»[١].

مثال: «**والمختار عندنا** التوقف في حقّ الحاضرين»[٢].

مثال: «هذا تمام كلام الغزالي ﷺ، وهو عندنا كلامٌ جيدُ مرضيّ»[٣].

مثال: «وأطال القاضي في هذا الفصل **وما ذكره حق متقبل**»[٤].

مثال: «قلنا: **الصحيح عندنا** أنّ مسائل الربا شبهية والشبه على وجوه»[٥].

مثال: «وقد اختلف في هذا النوع واختار المصنف أنّه حجة تبعًا لتاج الدين صاحب الحاصل، وهو ما اختاره صفي الدين الهندي، وبه نقول»[٦].

مثال: «والذي يظهر لي إطلاق الجواز فإن حفظ الجَمْعِ العظيم الخارجِ عن حدِّ الحصر مع خطة الدّين وإعلاءِ كلمة الإسلام أهمّ في مقاصد الشرع من حفظ عشرة أنفس مثلا يصيرون مستأسرين تحت ذلّ الكفر»[٧].

---

(١) ينظر: ص ٢٣٨٩.

(٢) ينظر: ص ٢٨٩٧.

(٣) ينظر: ص٢٤٢٣.

(٤) ينظر: ص ٢٤٤٩.

(٥) ينظر: ص٢٥٤٩.

(٦) ينظر: ص٢٦٢١.

(٧) ينظر: ص٢٦٥٠.

هذه جملة التعابير والاصطلاحات التي كان جرى بها يراعه، ولنا وقفة أخرى في ترجيحاته عند الكلام عن استقلاليته، وترجيحاته بشيء من التفصيل.

اعتناؤه بالقواعد الفقهية المتعلقة بالقواعد الأصولية:

من ذلك قاعدة: الميسور لا يسقط بالمعسور.

تكلم التاج عن هذه القاعدة الفقهية من خلال القاعدة الأصولية: وجوب المقدمة، والتي يعبِّر عنها البعض بما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. يقول التاج معلقاً على كلام والده: «وأما قوله (أي: والده): إذا لم يجب الكل لعدم القدرة على الجزء يبقى وجوب ما سواه من الأجزاء فصحيح، ومستنده الحديث الذي أورده وهو القاعدة التي يذكرها الفقهاء: الميسور لا يسقط بالمعسور، وسنلتفت إن شاء الله في ذيل المسألة إليها»[1]. ثم تكلم عن هذه القاعدة وذكر سبع صور فقهية تندرج تحتها وأحال الباقي على كتابه «الأشباه والنظائر»[2].

وقاعدة إذا بطل الخصوص هل يبقى العموم؟

ذكر هذه القاعدة ضمن كلامه عن مسألة إذا نسخ الوجوب هل يبقى الجواز؟

قال التاج رحمه الله: «واعلم أن خلاف الأصوليين في هذه المسألة

---

(١) ينظر: ص٣٠٣.

(٢) ينظر: ص٣٢٦ – ٣٢٩.

يناظر اختلاف الفقهاء في أنه إذا بطل الخصوص هل يبقى العموم؟ وذلك فيمن صلى الظهر قبل الزوال فإنها لا تنعقد ظهراً، وفي انعقادها نفلاً هذا الخلاف. ويضاهيه مسائل» ثم ذكر ثمانية مسائل[1].

وقاعدة: أنَّ الشرع يعلّق الحِكَم على مظانها المنضبطة لا على أنفسها.

ذكر التاج هذه القاعدة ضمن كلامه عن مسألة: تكليف الغافل، حيث تلكم عن تكليف الصبي المميز وأن العقل لا يمنع من تكليفه، لتعقُّله، لكن الشارع لم يعلّق التكليف على تعقُّل الصبي؛ لكونه وصفاً غير منضبطٍ، فعلّق الحكم على الوصف المنضبط وهو البلوغ، مع أن خروج النطفة من حيث هو ليس هو مناط التكليف؛ إذ التكليف منوط بالعقل، لكن لما كان البلوغ مظنة العقل وكان وصفاً منضبطاً علّق الشارع الحكم به.

فتكلم التاج عند ذلك عن قاعدة: أن الشارع يعلّق الحِكَم (أي: المصالح) على مظانها (أي: أماكنها) المنضبطة لا على الحِكَم أنفسها، مع أنها هي مناط الحُكْم؛ لكنها لما كانت غير منضبطة لم يعلق الحُكم بها، ثم قال: «وفي الشريعة صور كثيرة تضاهي ذلك، بل ربما شذَّت الصورة عن الحكمة بحيث بقي الوصف فيها كضرب من التعبد، وفي ذلك فروع»، ثم ذكر ثلاثة فروع وأحال بالباقي على كتابه «الأشباه والنظائر»[2].

---

(١) ينظر: ص ٣٤٩ – ٣٥٣.

(٢) ينظر: ص ٤١٢ – ٤١٤.

وقاعدة: الإكراه يسقط أثر التصرف.

ذكر التاج هذه القاعدة الفقهية ضمن مسألة الإكراه وأنه قسمان: ملجئ يسقط به التكليف وغير ملجئ لا يسقط به التكليف. هذا كلام الأصوليين، على خلاف مذكور في المسألة. ثم قال التاج: «فإن قلت: قد قال الفقهاء: إن الإكراه يُسقط أثر التصرف.

قلت: لا يلزم من كونه مسقطاً أثر التصرف أن لا يُجامع التكليف، والضابط في خطاب المكره وتصرفاته، والجمع بين كلام الأصوليين والفقهاء فيه يستدعي مزيد بسط، ولعلنا نستقصي القول فيه في كتابنا «الأشباه والنظائر». على أن الفقهاء قد استثنوا مسائل من هذه القاعدة «ثم ذكر جملة من المسائل المستثناة وهي عشر مسائل»[1].

وقاعدة: أن ما ليس له حد في الشرع ولا في اللغة يرجع فيه إلى العرف.

ذكر هذه القاعدة ضمن كلامه عن مسألة: دلالة الخطاب على الحكم بمنطوقه: يحمل أولاً على المعنى الشرعي، ثم على المعنى العرفي، ثم اللغوي، ثم المجازي.

قال التاج: «واعلم أنه من القواعد المشتهرة على ألسنة الفقهاء: أن ما ليس له حد في الشرع ولا في اللغة يرجع فيه إلى العرف. قال: والدي في «شرح المهذب»: وليس هذا مخالفاً لما يقوله الأصوليون من أن لفظ الشارع

---

(١) ينظر: ص ٤١٨ — ٤٢١.

يحمل على المعنى الشرعي، ثم العرفي، ثم اللغوي. قال: والجمع بين الكلامين أن مراد الأصوليين: إذا تعارض معناه في العرف ومعناه في اللغة قدَّمنا العرف. ومراد الفقهاء: إذا لم يُعرف حدُّه في اللغة فإنا نرجع فيه إلى العرف، ولهذا قالوا: كل ما ليس له حدٌّ في اللغة، ولم يقولوا: ليس له معنى فالمراد أن معناه في اللغة لم ينصُّوا على حده بما يبيِّنه، فيُستْدل بالعرف عليه»[1].

وقاعدة: الشيء يُغتفر إذا كان تابعاً ولا يُغتفر إذا كان أصلاً.

ذكر التاج هذه القاعدة الفقهية عند كلامه عن الطرق التي يُعرف بها النسخ، ومن جملتها: أن يقوله الراوي: هذه الآية نزلت قبل تلك الآية، أو هذا الحديث سابق على ذلك الحديث. فإنه يقبل قوله وإن كان قبول قوله يقتضي نسخ المتواتر؛ وذلك لأن النسخ حصل بطريق التبع، والشيء يُغتفر إذا كان تابعاً ولا يُغتفر إذا كان أصلاً. ثم ذكر الفروع الفقهية المبنية على هذه القاعدة[2].

وقاعدة: أن الصبي هل هو مسلوب العبارة بالكلية؟

ذكر هذه القاعدة الفقهية في ضمن كلامه عن شروط الراوي المقبول روايته والتي منها التكليف، فخرج الصبي مميِّزاً كان أو غير مميِّزٍ، فتكلم عن القاعدة في الصبي هل هو مسلوب العبارة أو غير مسلوب؟ ثم ذكر الفروع المبنية على هذه القاعدة[3].

---

(١) ينظر: ص ٩٣٤.

(٢) ينظر: ص ١٧٤٢ – ١٧٤٦.

(٣) ينظر: ص ١٨٩٢ – ١٨٩٧

تفصيل بعض المسائل تفصيلاً لا تجده عند غيره:

انظر مسألة تكليف الكفار بالفروع[1] فقد فصَّلها تفصيلاً حسناً، ووضَّح إشكالات وأجاب عنها بما لا تجده عند غيره والزركشي رحمه الله على سعة اطلاعه واستقصائه في كتب الأصول كثير الاعتماد على كتب ابن السبكي فينقل ترتيبه في المسألة ويستفيد من تحرراته وتدقيقاته دون عزوٍ إليه، وقد استقرينا ذلك في «البحر المحيط» وأشرنا إلى ذلك مراراً في بعض المسائل في التحقيق، والقصد بهذا هنا هو أن عدم عزو الزركشي الفائدة إلى ابن السبكي يدل على أنه لم يجدها عند غيره وإلا لصرَّح بذلك كما هي عادته المتضحة بالاستقراء، ولا أشك أن الزركشي — رحمه الله — على جلالة قدره عالة على التاج في كثير من الفرائد والفوائد التي يسطرها في كتابه، هذا بالاستقراء فقط من خلال «الإبهاج»، ولم نستقرئ من خلال كتابه الآخر «رفع الحاجب»؛ إذ لم يكن متوفراً لدينا أثناء التحقيق، وبالجملة فالتاج — رحمه الله — عمدة لمن بعده، استفاد منه الجميع، ونهل من مؤلفاته سائر المحققين من مختلف المذاهب، لا يشك في هذا مَنْ عنده معرفةٌ بكتب الأصول وبكتب التاج رحمه الله.

ذكره لأمور لم يُسبق إليها:

يشير التاج — رحمه الله — إلى بعض الفوائد التي ينفرد بها ولا يعلم أحداً سبقه إليها، هذا عدا انفراده ببعض النقول والفوائد التي ينفرد بنقلها

---

(١) ينظر: ص ٤٤٩ — ٤٧٢.

عن والده، وهي من الدرر والكنوز التي لا يعملها لغيره وإلا لأشاد بذلك، والتقي مشتهرٌ بذلك بين العلماء، كما قال السيوطي – رحمه الله – عنه.

فمما أشار إليه أنه لم يسبق إليه ولا نعلم أنه استُدرك عليه ادعاؤه – قوله: «ومن الدلائل الواضحة على أن الكافر مكلَّف بالفروع مطلقاً ولم أرَ مَنْ ذكره – قولُه تعالى: ﴿الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[1] إذ لا يمتري الفهم في أن زيادة هذا العذاب إنما هو بالإفساد الذي هو قَدْرٌ زائدٌ على الكفر، إما الصدُّ أو غيره»[2].

وفي مسألة مفهوم الصفة وأن مَنْ قال به اشْتَرَط فيه أن لا يظهر لتعليق الحكم على الصفة فائدة أخرى غير التعليق بها، كأن يكون ذِكْر الصفة خارجاً مخرج الغالب فلا يكون المتكلم ذاكراً الصفة بقصد التعليق، بل حكايةً للحال، أو أن يكون ذِكْر الصفة بسبب سؤال سائل عن حكم إحدى الصفتين، فَيَرِد الجواب على السؤال فلا يدل ذكر الصفة أن المجيب قَصَد مخالفةَ الحكم عند عدم الصفة.

ثم أورد إشكالاً على اشتراط ألا يخرج مخرج الغالب بقوله: «فإن قلت: هذا لا يتضح بالنسبة إلى كلام الله تعالى؛ لأنه لا يخفى عليه خافية، فهو يعلم ذلك النادر. قال: وإنما يتبيَّن لي دخوله في كلام الآدميين.

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٨.

(٢) ينظر: ص ٤٦٨.

وقد أجيب عنه في كتابي «الأشباه والنظائر» بما لو عُرض على ذوي التحقيق لتلقوه بالقبول فقلت: الخلاف جارٍ في كلام الله تعالى لا للمعنى الذي ذكره ابن المرحِّل، بل لأن كلام الله منزَّلٌ على لسان العرب وقانونهم وأسلوبهم، فإذا جاء فيه لفظ عام تحته صورة نادرة، وعادة العرب إذا أطلقت ذلك اللفظ لا تمر تلك الصورة ببالها. نقول: هذه الصورة ليست داخلة في مراد الله تعالى من هذا اللفظ وإن كان عالماً بها؛ لأن هذا اللفظ يطلق عند العرب ولا يراد هذه الصورة، كما يجيء في القرآن ألفاظ كثيرة يستحيل وقوع معانيها من الله تعالى: كالترجي، والتمني، وألفاظ التشكيك، وكل ذلك منتف في جانبه تعالى، وإنما تجيء لِكَوْن القرآن على أسلوب كلام العرب»(١).

وفي مسألة المفرد المضاف هل يعم قال التاج رحمه الله: «ومما يدل على أن المفرد المضاف يعم ولم نَرَ مَنْ ذكره قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾(٢) فإن المراد موسى المرسَل إلى فرعون، ومعه هارون، ولوط المرسَل إلى المؤتكفات»(٣).

وفي مسألة الاستثناء من النفي هل هو إثبات؟ الجمهور على كونه إثباتاً، وأبو حنيفة - رحمه الله - على خلاف ذلك، بل يقول بأن الاستثناء من النفي لا يدل إلا على أن المستثنى مخرج من الحكم عليه بالنفي

---

(١) ينظر: ص ٩٥٣.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٩.

(٣) ينظر: ص ١٢٥٤.

من غير تعرض لحكم المستثنى بنفي أو إثبات، فمثلاً إذا قلنا: ما قام القوم إلا زيداً؛ لم يكن استثناء زيدٍ إلا إخراجاً له من الحكم عليه بنفي القيام، وليس في الاستثناء إثبات للقيام ولا نفيه، بل هو مسكوت عنه يمكن أن يكون قائماً ويمكن أن لا يكون قائماً، فحكم القيام لزيد مسكوتٌ عنه لم يتعرَّض له، بل المُتَعرَّض له هو إخراج زيدٍ من الحكم عليه بالنفي.

ومع أن الراجح عند التاج هو مذهب الجمهور إلا أنه استدل لمذهب الحنفية بدليل من عنده لم يقولوه والظاهر أنه لم يسبق إليه، يقول رحمه الله: «قلت: وقد وقع لي في بعض المجالس الاستدلال على صحة مذهب أبي حنيفة بقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]، وجه الحجة: أنه لو كان الاستثناء من النفي إثباتاً لكان المرء مكلفاً بكل ما تسعه نفسه؛ لأن الوُسْع مستثنى في قوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ وقد أضيف بقوله: ﴿وُسْعَهَا﴾ فيقتضي العموم بناءً على أن المفرد المضاف يعم والتقدير: لا يكلف الله نفساً إلا بكل ما تسعه، فيكون كل ما تسعه مكلفة به، وليس كذلك. وكان البحث بين يدي والدي أيده الله، فاستحسن ذلك»[2].

وفي مسألة العدد الذي يشترط لحصول التواتر في الخبر: ذكر التاج قول من يقول بأن التواتر يحصل بعدد أهل بدر، ثم تعرض لبيان عدد أهل بدر فنقل قولَ مَنْ يقول بأنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ثم قال: «ولعل الناظر في كتب المحدثين يجد أنهم كانوا ثلاثمائة رجل وخمسة

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) ينظر: ص ١٤٠٧.

رجال، وهو أيضاً غير مباين؛ وذلك لأن الذين خرجوا مع النبي ﷺ في غزوة بدر للمقاتلة ثلاثمائة رجل وخمسة رجال، ولم يحضر الغزوة ثمانية من المؤمنين، أدخلهم النبي ﷺ في حكم عداد الحاضرين وأجرى عليهم حكمهم، فكانت الجملة ثلاثمائة وثلاثة عشر، فاستفد هذا فإن جماعة من المحدثين ذهلوا عنه، حتى حكاه بعضهم خلافاً، فقال: قيل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: ثلاثمائة وخمسة رجال كالحافظ شرف الدين الدمياطي وغيره، والجمع بين القولين ما أشرنا إليه»[1].

وظاهر أن الجمع باجتهاده إذ لم يعزه لغيره، هذا هو الظن به، لكن ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أن ابن سعد - رحمه الله - قال به في «الطبقات الكبرى»[2] فيكون هذا من موافقة الاجتهادين. والله أعلم[3].

وانظر ما نقله عن والده في الفرق بين العام المخصوص والعام الذي أريد به الخصوص، فهو من نفائس البحوث التي لم يتعرَّض لها الأصوليون، وأتى فيها التقي بما لم يسبق إليه[4].

وانظر أيضاً ما نقله عن والده في الفرق بين مسألتي: النهي عن الشيء هل هو أمرٌ بضده أم لا؟ وما هو مطلوب النهي هل هو الكفُّ أو الانتفاء؟

---

(١) ينظر: ص ١٨٣٨ - ١٨٣٩.

(٢) انظر الطبقات: ٢/١٨ - ١٩.

(٣) انظر: فتح الباري ٧/٢٩٢.

(٤) ينظر: ص ١٣٤٦ - ١٣٤٧.

وقد نقل عن والده – رحمه الله – في بيان الفرق بينهما بحثاً مطوَّلاً هو من فرائد التقي رحمه الله، حتى قال التاج في آخره: «هذا آخر ما ذكره والدي أيده الله، ولا ينبغي أن يُمَلَّ التطويل في هذه المسألة، ففيه من الفوائد ما لا يوجد في سواه»[1].

عنايته بالفوائد الأصولية:

وأعني بها الفوائد المستخرجة من بعض المسائل الأصولية، أو المتعلقة بها فمن ذلك:

المقدمات الست التي افتتح بها باب العموم، وهي من الفوائد المهمّة لا سيما المقدمة الثالثة والرابعة فهما أهم تلك الفوائد، ولولا أن في ذكرهما إطالة لذكرتهما[2].

مسألة أقل الجمع: قال فيها التاج: «للخلاف في هذه المسألة فائدة أصولية، وفوائد فروعية:

أما الأصولية: فهي النظر إلى الغاية التي ينتهي التخصيص إليها، وهي المسألة المتقدمة. وقال الأستاذ أبو إسحاق في أصوله بعد أن عزا ما ذكرناه إلى بعض الأصحاب: هذه فائدة مزيَّفة لأن أئمتنا مجمعون على جواز تخصيص الجمع والعموم بما هو دليل إلى أن يبقى تحته واحد. انتهى. وهي فائدة، وقد عرفت الخلاف المتقدم؟». يعني: فائدة هذه المسألة صحيحة لا

(١) ينظر: ص ١١٧٥ – ١١٨٨.

(٢) ينظر: ص ١١٩٣ – ١٢١٨.

مزيَّفة كما يقول أبو إسحاق رحمه الله؛ إذ الإجماع الذي حكاه غير صحيح، فالمسألة فيها خلاف سبق ذكره[1].

ومن ذلك أيضاً: الفرق بين العام المخصوص والعام الذي أريد به الخصوص[2].

وفي مسألة البيان بالفعل: ذكر البيضاوي أن الفعل بيان لأنه أدل من القول على المقصود؛ لأن فيه المشاهدة. وفي تعارض القول مع الفعل يرى البيضاوي والجمهور أن القول مقدَّم، وعلل البيضاوي ذلك بكون القول يدل على البيان بنفسه، بخلاف الفعل فإنه لا يدل إلا بواسطة انضمام القول إليه، والدالُّ بنفسه أدل[3].

فقال التاج رحمه الله: «فائدة: قد ذكر المصنف هنا (أي: في مبحث البيان) أن الفعل أدل من القول، وأن القول يدل بنفسه، يعني: فيكون أدل. وظاهر هذا التنافي بين الكلمتين، والتحقيق أن الفعل أدل على الكيفية، والقول أدل على الحكم، ففعل الصلاة أدل من وصفها بالقول؛ لأن فيه المشاهدة. واستفادة وقوعها على جهة معيَّنة من واجب أو ندب أو غيرهما بالقول أقوى وأوضح من الفعل؛ لصراحته»[4].

وفي مسألة النسخ إلى غير بدل: قال التاج رحمه الله: «فائدة: قال

---

(١) ينظر: ص ١٣٣٥ – ١٣٣٦.

(٢) ينظر: ص ١٣٤٦ – ١٣٦٢.

(٣) ينظر: ص ١٥٩٤.

(٤) ينظر: ص ١٥٩٥.

الشافعي في «الرسالة» في ابتداء الناسخ والمنسوخ: وليس يُنْسخ فرضٌ أبداً إلا أُثْبت مكانه فرضٌ، كما نُسخت قِبْلة بيت المقدس فأثبت مكانها الكعبة. انتهى. وظاهر هذه العبارة أنه لا يقع النسخ إلا ببدل، وليس ذلك مراده، بل هو موافق للجماهير على أن النسخ قد يقع بلا بدل، وإنما أراد الشافعي بهذه العبارة كما نبَّه عليه أبو بكر الصيرفي في «شرح الرسالة»: أنه يُنقل من حظرٍ إلى إباحة، أو إباحة إلى حظر أو تخيير، على حسب أحوال الفروض. قال: ومَثَل ذلك مَثَلُ المناجاة: كان يُناجى النبي ﷺ بلا تقديم صدقة، ثم فَرَض الله تقديم الصدقة، ثم أزال ذلك، فردهم إلى ما كانوا عليه، فإن شاؤوا تقربوا بالصدقة إلى الله، وإن شاؤوا ناجَوْه من غير صدقة. قال: فهذا معنى قول الشافعي: «فرضٌ مكان فرض» فتفهَّمه. انتهى. وهذا لا يخالفه فيه الأصوليون، فإنهم يقولون: إذا نُسخ الأمر بقوله: رفعتُ الوجوب، أو التحريم، مثلاً عاد الأمر إلى ما كان عليه، وهو حكم أيضاً»[1].

الإحالات العلمية

سبق وأن ذكرنا أن التاج كان آية في زمانه في شتى الفنون، وقد ساعده على ذلك بيئته العلمية وتقلبه بين يدي العلماء المبرزين، زد على ذلك ما ورثه عن أبيه من مكتبة زاخرة بالمصادر والمراجع في علوم مختلفة. ولذا فإحالاته كثيرة سواء على مصادر أخذ منها منسوبة لغيره، أو مصادر له من تأليفه.

---

(١) ينظر: ص ١٦٧٤ – ١٦٧٥.

أما مؤلفاته فقد أحال على كتاب الأشباه والنظائر مراراً في شرحه، وعبارته تكررت كثيراً فمنها على سبيل المثال:

مثال: «وفي كتابنا الأشباه والنظائر تممه الله تعالى منه ما لا مزيد على حسنه ولا مطمع للطالب في الإحاطة في أكثر منه»[١].

مثال: «ولعلنا: نأتي إن شاء الله تعالى منه في كتابنا الأشباه والنظائر بالعجب العجاب»[٢].

مثال: «وهذه قاعدة في الفقه عظيمة كثرت مسائلها، ومن أراد الإحاطة بفروعها فعليه بكتابنا الأشباه والنظائر أتمه الله»[٣].

مثال: «وينعرج هذا إلى أنَّه قد يغتفر في الابتداء ما لا يغتفر في الدوام عكس القاعدة الأولى وهو في مسائل معدودة غير عديدة استقصيناها في كتابنا الأشباه والنظائر كمله الله تعالى»[٤].

مثال: «وقد أتينا في كتابنا الأشباه والنظائر أتمه الله تعالى في هذه القاعدة بعد تحققها من سرد فروعها ما تقرّ الأعين فعليك به»[٥].

مثال: «وقد قال أبو العباس ابن القاص لا يستثنى عن هذه القاعدة إلا إحدى عشرة مسألة فيترك اليقين فيها بمجرد الشك، وقد سردناها في

---

(١) ينظر: ص٢٣٧٣.

(٢)ينظر: ص٢٤٩١.

(٣)ينظر: ص٢٥٦٥.

(٤)ينظر: ص٢٥٦٦.

(٥)ينظر: ص٢٦١٩.

الأشباه والنظائر وزدنا ما أمكن مع التحري والتحرير في كلّ ذلك فلا نطول بذكره هنا»[1].

مثال: «ولعلنا نتعرض لهذه القاعدة في الأشباه والنظائر كمّله الله تعالى»[2].

وأما الإحالات إلى الكتب الأخرى، فقد أحال على مؤلفات شتى مثال ذلك إحالته على كتب أبيه. يقول مثلاً: «والمسألة في شرح المنهاج لوالدي مبسوطة»[3].

مثال آخر: «... وتفاصيل هذه المسألة وحجج الأصحاب فيها مبسوطة في الكتب الكلامية، والمصنف أحال في ذلك على كتابه مصباح الأرواح»[4].

وهناك إحالات من نوع آخر وهي الإحالات في نفس الشرح، إحالات بين الأبواب والفصول، لاحقة أو سابقة.

مثال: «وتحقيق هذا يتلقى من فاتحة كتاب العموم والخصوص من هذا الشرح وسننتهي إليه إن شاء الله»[5].

مثال آخر: «قلت وهذا الذي مشى عليه الإمام والمصنف في كتاب

---

(١)ينظر: ص٢٦٢٠.

(٢) ينظر: ص٢٥٦٥.

(٣)ينظر: ص٤٢٠.

(٤) ينظر: ص٣٦٦ - ٣٦٧.

(٥) ينظر: ص٧٧٥.

القياس كما سينتهي الشرح إليه إن شاء الله»[1].

مثال آخر: «تقدم في كتاب القياس أن المناسب إما أن يعلم أن الشارع اعتبره أو ألغاه، أو يجهل حاله، وانفصل القول البليغ في القسمين الأولين، والنظر هنا في الثالث، وقد يعبر عنه بالمصالح المرسلة»[2].

وبهذا القدر من الأمثلة، لعلنا أن نكون قد وفقنا في إظهار بعض جوانب هذه النقطة من المنهج.

الاستدلال بالأدلة النقلية من الكتاب والسنة والإجماع، وآراء الصحابة وأشعار العرب وأقوال أهل اللغة، والأدلة العقلة.

شأن كلّ أصوليٍّ وفقيه، الاستدلال بالأدلة، والبحث عن الدليل للمسالة التي يبحثها، وعملاً بحديث معاذ ﷺ المشهور حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، فذكر تدرجه في الأدلة، ابتداء بالكتاب فالسنة إلى آخر الأدلة، وعلى هذا مشى كل من جاء بعده، فالتاج ليس بدعاً من العلماء، فلم يشذ عن هذه الطريقة، بل التزم بهذا المنهج، فيبحث عن الأدلة في الكتاب فإن لم يجد ففي السنة، ثم الإجماع ثم القياس، ثم أقوال الصحابة، ومن تبعهم، ثم بقية الأدلة العقلية. بالإضافة للأدلة التي يستأنس بها من أشعار العرب، وأقوال لأهل اللغة، وحتى نتبين ذلك ملياً، نذكر له بعض الأمثلة من شرحه كما هو المتبع في بقية النقاط في ذكر منهجه.

---

(١) ينظر: ص٥٥١.

(٢) ينظر: ص٦٣٣.

مثال للاستدلال من الكتاب والسنة والإجماع، والدليل العقلي واللغة:

«أما المقدمة **الأولى**؛ فلأنه مجاوزة عن الأصل إلى الفرع.

وأما **الثانية**: فلأن الاعتبار مشتق من العبور وهو المجاوزة والعبور تقول عبرت عليه وعبرت النهر.

وأما **الثالثة**: قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[1] أمر بماهية الاعتبار وهو أمر شامل لجميع أنواع الاعتبار، ومن جملة أفراده القياس، فوجب أنْ يكونَ مأموراً به.....

الوجه الثاني: من الوجوه الدالة على حجيّة القياس **السنة**، وتلك في قصتين: قصة معاذ وقصة أبي موسى....

الوجه الثالث: مما يدلّ على أنّ القياس حجّة، وهو معتمد الجمهور: **الإجماع**......

هذا **وجه عقلي** وتقريره: أنّ المجتهد إذا ظن أنّ الحكم في الأصل معلّل بعلّة موجودة في الفرع، حصل له ظنّ ثبوتِ الحكمِ في الفرعِ، والظنُّ بوجودِ الشيءِ يستلزم الوهمَ بعدمِه؛ لعدمِ انفكاك كلٍّ من الظنّ أو الوهم عن الآخر»[2].

مثال آخر: «واستدل المصنف على أنّ الأصل في المنافع الإباحة بآيات:

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢.

(٢) ينظر: ص٢١٩٠ – ٢١٩١، ٢١٩٥، ٢١٩٩، ٢٢٠٦ – ٢٢٠٧.

الأولى: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾[1] واللام تقتضي التّخصيص بجهة الانتفاع، فيكون الانتفاع بجميع ما في الأرض جائزاً إلاّ الخارج بدليل.

والثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2] أنكر على من حرّم زينته، فوجب أن لا يثبت حرمتها ولا حرمة شيء منها وإذا انتفت الحرمة ثبتت الإباحة.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[3] واللام في لكم للاختصاص على جهة الانتفاع كما عرفت، وليس المراد بالطيبات الحلال، وإلا يلزم التكرار بل المراد ما تستطيبه النفوس.

واستدل على أنّ الأصل في المضارّ التّحريم:

بما روى الدارقطني من قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[4].

مثال آخر: « فقد احتج المصنف على أنّ قول الصحابي ليس بحجة مطلقاً بثلاثة أوجه:

أولها: قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ أمر بالاعتبار وذلك ينافي التقليد كذا قرره الإمام...

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥.

(٤) ينظر: ص٢٦٠٠ - ٢٦٠١.

والثاني: أنّ الصحابة أجمعوا على مخالفة كل واحد من آحاد الصحابة.....

والثالث: قياس الفروع التي هي محل الخلاف على الأصول لامتناع كون قولهم حجّة فيها على غيرهم من المجتهدين اتفاقاً والجامع كون المجتهد متمكناً من إدراك الحكم بطريقه»[1].

مثال آخر: «أقول: القياس في اللغة: التقدير، ومنه قست الأرض بالخشبة أي قدرتها بها والتسوية، ومنه قاس النعل بالنعل أي حاذاه، وفلان لا يقاس بفلان أي لا يساويه، قال الشاعر:

خِفْ ياكَرِيمُ عَلَى عِرْضٍ يُدَنِّسُهُ مَقَالَ كُلِّ سَفِيهٍ لاَ يُقَاسُ بِكَا

وبهذا المعنى يطلق على القياس المصطلح؛ لأنّ الفرع يساوي الأصل في الحكم»[2].

ذكر وجه الدلالة من النصوص

مثاله: «قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[3] أمر بماهية الاعتبار وهو أمر شامل لجميع أنواع الاعتبار، ومن جملة أفراده القياس، فوجب أنْ يكونَ مأموراً به»[4].

---

(١) ينظر: ص٢٦٧٧، ٢٦٧٨، ٢٦٧٩.

(٢) ينظر: ص٢١٥٧ - ٢١٥٨.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢.

(٤) ينظر: ص٢١٩١.

مثال آخر: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1]، والقول بالقياس تقديم بين يدي الله ورسوله، إذ هو قول بغير الكتاب والسنة.

وأيضاً فالقياس إنّما يفيد الظنّ، والظنّ منهي عنه لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[3] أي ولا تتبع ما لا تعلم، نهي عمّا ليس بعلم، ومن جملته الظنّ.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[4] يقتضي الاستغناء عن القياس»[5].

مثال: «ومنها قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[6] مع قوله في آية أخرى: ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[7] فظاهر الأولى وضع السيف فيهم حيث يثقفون، وظاهر الآية الثانية يقتضي جواز أخذ الجزية من أصناف الكفار من غير فصل.

وقال ﷺ: «خذوا من كل حالم ديناراً» وقال: «أمرت أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» الحديث، وظاهر هذا أنّ الجزية لا تؤخذ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٥) ينظر: ص٢٠٩.

(٦) سورة التوبة: الآية ٥.

(٧) سورة التوبة: الآية ٢٩.

وأن ليس بيننا وبين الكفار إلا السيف أو الإسلام فيجمع بين الظاهرين ويأخذ الجزية من أهل الكتاب بآية الجزية ونضع السيف فيمن ليس مستمسكاً بكتاب ولا شبهة كتاب لظاهر الآية الواردة في القتل»[1].

إيراد أدلة الخصوم وشبههم ومناقشتها وبيان وجه الضعف فيها

مثال: «...شُبَه الخصوم ستة: أولها: ما تعلقوا به من الكتاب وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] والقول بالقياس تقديم بين يدي الله ورسوله، إذ هو قول بغير الكتاب والسنة.

وأيضاً فالقياس إنّما يفيد الظنّ، والظنّ منهي عنه لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[4] أي ولا تتبع ما لا تعلم، نهي عمّا ليس بعلم، ومن جملته الظنّ.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[5] يقتضي الاستغناء عن القياس.

وأيضاً قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[6].

---

(١) ينظر: ص٢٧٣٤ - ٢٧٣٥.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٥) سورة الأنعام: ٥٩.

(٦) سورة النجم: الآية ٢٨.

وأجاب: في الكتاب بأن الحكم مقطوع به لا مظنون، والظنّ وقع في طريقه كما تقرر في أول الكتاب.

فإنْ قلت: هذا يشعر بأنه سلم أنّ الظنّ مذموم، لكنه وقع في طريق الحكم لا فيه، وعلى هذا يكون الطريق مذموماً، ويكون الحكم كذلك؛ لأنّه مستفاد من الطريق ....واعلم أنّ هذا الذي أجاب به المصنف ليس شاملا للآية الأولى ولا للآية الرابعة.

والجواب عن الآية الأولى، أنّا لا نسلم أنّ العمل بالقياس تقديم بين يدي الله ورسوله؛ لأنّه ثبت بالكتاب والسنة كما تقدم.

وعن الرابعة بأنّه عام مخصوص؛ لعدم اشتمال الكتاب على جميع الجزئيات»[1].

مثال آخر: «الشبهة الثانية للخصوم: ما روي من قوله ﷺ: «تعمل هذه الأمة برهة -أي قطعة- من الزمان بكتاب الله ثم تعمل برهة بسنة رسول الله ﷺ، ثمّ تعمل برهة بالرأي، فإذا قالوا بالرأي، فقد ضلّوا وأضلّوا».

الثالثة: الإجماع فإنّه قد نقل عن بعض الصحابة ذمّ الرأي من غير نكير، فكان إجماعاً.

والجواب عن هذين الدليلين بأنّهما معارضان بمثليهما سنّة وإجماعاً، كما سلف فيجب الجمع بين الدليلين، بأنْ يحمل الذمّ على القياس الفاسد

---

(١) ينظر: ص٢٢٠٩ – ٢٢١٠، ٢٢١١.

دون الصحيح كما سبق. هذا ما في الكتاب.

والحديث المشار إليه لا تقوم به الحجّة، ولا يصلح معارضاً؛ لأنَّ رواية جبارة بن المغلس وهو ضعيف، عن حماد بن يحيى الأبح، وقد قال فيه البخاري: يهم في الشيء بعد الشيء.

قال ابن عدي: وسمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: حماد بن يحيى الأبح روى عن الزهري حديثا معضلاً، يعني هذا الحديث، ورواه حماد عن الزهري كما ذكر عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً.

فإن قلت: سلمنا ضعفَ الحديث ومعارضتَه لما تقدم، ومعارضةَ الإجماع أيضاً، وأنّه يجب التوفيق بينهما»[1].

وبهذين المثالين يمكن أن نحكم على بقية الشرح، ونتعرف على منهجه في الباقي.

تعامله مع القضايا الفقهية

حين ترجمنا للتاج السبكي، قلنا: إنه يعد من فقهاء الشافعية، فقد كان متضلعاً في المذهب، بل يختار أحياناً ويرجح بين الأقوال داخل المذهب. كما أن له مؤلفات فقهية ذكرناها في الترجمة. ومن هذه المعطيات كان يتعامل مع القضايا الفقهية تعامل الرجل الممارس للفقه، صاحب الملكة الفقهية، المطلع على المذهب، العارف بخباياه، ونظرة سريعة على المصادر التي استعملها أثناء الشرح، تعطيك انطباعاً واضحاً على مدى

---

(١) ينظر: ص٢٢١٣ - ٢٢١٥.

رسوخه في مذهبه. ولذلك ينحو في شرحه منحى تخريج الفروع على الأصول خاصة في كتاب التعادل والتراجيح فقد أكثر الأمثلة من الفروع الفقهية. وبذكر الأمثلة تتضح الصورة أكثر وتبدو ناصعة.

مثال: «وأما تحقيق المناط: فهو أنْ يتفق على عليّة وصف بنص أو إجماع، ويجتهد في وجودها في صورة النزاع كالاجتهاد في تعيين الإمام بعدما علم من إيجاب نصب الإمام، وكذا تعيين القضاة والولاة وكذا في تقدير التعزيرات، وتقدير الكفاية في نفقة القريب.وإيجاب المثل في قيم المتلفات، وأروش الجنايات، وطلب المثل في جزاء الصيد، فإنّ مناط الحكم في نفقة القريب الكفاية وذلك معلوم بالنّص»[1].

مثال آخر: « ومنها الجنين يضمن بالغرّة ويستوي فيه الذكر والأنثى. ومنها المقدرات الشرعية في الشجاج كالموضحة مع اختلافها في الصغر والكبر. ومنها جزاء الصيد فليس من شرط الضمان أنْ يكون بالمثل أو القيمة من النقدين ولا من شرط المثل أنْ يضمن بالمثل والعدول في الأمور التي لا تنضبط إلى شيء مقدر لا يختلف من محاسن الشريعة قطعاً للتشاجر والتخاصم. والتمر كان أغلب أقواتهم كما أنّ الإبل غالب أموالهم»[2].

مثال آخر: «مثاله قولنا: رقّ الأمّ علّة رقِّ الولد، فيكون هذا الولد رقيقاً، فإنْ نقض بولد المغرور، بحرية الجارية حيث كان رقّ الأمّ موجوداً مع انعقاد الولد حراً.

---

(١) ينظر: ص٢٣٩٩.

(٢) ينظر: ص٢٤٣٦ - ٢٤٣٧.

قلنا: رقّ الولد موجود تقديراً أو مقدر وجوده إذ لو لم يقدر رقّه لم نوجب قيمته، إذ لا قيمة في الحرّ، ولذلك حكي وجه: أنَّه ينعقد رقيقاً ثمّ يعتق على المغرور، حكاه الرافعي في كتاب العتق وجزم في النكاح بخلافه»[1].

مثال آخر: «وأيضاً، فلعل أبا بكر ﷺ نهى زيداً عن الحكم فيما يخالفه فيه، وقصر توليته على الحوادث التي يوافقه فيها. وقد صرح بجواز مثل هذا الماوردي كما نقله الرافعي فقال: ولو ولّى الإمام رجلاً، وقال: لا تحكم في قتل المسلمِ [بـ]الكافرِ والحرِّ [بـ]العبْدَ، جاز وقد قصر عمله على باقي الحوادث. وواقعة زيد واقعة عين، لا يمكن فيها نفي هذا الاحتمال»[2].

مثال آخر: «قال الرافعي: فالقياس أنّا إنْ أوجبنا تقليدَ الأعلم، فهو كما لو تغير اجتهاد مقلده وإلا فلا أثر له.قال النووي: وهذا ليس بشيء بل الوجه الجزم بأنّه لا يلزمه شيء ولا أثرَ لقولِ الثاني»[3].

مثال آخر: «وحاصل هذا أنّه لا عموم وخصوص في هذه الصورة وليس للشافعي إلزام الحنفي بها؛ لأنَّ الضمان إذا ثبت لا يستقر على المكره، وهو كلام صحيح، إلا أنّ المذهب الصحيح المشهور في الجديد أنّ قرار الضمان في مسألة التغرير على الآكل دون المضيف، والصحيح في

---

(١) ينظر: ص٢٤٥٥ - ٢٤٥٦.

(٢) ينظر: ص٢٩٢٨ - ٢٩٢٩.

(٣) ينظر: ص٢٩٣٣.

مسألة الإكراه استقرار الضمان على المكْرِه بكسر الراء على خلاف ما قاله فيهما»[1].

مثال آخر: «فهذا الخبر يقتضي ثبوت رمضان بشهادة الواحد، ويترتب عليه وجوب الصوم، وحلول الدّين المؤجل، ووقوع الطلاق والعتاق المعلقين به، وهو معارض للقياس، فإنّه يقتضي عدم ثبوته بقول الواحد، كما في سائر الشهور ويترتب على عدم ثبوته عدم ترتب شيء مما ذكرناه، فيحمل الأوّل على وجوب الصوم، والقياس على عدم حلول الأجل والطلاق والعتاق، وهذا قد صرح به القاضي الحسين والبغوي، لكن قال الرافعي: لو قال قائل: هلا يثبت ذلك ضمناً كما سبق نظيره لأحوج إلى الفرق

والذي سبق أنا إذا قلنا بالقول الصحيح، وصُمْنا بقول الواحد، ولم نر الهلال بعد ثلاثين أفطرنا على أحد الوجهين وإن كنّا لا نفطر بقول واحد ابتداء ولا يثبت به هلال شوال على المذهب الصحيح؛ وذلك لأنّه لا يجوز أنْ يثبت الشيء ضمنا بما لا يثبت به أصلاً ومقصوداً، ألا ترى أنّ النسب والميراث لا يثبتان بشهادة النساء ويثبتان ضِمناً للولادة إذا شهدن عليها.

وفرق ابن الرفعة بأن النّسب والميراث وكذا الإفطار عقيب الثلاثين لازم للمشهود فلا يتعقل ولادة منفكة عن النسب والميراث ولا صوم ثلاثين يوماً بوصف كونها رمضان منفكة عن الفطر بعدها، والدّين

---

(١) ينظر: ص٢٤٨٧.

والطلاق والعتاق ليس يلزم استهلال الشهر ويعقل انفكاكه عنه. قال: وقد أشار إلى مثله ابن الصباغ»[1].

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة، ويمكن لمن أراد المزيد أن يطالع شرحه، فهو مليء بهذه الفروع، مما يدل على أن الرجل ليس بهين في هذا المضمار، وسيصل كل من طالع شرحه إلى نتيجة حتمية وهي: أنه فارس هذا الميدان، بل حاز قصب السبق فيه.

موقفه من آراء العلماء

يمكن أن نوضح موقفه من العلماء من وجهين اثنين، لأنه أحيانا يتحدث عن الآراء الجماعية للعلماء، وأحيانا يتحدث عن الآراء الفردية لكل عالم من علماء الأصول، وبناء عليه فسأفرد لكل جانب عنواناً خاصاً.

الآراء الفردية:

يذكر تارة الرأي منسوباً لصاحبه، ويصدره بقوله: قال أبو الحسين مثلاً، قال إمام الحرمين، قال الغزالي، قال الرازي، قال صفي الدين الهندي، إلى غير ذلك[2].

وقد يعبر بلفظ: صرح بكذا، أو مقتضى كلام. مثاله: «وقد صرح الآمدي بما ذكرناه، وقال: احتمال تأخر التشديد أظهر، وتبعه ابن الحاجب

---

(١) ينظر: ص ٢٧٣٠ - ٢٧٣٢.

(٢) ينظر: على سبيل المثال الصفحات التالية: ٢١٧٢، ٢١٩٣، ٢٢٠٤، ٢٢٧٥، ٢٢٧٦، ٢٤٧٨، ٢٤٧٩، ٢٥٤٦، ٢٦٦٢.

والإمام»[١].

وتارة يقول: ذكره فلان من العلماء وهو مقتضى كلام فلان كما في المثال: «كذا ذكره صفي الدّين الهندي وغيره، وهو مقتضى كلام الآمدي»[٢].

وتارة يذكر الرأي في المسألة ثم يعقب عليه بلفظ نصّ عليه فلان، **مثاله:** « قال إمام الحرمين في البرهان: والشافعي نصّ على هذا في الكثير»[٣].

وتارة يقول: جزم به فلان، **مثاله:** « وبه جزم المصنف واختاره الإمام، وأكثر الأشاعرة»[٤].

وتارة يقول واختاره فلان. **مثاله:** « والرابع: واختاره الآمدي وابن الحاجب أنّها الباعث»[٥].

وتارة أوردها فلان: « وهذه الأقسام الأربعة أوردها الغزالي كما ذكرناها»[٦].

بالإضافة إلى هذا فقد كان كثير الاقتباس والنقل -كما سبق وأن

---

(١) ينظر: ص٢٧٩٩.

(٢) ينظر: ص٢٥١٠.

(٣) ينظر: ص٢٣٣١.

(٤) ينظر: ص٢٢٨٤.

(٥) ينظر: ص٢٢٨٦.

(٦) ينظر: ص٢٦١١.

أشـرت- ويـأتي صـفي الـدين في الطليعـة ثم إمـام الحـرمين في البرهـان والتلخيص والغزالي في المستصفى والإمام الـرازي في المحصـول، والشـيرازي في اللمع، وهلم جرًّا، ثم شروح المنهاج كالعبري والجاربردي، وغيرهم.

الآراء الجماعية:

عبر التاج بعبارات عدّة عن الآراء الجماعية للأصوليين،

فكان تارة يقول: ذهب الجمهور، أو الأكثر، أو البعض، أو المحققون، ومن الأمثلة على ذلك.

مثال: «وقـد قـال الجمهـور: لا يعتمـد قولـه هـذا منسـوخ ولا عملـه بخلاف ما رواه؛ لاحتمال ذلك»[1].

مثال آخر: «وأما قولـه: أمـر رسـول الله ﷺ بكـذا فـالأكثرون علـى اعتماده والعمل به»[2].

مثال آخر: «وإليه ذهب المحققون كالأستاذ والغـزالي والإمـام وأتباعـه ومنهم المصنف وجماعة من أهل الظاهر وجماعة من المعتزلة واختاره الآمدي ومن تبعه أنّه لا يفيد الأمر بالقياس»[3].

وأحياناً يذكر بعضـاً مـن علمـاء الأصـول علـى وجـه الخصـوص بعـد ذكرهم.

---

(١) ينظر: ص٢٣٠٩.

(٢) ينظر: ص٢٣٠٩.

(٣) ينظر: ص٢٢٢٤.

مثاله: «المسألة الخامسة: أطبق النّاس كافةً على صحة العلّة القاصرة، وهي المقصورة على محل النّصّ المنحصرة فيه التي لا تتعداه إذا كانت منصوصةً أو مجمعاً عليها، كما نقله جماعة **ومنهم** القاضي أبو بكر في التقريب والإرشاد»[1].

وبالاستقراء وجدناه يكرر ذلك مع المصنف، فيقول ومنهم المصنف.

مثال ذلك: «تنبيه: قد عرفت نقل الأكثرين عن النظّام ومنهم صاحب الكتاب»[2].

«وإليه ذهب المحققون كالأستاذ والغزالي والإمام وأتباعه ومنهم المصنف وجماعة من أهل الظاهر»[3].

وكان يشير أيضاً إلى متابعة البيضاوي إلى غيره من الأصوليين في مواضع شتى.

مثاله: «وهذا الذي ذكره اختاره صاحب الحاصل فتبعه فيه»[4].

«وثانيا: مخالف لما في المحصول فإنّه جعله جواباً لشبهة أخرى لهم غير هذه، ولكن صاحب الحاصل ترك ذكر تلك الشبهة ونقل جوابها إلى هذه الشبهة التي أوردها صاحب الكتاب فتبعه المصنف على ذلك»[5].

---

(١) ينظر: ص٢٥٤٠ - ٢٥٤١.

(٢) ينظر: ص٢٢٢٥.

(٣) ينظر: ص٢٢٢٤ وينظر الصفحات التالية: ٢٢٢٤، ٢٣٩١، ٢٤٧٤ وغيرها.

(٤) ينظر: ص٢٨٥٥.

(٥) ينظر: ص٢٥٥٤.

«واحتج عليه المصنف تبعا للإمام بأنّ العلية أمر نسبي بين العلّة والحكم»[1].

«وقد اختلف في هذا النوع واختار المصنف أنّه حجة تبعًا لتاج الدين صاحب الحاصل»[2].

«واعلم أنّ تعبير المصنف عمّا ليس بمناسب ولا مستلزم للمناسب بالطرد، موافق لعبارة الإمام وأتباعه ومن قبلهم إمام الحرمين و الغزالي وغيرهما»[3].

تِلْكُم أمثلة لا ندعي فيها الحصر، فقد أغفلنا الكثير منها، وهي بحاجة إلى استقراء تام، وتتبع شامل، لكن ارتأينا الاكتفاء بالقليل لأنه دال على الكثير.فما ذكر قليله فكثيره يأخذ الحكم نفسه.

تعامله مع القضايا اللغوية والنحوية والأدبية.

القضايا اللغوية والنحوية تعدّ رافداً هاما من روافد علم أصول الفقه، بل هي مرتكزه، فمعظم مباحثه تقوم على فهم هذه اللغة التي نزل بها الوحي بشقيه جليه وخفيه، لذا لا يمكن لأي شخص أراد أن يركب عباب هذا البحر دون أن يعد له العدّة، وعدته اللغة العربية، فهي سفينة النجاة التي توصله إلى برِّ الأمان، وبذلك يسهل عليه فهم المسائل العويصة في

---

(١) ينظر: ص٢٥٥٥.

(٢) ينظر: ص٢٦٢١.

(٣) ينظر: ص٢٣٦٠ - ٢٣٦١.

أصول الفقه. وصاحبنا لا يخفى على كل ذي لب أنه الإمام في هذا الميدان، فكتابه الأشباه والنظائر، خصص فيه المسائل ذات الصلة باللغة العربية وتم فيها تخريج الفروع على الأصول، وكذلك في كتابه الطبقات الزاخر بمواد دسمة من الأدب واللغة والنحو والصرف، ولم يخل كتابه الإبهاج من نكت في العربية وعلومها، فقد اهتم رحمه الله بالقضايا اللغوية والنحوية والأدبية، تمثيلاً واستشهاداً، وكان ذلك واضحاً في مباحث الألفاظ، والمباحث المتعلقة بالحروف، حيث كثر النقل عنهم، وبذكرنا للأمثلة تتضح الفكرة أكثر فأكثر:

مثال: «إجماع النحاة. قال أبو علي الفارسي: أجمع نحاة البصرة والكوفة على أنها للجمع المطلق. وذكر سيبويه في سبعة عشر موضعاً من كتابه أنّها للجمع المطلق... وقد سبق النقل عن الفراء، ولكذلك قال شيخنا أبوحيان في الارتشاف: ما نقله السهيلي والسيرافي إجماع النحويين كوفيهم وبصريهم على ذلك..»[١].

مثال: «وأما ورودها [أي الباء] للتبعيض فقد ذكره ابن مالك، ومن شواهده:

شرب النزيف ببَرد ماء الحَشْرَج

أي: من برد، وقال ذلك في التذكرة الفارسي، وهو مذهب الكوفيين تبعهم فيه الأصمعي والقتبي في قوله: شربن بماء البحر، وتأوله ابن مالك

---

(١) ينظر: ص ٨٧١، ٨٧٣.

على التضمين، أي روين بماء البحر....احتج من زعم أنها ليست للتبعيض بأن أبا الفتح ابنَ جني من أئمة اللغة... وقد وافق ابن جني على ذلك صاحب البسيط فقال: لم يذكر أحد من النحويين أن الباء للتبعيض»[1].

مثال: «ولهذا قال ابن دريد: سألت أباحاتم عن معنى قولهم: بَسَنٌ أي: في قولهم حَسَنٌ بَسَنٌ، فقال: لا أدري ما هو. والتحقيق أن التابع يفيد التقوية، فإن العرب لا تضعه سُدًى، وجَهْل أبي حاتم بمعناه لا يضره، بل مقتضى قوله: إنه لا يدري معناه: أن له معنى وهو لا يعرفه»[2].

مثال: «وقد اختار هذا المذهب أعني إنكار المترادف أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه الذي ألفه في فقه اللغة والعربية، وسنن العرب وكلامها، ونقله عن شيخه أبي العباس ثعلب، وهذا الكتاب كتب منه ابن الصلاح نكتاً منها هذه، وعلقت أنا ذلك من خط ابن الصلاح فيما علقته من خطه...»[3].

مثال: «واعلم أن (من) قد تدخل لابتداء الغاية... وبهذا قال ابن بابشاذ وابن النحاس، وعبدالدائم القيرواني، وابن مالك...وقد زعم الأخفش الصغير والمبرد وابن السراج، والسهيلي وطائفة: أن (من) لا تكون إلا لابتداء الغاية، وصححه ابن عصفور»[4].

---

(١) ينظر: ص ٩٠٨ — ٩٠٩، ٩١٠.

(٢) ينظر: ص ٦١٧.

(٣)ينظر: ص٦١٩ – ٦٢٠.

(٤)ينظر: ص٨٩٧ — ٨٩٨، ٨٩٩ – ٩٠٠.

مثال: «قلت: وهذا الذي أوردناه من التفرقة بين تقدم النفي على كلٍّ، وتأخره عنها هو الذي ذكره البيانيون»[1].

هذا باختصار ما أورده من آراء لأهل اللغة والنحاة، أمّا الأدب، فقد حلّى شرحه بكثير من الشواهد الشعرية، وأقوال العرب، وضبط الكلمات العربية، لكن الذي يلاحظه المتصفح لشرح الإمام تاج الدين السبكي، هو أنه لم يكن شرحه على وتيرة واحدة، جافاً كما هو دأب الأصوليين، فالمعروف أن أصول الفقه أوّل ما دونه الإمام الشافعي رحمه الله ألفه في ثوب أدبي رفيع، وقد نبه إلى ذلك محققه أحمد شاكر، ثم ما فتئ يتناقص، ودخلت عليه الألفاظ الاصطلاحية، والتعابير الكلامية والمنطقية، فذهب رونقه، وصار كجلمود صخر حطه السيل من عل، حتى أضحى مستعصياً على أهل الفن، نهيك عن المتطفلين على هذا العلم. لذا فإن الشيخ حكى شيخ مذهبه الإمام المطلبي، فلا يترك فرصة سانحة ليوشح هذا الشرح بعبارة أدبية إلى وفعل، فكان كريشة فنان، أو أداة من أدوات النحاتين، فوضع فسيفساء من العبارات الأدبية الرفيعة على جدران هذا العلم، ورسم على الزجاج المعشق، أشكالا وألوانا من الأدب الرقيق. وخاصة إذا كان أسلوبه مقتبساً من كتاب الله فيزيده رونقا وتألقاً، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك.

المثال الأول: نأخذه من ديباجته التي دبج بها شرحه وهي وإن كانت طويلة بعض الشيء إلا أنها معبرة، وتعطي الصورة الحقيقية التي وسمتها به

---

(١) ينظر: ص١٢٤٣.

فانظر إليه حين يقول: « ...وتخلص فتخلص قائلها من الأهوال يوم يموت ويوم يبعث حياً، دائمة ما افتقر فرع إلى أصله، واحتاج المجادل إلى تجويد نصه، كما يحتاج المجالد إلى تجريد نصله، باقية لا ينعكس طردها، ولا يشتبه محكمها بترهات الملحد وزخرف قوله. ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان المقتفين آثارهم الحسان، وخص بمزيد الرضوان العلماء الحامين حمى الشريعة أن يضام أو يضاع، الوارثين بالدرجة الرفيعة هدي النبوة الذي لا يرام ولا يراع. الوافدين على حياطته بالهمة الشريفة حتى لا ينفك أو يشان ويشاع، لاسيما الإمام المطلبي مستخرج علم أصول الفقه محمد ابن إدريس الشافعي الذي ساد المجتهدين بما أصل وأنشأ، وسار نبأ مجده والبرق وراءه يتحرق عجلة وهو أمامه على مهل يتمشى، وساق إلى سواء السبيل بعلومه التي غشاها من تقوى الله ما غشى، وقدس أرواح أصحابه الذين زينوا أسماء العلوم من أنفسهم بزينة الكواكب، وهاموا باتباع مذهبه المذهب وللناس فيما يعشقون مذاهب. وذادوا عن بيان ما أجمله وإيضاح ما أشكله، والعلوم عطايا من الله ومواهب رضا يتكفل بنجاة كل منهم ونجاحه ويمر بروض الإيمان فيتعطر بأنفاسه رياحه، ويفخر عقد الجوزاء إذا كان درة في وشاحه.

أما بعد، فإن العلوم وإن كانت تتعالى شرفاً وتطلع في أفق الفخار من كواكبها شُرَفا فلا مرية في أن الفقه نتيجة مقدماتها، وغاية نهاياتها وواسطة عقدها، ورابطة حلها وعقدها، به يعرف الحرام من الحلال، وتستبين مصابيح الهدى من ظلام الضلال وهيهات أن يتوصل طالب، وإن

جد المسير إليه أو يتحصل بعد الإعياء والنصب عليه إلا بعد العلم بأصول الفقه والمعرفة والنهاية فيه فإنه صفته، وكيف يفارق الموصوف الصفة، وقد نظرنا فلم نر مختصراً أعذب لفظاً وأسهل حفظاً، وأجدر بالاعتناء وأجمع لمجامع الثناء من كتاب «منهاج الوصول إلى علم الأصول» للشيخ الإمام العالم العلامة قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وروض تربته بغمام الغفران حتى يأتي يوم القيامة وما ثلم جانبه ولا فض فوه؛ فإنه موضوع على أحسن منهاج محمول على الأعين وليس له منها من هاج بعبارة أعذب من ماء السحاب وألعب من ابنة الكرم بعقول أولى الألباب، آل فضل البلاغة إليه، وآلى فضل الخطاب ألا يتمثل إلا بين يديه، وقد رأيت شراحه على كثرتهم مالوا إلى الإيجاز وقالوا وكأنما ضاق بهم الفضاء الواسع فعد مقالهم في الألغاز قنع كل منهم بحاجة في نفسه من اسم التصنيف قضاها، وجمع نفسه على ما شف به سجل الكتاب من تقارير، إذا أنصف من نفسه لا يرضاها، فشروحهم تحتاج إلى من يشرحها وكلماتهم تريد بسطة في العلم والجسم توضحها.

وقد كان والدي أطال الله عمره شرع في وضع شرح عليه أبهى وأبهج من الوشي المرقوم، وأسرى وأسرع إلى الهداية من طوالع النجوم عديد شهب لائحه ورسل سحب سائحه وسماء علم يهتدى بكوكبه، وعلاء قدر أخذ بلمة الفخر، ولم يزاحمه بمنكبه، لا تنقشع عارضته، ولا نتوقع معارضته خضعت رقاب المعاني لكلامه، وخشعت الأصوات وقد

رأته جاوز الجوزاء وما رضيها دار مقامه لكنه أحسن الله إليه ما غاص في بحره إلى القرار، ولا أوصل هلاله إلى ليلة البدار بل أضرب عنه صفحاً بعد لأي قريب وتركه طرحاً وهو الدر اليتيم بين إخوانه كالغريب، وقد حدثتني النفس بالتذييل على هذه القطعة، وأحاديث النفس كثيرة وأمرتني الأمارة بالتكميل عليها، ولكني استصغرتها عن هذه الكبيرة، وقلت للقلم أين تذهب، وللفكر أين تجول، أطنب لسانك أم أسهب، ووقفت وقفة العاجز والنفس تأبى إلا المبادرة بما به أشارت وجرت على تيارها منادية أئت بما أمرتك بما استطعت وتوارى اللسان وما توارت فلما تعارض المانع والمقتضي، وعلمت أن الحال إذا حاولت مجهودها قام لها العذر الواضح فيما استقبلته ومُضيٌّ أي مضيٍّ أعملت الفكرة في الدجنة والوجه والليل كلاهما كالح، وشرعت فيه وقلت لعل الغرض يتم ببركته، وبقصده الصالح وجردت همة ما ورد رائدها إلا وقد سئم من النشاط، ولا أغمد مهندها إلا وقد ترك ألف طريح على البساط، ولا عاد نصلها إلا وقد قضى المأمول، ولا فترت عزائمها إلا وقد حصلت على نهاية السول، وأعملنا هذه الهمة في مدلهم الديجور، وصرفنا قلمها بشهادة النجوم وفلكها يدور فلم تنشب ليالي أسبلت جلبابها وأرخت نقابها معدودة ساعاتها ممدودة بالألطاف الخفية أوقاتها، إلى أن انهزمت تلك الليالي ودارت الدائرة عليها، وجاء من النسيم العليل بشير الصبح متقدماً بين يديها، فوافى الصباح بكل معنى مبتكر، وجلا عرائس بدائعه فشنف السمع وشرف البصر، وجاء كتاباً ساطعاً نور شمسه وشمس السماء في غروب، طالعاً في أفق الفخار

على أحسن أسلوب جائزاً لما يراد منه في كل طريقه جائزاً حقاً على مقالات المتقدمين والمتأخرين، وحسبك بمن مجازه حقيقة، فأسأل الله تعالى أن يعم النفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم موجباً للفوز لديه، وقد وصل والدي الشيخ الإمام جزاه الله الخير إلى مسألة مقدمة الواجب، ونحن نتلوه والله الموفق المعين بخفي ألطافه، والمحقق لرجاء العبد بإسعاده وإسعافه»[١].

والحقيقة أنها هذه المقدمة لا تحتاج مني إلى تعليق بل أترك كل ذي ذوق أن يتمعنها، وينظر في سبك أسلوبها الآخاذ.

مثال آخر: « أمّا الدليل على العلم في الأولى؛ فإنّه كلما زاد المجتهد علماً وتدقيقاً، وكان نظره أتمّ تنقيحاً وتحقيقاً ووقوفه على الأدلة المزدحمة مستقيماً، وإدراك وجه الازدحام فيها وكيفية الانفصال عنها عظيماً، تكاثرت الإشكالات الموجبة للتوقف لديه وتزاحمت المعضلات بين يديه.

وأمّا في الدّين؛ فلم يكن ممن إذا ظهر له وجه الرجحان صمّم على مقالته الأولى، ولا قام بنصرتها وشال بضبعها حتى ينادي أولى لك فأولى، بل صرّح ببطلان تلك واعترف بالخطأ فيها وقصور النظر»[٢].

وهناك عبارات صغيرة، يذكرها الفينة بعد الأخرى، وكلما سنحت له الفرصة، فيقول مثلاً: «ذهبت شرذمة قليلون إلى امتناع

(١) ينظر: ص٢٩٣ - ٣٠١.

(٢) ينظر: ص٢٧٠٨ - ٢٧٠٩.

التخصيص..»[1]، أو يقول: «رب متراشق في اللفظ يعبر عن المسألة»[2].

تعامله مع الصناعة الحديثية

تحدثت في ترجمته عن مشاركة التاج في علم الحديث، وقلت: إنه كان إماماً في الحديث، ويكفيه فخراً أنه تربى في أحضان محدثي عصره آنذاك، أمثال المزي والذهبي، وغيرهما. فلذا لا يستغرب تعقبه على من سبقوه حين يكون الأمر أشدّ التصاقاً بالصناعة الحديثية. لذلك نجده في غالب الأحيان إذا مرّ حديث أثناء الاستدلال للمسائل الأصولية، لا بد وأن يخرجه من الكتب المعتمدة، فإن وجده في الصحيحين اكتفى بهما دون ذكر السنن أو المسانيد والمستخرجات، والمستدركات. أو يصرح بعدم معرفة الحديث أحياناً. ولا يكتفي أحياناً بتخريج الحديث فحسب، بل يذهب أبعد من ذلك، فيدرس سنده دراسة حديثية، فيذكر أقوال علماء الجرح والتعديل في رجال السند، بين موثق ومجرح، وقد يستدعي الأمر إلى السؤال عن الحديث أو عن الرجل مشافهة فيسأل شيخه الذهبي، ليصل في الأخير إلى الحكم على الحديث. وأحياناً قليلة يذكر الحديث دون تخريج أو دراسة لسند، وهذا في غالب الأحيان إذا كان من الأحاديث المشهورة، وبالمثال يتضح المقال، أو كما يقال.

مثال: «وقد قال في البرهان أيضاً أنّ الشافعي ﷺ احتج ابتداءً على إثبات القياس بحديث معاذ يعني هذا. قال: والحديث مدّون في الصّحاح

---

(١) ينظر: ص١٣١٧.

(٢) ينظر: ص٢١٣٦.

متفق على صحّته لا يتطرق إليه تأويل.

قلت: وهذا عجيب من إمام الحرمين فقد قال إمام الصناعة أبو عبد الله البخاري لا يصحّ هذا الحديث، وقال الترمذي ليس إسناده عندي بمتصل»[1].

مثال: «والحديث المشار إليه لا تقوم به الحجّة، ولا يصلح معارضاً؛ لأنَّ روايه جبارة بن المغلس وهو ضعيف عن حماد بن يحيى الأبح، وقد قال فيه البخاري: يهم في الشيء بعد الشيء. قال ابن عدي: وسمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: حماد بن يحيى الأبح روى عن الزهري حديثا معضلاً، يعني هذا الحديث، ورواه حماد عن الزهري كما ذكر عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً»[2].

مثال: « كقوله ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» رواه البخاري ومسلم وقوله: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت فكلوا وادخروا» رواه مسلم وأبو داود والنسائي»[3].

مثال: «ما روي «أنّ أعرابيا جاء إلى النّبي ﷺ فقال هلكت وأهلكت، واقعتُ أهلي في نهار رمضان عامداً فقال: أعتق رقبة» وأصل الحديث في الكتب الستّة كلّها، لكن بغير صيغة أعتق رقبة وبهذه الصيغة في

---

(١) ينظر: ص٢١٩٦.

(٢) ينظر: ص٢٢١٤ - ٢٢١٥.

(٣) ينظر: ص٢٢٩٦.

سنن ابن ماجه»[1].

مثال: «فقالﷺ: «إنّها ليست بنجسة، إنّها من الطوافين عليكم والطوافات» رواه الأربعة أصحاب السنن. ... كما روي أنّ النبي ﷺ قال ليلة الجنّ لابن مسعود: «ما في إدواتك قال نبيذ قال: ثمرةٌ طيبةٌ وماء طهور» وهو حديث ضعيف رواه الترمذي وابن ماجه.... كما روي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ وقد سئل عن اشتراء الرطب بالتمر فقال: «أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا نعم، قال ﷺ: فلا إذن» رواه الأربعة وقال الترمذي حسن صحيح وصحّحه ابن خزيمة والحاكم.... كما روى أبو داود والنسائي أنّ عمر ﷺ قال هششت فقبَّلت وأنا صائم فقلت يا رسول الله صنعت اليوم أمراً عظيماً قبّلت وأنا صائم قال: «أرأيت لو تمضمضت من الماء وأنت صائم؟ قلت لا بأس قال: فَفيمَ؟» قال النسائي هذا الحديث منكر، وقال أحمد بن حنبل ضعيف»[2].

مثال: لتعقبه الغزالي وإمام الحرمين والقاضي الباقلاني في قلة بضاعتهم في الحديث.

«وقول الغزالي إن الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح متلقى من إمام الحرمين، فإنه قال: هذا لم يصححه أهل الحديث، وإمام الحرمين تلقى ذلك من القاضي أبي بكر فإنه قال في مختصر التقريب: هذا الحديث ضعيف غير مدون في الصحاح، وهذا باطل، فإن الحديث ثابت صحيح مدون في

(١) ينظر: ص٢٣١٣.

(٢) ينظر: ص٢٣١٥ – ٢٣١٦، ٢٣١٧.

البخاري ومسلم»[١].

مثال: «بما روى الدارقطني من قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». قال النووي في الأذكار حديث حسن»[٢].

مثال على الأحاديث التي لا يعرفها: « واستدل المصنف على ذلك مما روي من قوله ﷺ: «نحن نحكم بالظاهر والله متولي السرائر» وهو حديث لا أعرفه، وقد سألت عنه شيخنا أبا عبدالله الذهبي فلم يعرفه»[٣].

مثال آخر: «وقد استدل على ذلك بما روي أنّه ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «لا تقض في شيء واحد بحكمين مختلفين» وهذا الحديث لا أعرفه وقد سألت عنه شيخنا الذهبي فلم يعرفه»[٤].

مثال آخر: «ما روي من قوله ﷺ: «ما اجتمع الحلال والحرام إلا وغلب الحرام الحلال» وهو حديث لا أعرفه»[٥].

مثال: « وروى المصنف من قوله ﷺ: «ثم يفشو الكذب فيشهد الرجل قبل أنْ يستشهد». وهذا اللفظ لا أعرفه ولكن في الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم إنّ من بعدهم قوماً يشهدون ولا

---

(١) ينظر: ص٩٧٦.

(٢) ينظر: ص٢٦٠١ - ٢٦٠٢.

(٣) ينظر: ص٢٦٢٣ - ٢٦٢٤.

(٤) ينظر: ص٢٧٠٤.

(٥) ينظر: ص٢٨١٩.

يستشهدون» الحديث»[1].

مثال: «من أمثلته أنّ عبادة بن الصامت روى أنه ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وهو مدون في الصحاح متفق على رفعه دال على أن المأموم يقرأ خلف الإمام، فإنّ احتج الخصم بما روى يحيى بن سلام قال ثنا مالك بن أنس ثنا وهب بن كيسان عن جابر بن عبدالله أنّ النبي ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج إلا أنْ تكون وراء الإمام».

قلنا: لم يرفعه عن مالك غير يحيى بن سلام وهو في الموطأ موقوف.

وقد قيل: وَهِمَ يحيى بن سلام عن مالك في رفعه، ولم يتابع عليه، ويحيى كثير الوهم»[2].

وهناك أحاديث يمر عليها دون تخريج، ولا يشير إلى أنه قد سبق تخريجها.

ذكره للفوائد

لعله لن يكون من نافلة القول لو أشرت في هذا الصدد إلى أن التاج أثناء شرحه يذكر بعض التنبيهات وبعض الفوائد، من باب الاستطراد جرياً على عادتهم في ذلك القرن.

فمثلاً: «فائدة: الصحيح عن جمهور العلماء أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام واحتجوا بأمور كلها ظاهرة قطعية واستنبط والدي رضي الله عنه من القرآن

(١) ينظر: ص٢٧٣٢ - ٢٧٣٣.

(٢)ينظر: ص٢٧٨٧ - ٢٧٨٨.

دليلاً على ذلك يقارب القطع، أو يقتضي القطع بذلك، لم يسبقه إليه أحد وهو أن البشارة التي وقعت لإبراهيم عليه السلام بالولد من الله تعالى كانت مرتين، مرة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[1]. فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح. وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[2].

فقد صرح في هذه الآية أن المبشر به فيها إسحاق ولم يكن سؤال من إبراهيم عليه السلام بل قالت امرأته إنها عجوز وإنه شيخ وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في أواخر أمره، وأمّا البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين بغلامين؛ أحدهما بغير سؤال وهو إسحاق صريحاً والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح، ولا يرد على هذا قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[3].

ووجه الإيراد ذكر هبة إسحاق بعد الإنجاء؛ لأنا نقول: لما ذكر لوطاً

(١) سورة الصافات: الآيات ١٠٠ – ١٠٢.

(٢) سورة هود: الآيات ٧١ – ٧٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٧٠ – ٧١.

وإسحاق هو المباشر به في قضية لوط ناسب ذكره ولم يذكره ولم يكن في الآية ما يدل على التعقيب والبشارة الأولى، ولم يكن للوط فيها ذكر والله أعلم»[(١)].

فائدة أخرى: «فإن التعمق في المعاني يضر المبتدي، ومن آداب المعلم أن يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[(٢)].

فائدة: «قال القرافي: المحدثون والنحاة على عدم صرف أبان. قال: ونقله ابن يعيش في شرح المفصل عن الجمهور، وقال: إنه بناء على أنَّ وزنه أفعل وأصله أبين صيغة مبالغة في الظهور الذي هو البيان، والإبانة فيقول: هذا أبين من هذا أي: أظهر منه وأوضح، فلوحظ أصله مع العلمية التي فيه فلم يصرف»[(٣)].

قال: «تنبيه النقير: النقرة التي على ظهر النواة، والقطمير: ما في النواة كذا قاله في المحصول، والمعروف - وهو الذي في الصحاح - أن القشرة الرقيقة هي القطمير، وما شقّ النواة الفتيل اهـ»[(٤)].

قال: «تنبيه: الضرر ألم القلب، كذا قاله الأصوليون، واستدلوا عليه بأن الضرب يسمى ضرراً، وكذا تفويت المنفعة والشتم والاستخفاف، فجعل اللفظ اسماً للمشترك بين هذه الأمور، وهو ألم القلب دفعاً للاشتراك،

---

(١) ينظر: ص١٦٦٨ - ١٦٧١.

(٢) ينظر: ص١١٨٠.

(٣) ينظر: ص١٤٧٦.

(٤) ينظر: ص٢٢٤٥ - ٢٢٤٦.

والذي قاله أهل اللغة أن الضرر خلاف النفع وهو أعم من هذه المقالة»[1].

قال: «فائدة: قد علمت قول الجماهير أنّ الأصل في المنافع الإباحة ولك أن تقول الأموال من جملة المنافع، والظاهر أنّ الأصل فيها التحريم لقوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم ...»الحديث وهو أخصّ من الدلائل المتقدمة التي استدلوا بها على الإباحة فيكون قاضياً عليها إلاّ أنّه أصل طارئ على أصل سابق فإنّ المال من حيث كونُه من المنافع الأصل فيه الإباحة بالدلائل السابقة، ومن خصوصية الأصل فيه التحريم بهذا الحديث»[2].

نقاط أخرى في المنهج

وهناك نقاط إضافية في المنهج يمكن ذكرها مجملة دون تفصيل، مع ذكر مثال أو مثالين لكل نقطة نجملها فيما يلي:

التعريف ببعض الأعلام أثناء الشرح

مثاله: «واعلم أن النظام المذكور هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النّظام كان ينظم الخرز بسوق البصرة، وكان يظهر الاعتزال، وهو الذي تنسب إليه الفرقة النظامية من المعتزلة، لكنه كان زنديقاً، وإنما أنكر الإجماع لقصده الطعن في الشريعة، وكذلك أنكر الخبر المتواتر مع خروج رواته عن حد الحصر. هذا مع قوله بأن الخبر الواحد قد يفيد العلم،

(١) ينظر: ص٢٦٠٢.

(٢) ينظر: ص٢٦٠٧.

فأعجب لهذا الخذلان! وأنكر القياس كما سيأتي إن شاء الله تعالى وكل ذلك زندقة لعنه الله. وله كتاب نصر التثليث على التوحيد. وإنما أظهر الاعتزال خوفاً من سيف الشرع وله فضائح عديدة وأكثرها طعن في الشريعة المطهرة وليس هذا موضع بسطها»[1].

مثال آخر: «ابن الزبعرى بكسر الزاي المعجمة وفتح الباء الموحدة من تحت بعدها وقد تكسر أيضاً بعدها عين مهملة ساكنة ثم راء مهملة مفتوحة كان من أشد الناس على الإسلام وأكثرهم أذى بلسانه فحشاً وهجاءً، وبنفسه مكايدة وعناداً ثم أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه، وهذا المذكور عنه مشهور في كتب التفسير والسير وروى الحاكم أبو عبدالله في المستدرك عن الحسن بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2] قال المشركون فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله قوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[3].

قال فنزلت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[4]، وهذا سند صحيح لكن ليس فيه ذكر ابن الزبعرى بخصوصه»[5].

---

(١) ينظر: ص٢٠٣٥ - ٢٠٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٠١.

(٥) ينظر: ص١٦١٦، ١٦١٧.

عدم عزو أبيات الشعر إلا في النادر والقليل

مثاله: ما ورد في صفحة ٩٠٧، ٩١١، ٩١٢، ٩١٦.

مثال: «قال الشاعر:

خِفْ ياكَرِيمُ عَلَى عِرْضٍ يُدَنِّسُهُ   مَقَـــالُ كُلِّ سَفِيهٍ لاَ يُقَاسُ بِكَا»[١]

مثال آخر: «ولقول الشاعر[٢]:

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كلّ يــــومِ   لِدُوا لِلَمَوْتِ وابْنُوا لِلْخَرَابِ»

منهجه في تفسير الآيات القرآنية

مثال: «الوجه الثاني: من الأوجه الدالة على حجية الإجماع قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٣]، أخبر تعالى بأن هذه الأمّة وسط والوسط من كلّ شيء خياره وأعدله، فيكون الله تعالى قد عدل هذه الأمة وأخبر عن خيريتها، فلو أقدموا على شيء من المحظورات لانتفى عنهم هذا الوصف، فتجب عصمتهم عن الخطأ كبيره وصغيره، في قول وفعل؛ لأن تعديلهم من الله تعالى وهو عليم بالسر والعلانية، فلو كان فيهم عاص لما عدله بخلاف تعديلنا، فإنه مبني على ظننا، وما أدى إليه نظرنا مع احتمال خلافه في نفس الأمر»[٤].

---

(١) ينظر: ص٢١٥٧.

(٢) ينظر: ص٢٢٩٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) ينظر: ص٢٠٤٤، ٢٠٤٥.

ذكر مجالس المذاكرة والمناظرة

مثاله: «قلت: وقد وقع في بعض المجالس الاستدلال على صحة مذهب أبي حنيفة بقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]. وجه الحجة: أنه لو كان الاستثناء من النفي إثباتاً، لكان المرء مكلفاً بكل ما تسعه نفسه؛ لأنّ الوسع مستثنى في لا يكلف الله نفساً، وقد أضيف بقوله: وسعها، فيقتضي العموم بناء على أن المفرد المضاف يعم، والتقدير لا يكلف الله نفساً بشيء إلا بكل ما تسعه فتكون كل ما تسعه مكلفة به، وليس كذلك. وكان البحث بين يدي والدي أيده الله فاستحسن ذلك»[2].

التحري في عزو الأقوال إلى أصحابها

يقول في هذا الصدد: «والمذهب الثالث: أنه يفيد التراخي، كذا أطلقه جماعة منهم المصنف، وقال الشيخ أبو إسحاق في شرح اللمع، وإمام الحرمين في التلخيص والبرهان: إن هذا الإطلاق مدخول؛ إذ مقتضاه أن الصيغة المطلقة تقتضي التراخي، حتى لو فرض الامتثال على البدار لم يعتبر به، وليس هذا معتقد أحد. هذا كلامهما، ورأيت ابن الصباغ في عدة العالم قال: إن الواقفية في هذه المسألة من قال: لا يجوز فعله على الفور، لكن قال: إن القائل بهذا خالف الإجماع قبله. وعلى الجملة هو مذهب ثابت منسوب إلى خرق الإجماع. ونقل ابن السمعاني في القواطع القول:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) ينظر: ص١٤٠٧.

بأنه على التراخي عن أبي هريرة، وأبي بكر القفال، وابن خيران، وأبي علي الطبري صاحب الإفصاح، وصححه ثم قال: إن معنى قولنا: إنه على التراخي أنه ليس على التعجيل. قال: والجملة أن قوله: افعل ليس فيه عندنا دليل إلا على طلب الفعل فحسب من غير تعرض للوقت»[1].

بيان وجهة نظر المصنف في ترتيب الموضوعات الأصولية.

مثال: ذكر فيه تقديم المصنف لمباحث العلة على بقية أركان القياس والتي هي الأصل وحكم الأصل والفرع، وذكر لذلك أسباباً ثلاثة:

١- كثرة تشعب الآراء عندها.

٢- عظم موقعها.

٣- تشتت المباحث فيها.

يقول التاج: «إنما أفرد بيان العلة بفصل مقدَّم على بيان الأصل والفرع ومتعلقاتهما لكثرة تشعب الآراء عندها وعظم موقعها ولتشتت المباحث فيها»[2].

وجهة نظره في عدم ذكر بعض الموضوعات الأصولية

«واعلم أنّ صاحب الكتاب لم يذكر كيفية دفع الفرق وما قبله من القلب والكسر وعدم التأثير وخصّ النقض من بين المفسدات بذلك؛ لتشعب الآراء وكثرة النظر فيه، ونحن تابعناه على ما فعل، فإن ذلك نظر متمحض جدلاً لا تعلق له بصوب نظر المجتهد، وإنما هو تابع لشريعة الجدل

---

(١) ينظر: ص١١٢٧، ١١٢٨.

(٢) ينظر: ص٢٢٨٣.

التي وضعها أهلها باصطلاحاتهم، فإن لم يتعلق بها فائدة دينية فينبغي أنْ نشح على الأوقات أنْ نضيعها بها وبتفصيلها، وإن تعلق بها فائدة من ضمّ نشر الكلام ورد مباحث المناظرين إلى محزّ الخصام؛ لئلا يذهب كلّ واحد في كلامه طولاً وعرضاً وينحرف عن مقصود نظره بما لا يرضى، فتلك فائدة ليست من أصول الفقه، فينبغي أنْ يفرد بعلم النظر، وهو عندنا من أكيس العلوم وأعظمها كفالة بتدقيق المنطوق والمفهوم، ولكن لا ينبغي أنْ يمزج بالأصول التي مقصدها تذليل سبل الاجتهاد للمجتهدين لا تعليم طرق الخصام للمتناظرين ولهذا حذف الغزالي هذه الاعتراضات بالأصالة. وبالله التوفيق»[1].

وبعد هذا التجوال بين ربوع شرحه، واستخراج بعض الفوائد منه، بقي أن نقول: إنه مهما بذلنا من جهد فلن نستطيع أن نستخرج كل كنوزه، فكما تجد في البحر كل أنواع الأسماك والنباتات البحرية، والصخور المرجانية والحلي الثمينة، كذلك في شرح الشيخ التاج، تجد جميع أنواع العلوم، وإن غلب عليه أنه كتاب أصولي، لكن ليس هناك بد مما ليس له بد، أو كما يقال، فلا يمكن الحكم له أو عليه بمجرد قراءة سطحية وفي كتاب واحد، بل ينبغي أن تقرأ كتبه التي ألفها في أصول الفقه، ابتداء بهذا الكتاب، ومرورا بشرحه على ابن الحاجب، وانتهاء بتصنيفه لمختصر جمع الجوامع، والذي جمع فيه زهاء المائة مصنف. لذا فمهما بذلنا من جهد فإنه يصعب إعطاء هذا الرجل حقه.

---

(١) ينظر: ص٢٥٢٤.

المبحث الرابع

مصادر الشارحين في الكتاب

سبق وأن قلنا إن العصر الذي عاشه السبكي، يعد عصر الموسوعات، وكان العلماء يتوسعون في المعرفة، وينهلون من جميع أنواعها وتخصصاتها، ولعل ذلك راجع لخوفهم على اندثار العلوم بعد أن فعل فيها الغزو الهمجي التتاري الأفاعيل، حينما جعل من الكتب جسوراً لعبور خيولهم ودوابهم، وبنيت بها الاصطبلات. فألزم العلماء أنفسهم بحفظ هذا الدين من أن تعبث به أيدي العابثين، فسهروا على حفظ كثير من الكتب عن ظهر قلب، وظهر ذلك في كتابتهم، فلا تكاد ترى مصنفاً في ذلك العصر إلا وقد امتلأ بسيل من المعلومات فكانت عقولهم كالشبكات المعرفية المعروفة في عصرنا بـ(الإنترنت) فأي موقع أردت أن تزوره لتعرف ما فيه من علوم ومعارف، فبمجرد ضغطة زر تنساب أمامك تلك المعلومات، وكذلك كان علماؤنا رحمهم الله بما حباهم الله من السيلان الذهني واستحضار المسائل مع الفارق في التشبيه، فهذه الآلات قد تخرب أو تعتريها الآفات كانقطاع التيار الكهربائي أو غيره، وأما عقول سلفنا فقد كانت محفوظة بحفظه سبحانه.

لذا فإن شيخنا الجليل الإمام تاج الدين السبكي عليه شآبيب الرحمة والغفران، كان نبوغه وتفوقه لا يكاد يخفى على أحد، فقد كان أحد

أساطين العلم ودهاقنة المعرفة الغنية عن التعريف بها، فقد عرفنا سابقاً إتقانه لعلوم شتى كالفقه والأصول واللغة والأدب، والتاريخ، واللغة، وغيرها من العلوم. وظهر ذلك جلياً في شرحه فغدا شرحه موسوعة تضم بين جنباتها أقوال العلماء الأصولية، ولا سيما المتقدمين منهم، والأمثلة الفقهية التي أكثر من الاستشهاد بها، بالإضافة إلى أقوال أئمة الحديث ومصطلحه.

وهكذا نجد شرح الشيخ قد شمل التفسير وعلومه، والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والبلاغة والأدب، واللغة والنحو، والتاريخ والمنطق، وكان يورد هذه العلوم حسب ما يقتضيه المقام، فلم يكن من الذين يطنبون حتى يشرد ذهن القارئ، ويثقل كاهله بما يمكن الاستغناء عنه، كما أنه لم يكن من المختصرين الذين يحتاج شرحهم إلى شرح وحاشية وتقرير وطرة، فلا هو بالطويل الممل ولا المختصر المخل.

ناهيك عن الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والتي جمعها من مظانها من الصحاح والسنن والمستدركات والمسانيد والأجزاء والمستخرجات، وكتب الرجال في الجرح والتعديل.

وبهذا يكون شرحه متسماً بوفرة من المصادر التي استمد منها شرحه، غير أننا لا ندعي الإحاطة بتلك المصادر التي اعتمد عليها في شرحه، فقد يكون ذلك غمط في حق الرجل، لذلك فإنها من الكثرة والتنوع بمكان، مما يجعلنا نستبعد الاعتقاد السائد بأن مراجع الأولين هي تلكم المصادر

المحصورة فقط فيما يورده في تأليفه. وخاصة وأن التأليف هو عبارة عن شرح لمتن، فمن اقتحم مثل هذا الأمر يستدعي منه أن يجمع إلى ثقافة عصره ثقافة عصر المصنف الإمام البيضاوي، وخاصة إذا بعدت الشقة الزمنية بينهما.

وقد حاولنا استقراء هذه المصادر من خلال شرحه. واستأنسنا بذكره لمصادر شرحه لمختصر ابن الحاجب رفع الحاجب فهناك قد صرح حين قال: «فلقد نظرنا عليه مع توخينا الاختصار فيه كتباً شتى منها:

١- الرسالة للإمام الشافعي ﷺ.

٢- وشرحها لأبي بكر الصيرفي.

٣- و[شرحها] للأستاذ أبي الوليد النيسابوري.

٤- و[شرحها] لأبي بكر القفال الشاشي الكبير.

٥- و[شرحها] لأبي محمد الجويني.

٦- والتقريب والإرشاد في ترتيب طرق الاجتهاد للقاضي أبي بكر الباقلاني...

٧- ومختصره المسمى بالتلخيص لإمام الحرمين.

٨- وتعليقة الشيخ أبي حامد الإسفراييني.

٩- وتعليقة الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

١٠- وآداب الجدل لأبي الحسين الجلاّل.

١١- ومعيار الجدل للأستاذ أبي منصور عبدالقاهر البغدادي.

١٢- وشرح الكفاية للقاضي أبي الطيب الطبري.

١٣- والعمد للقاضي عبدالجبار.

١٤- والمعتمد لأبي الحسين البصري.

١٥- والتقريب لسليم الرازي.

١٦- وكتاب الأستاذ أبي بكر بن فورك.

١٧- والبرهان لإمام الحرمين.

١٨- وشرحه للإمام لأبي عبدالله المازري المالكي.

١٩- والكلام عى مشكله للمازري أيضا.

٢٠- وشرح أيضا لأبي الحسن للأبياري...

٢١- واللمع وشرحه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

٢٢- والملخص والمعرفة له أيضا في الجدل.

٢٣- والقواطع للإمام الجليل أبي مظفر بن محمد السمعاني.

٢٤- والمستصفى والمنخول للإمام حجة الإسلام.

٢٥- وشفاء الغليل في بيان مسالك التعليل له أيضاً.

٢٦- وعدّة العالم للشيخ أبي نصر بن الصباغ.

٢٧- وتعليقة إلكيا أبي الحسن الهراسي.

٢٨- والملخص للقاضي عبدالوهاب.

٢٩- وأصول الفقه للأستاذ أبي نصر ولد أبي القاسم القشيري.

٣٠- والوجيز لأبي الفتح بن برهان.

٣١- وكتاب الإمام محمد بن يحيى.

٣٢- والعقيدة لتلميذه شرف شاه بن ملكداد.

٣٣- وشرح اللمع لأبي عمرو عثمان بن عيسى الكردي صاحب الاستقصاء.

٣٤- ومشكلات اللمع لمسعود عليّ اليماني.

٣٥- والمحصول للإمام وغيره من أتباعه.

٣٦- كشرحه للقرافي.

٣٧- وشرحه للأصفهاني.

٣٨- والمؤاخذات عليه للنقشواني.

٣٩- والتنقيح للتبريزي.

٤٠- وشرح المعالم لابن التلمساني.

٤١- والنهاية لصفي الهندي.

٤٢- والفائق له أيضاً.

٤٣- والإحكام للإمام سيف الدين الآمدي.

٤٤- والمنتهى له أيضا.

٤٥- وكتب المخالفين من الحنفية.

٤٦- والمنهاج للقاضي أبي الطيب.

٤٧- والنكت للشيخ أبي إسحاق.

٤٨- والأساليب لإمام الحرمين.

٤٩- والتحصين للغزالي.

٥٠- وشفاء المسترشدين للإلكيا الهراسي.

٥١- وتعليقة الإمام محمد بن يحيى.

٥٢- و[تعليقة] أسعد الميهني.

٥٣- و[تعليقة] القاضي الرّشيد والطاووسي، وغيرهم.

٥٤- ومن الخلافيات للحنفية كتاب الأسرار للقاضي أبي زيد.

٥٥- وتعليقة ابن مارة، وغيرهما. وغير ذلك كله مما لو عددناه لضيعنا الأنفاس، وضيعنا القرطاس. وع ما حشوناه فيه من فروع الفقه، وفنون الفوائد وما سمح به الخاطر من المباحث...»(١). فمن خلال هذا النّص يمكن أن يقال إن الشيخ السبكي كانت لديه مكتبة غنية بالمصادر والمراجع، ويمكن أيضا أن يستأتنس بها ليقال إنها المصادر نفسها التي اعتمد عليها في شرحه على منهاج البيضاوي.

وسوف نذكر أمهات الكتب الأصولية التي ضمنها الشارح شرحه، وجمع مادته العلمية منها، وهذا بيان بأهمها مرتبة بحسب سني وفاة مؤلفيها:

---

(١) رفع الحاجب: اللوحتان:ب، ٣/أ. وينظر رفع الحاجب٢٣١-٢٣٨ المطبوع لمزيد الفائدة.

المصادر الأصولية:

١- الرسالة: لإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ).

٢- الملخص: للقاضي أبو محمد عبدالوهاب بن علي بن نصر البغدادي (٤٢٢هـ).

٣- المعتمد لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب الطبري (٤٣٦هـ).

٤- الإحكام للحافظ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي (٤٧٦هـ).

٥- اللمع لإبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (٤٧٦هـ).

٦- شرح اللمع لإبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (٤٧٦هـ).

٧- الإرشاد للقاضي أبي بكر الباقلاني (٤٠٣هـ).

٨- البرهان: لإمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني (٤٧٨هـ).

٩- مختصر التقريب: لإمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني (٤٧٨هـ).

١٠- قواطع الأدلة لأبي مظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني (٤٨٩هـ).

١١- المستصفى: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ).

١٢- المنخول: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ).

١٣- شفاء الغليل للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ).

١٤- المحصول: للإمام فخرالدين محمد بن محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ).

١٥- الإحكام في أصول الأحكام للإمام علي بن محمد الآمدي (٦٣١هـ).

١٦- مختصر المنتهى الأصولي: للإمام جمال الدين أبي عمر عثمان بن عمرو بن أبي بكر، المعروف بابن الحاجي (٦٤٦هـ).

١٧- تلخيص المحصول لتهذيب الأصول: لنجم الدين أحمد بن أبي بكر بن محمد النخجواني الشهير بالنقشواني (٦٥١هـ).

١٨- شرح تنقيح الفصول: لشهاب الدِّين أبي العباس، أحمد بن إدريس القرافي (٦٨٤هـ).

١٩- تعليقة على المنتخب لشهاب الدِّين أبي العباس، أحمد بن إدريس القرافي (٦٨٤هـ).

٢٠- الحاصل: لتاج الدين محمد بن الحسين الأرموي (٦٥٦هـ).

٢١- التحصيل: لسراج الدّين أبو الثناء، محمود بن أبي بكر الأرموي (٦٨٢هـ).

٢٢- أجوبة أسئلة التحصيل للجزري (٧١١هـ)[١].

---

(١) هي عبارة عن أسئلة أوردها صاحب التحصيل سراج الدين الأرموي، وجمعها أحد النساخ في آخر النسخة وتوجد نسخة منها محفوظة في مكتبة ولي الدين جار الله أفندي الملحقة بمكتبة السليمانية العامة باستانبول برقم ٤٤٤ في ص٢٧ من الفهري، والمكتوبة سنة ٧٠٧هـ، وتبلغ سبع لوحات بخط دقيق جداً في كل صفحة ٤٥ سطراً. هذه الأسئلة شرحها محمد بن يوسف الجزري في كتاب مستقل، لم أتمكن من الاطلاع عليه، سوى أنه مذكور في ترجمة ابن الجزري: ينظر : الدرر الكامنة: ١٩٢/٤، ومعجم المؤلفين:١١٣٨.

٢٣- شرح المنهاج لبرهان الدين عبيد الله بن محمد الفرغاني العبري (٧٤٣هـ).

٢٤- نهاية الوصول في دراية الأصول: للشيخ صفي الدين محمد بن عبدالرحيم الأرموي الهندي (٧١٥هـ).

٢٥- شرح البرهان لابن الأبياري.

٢٦- شرح المنهاج لقطب الدين الشيرازي.

٢٧- الوجيز لابن برهان.

٢٨- عدّة العالم لابن الصباغ.

هذه جملة المصادر الأصولية التي اعتمد عليها الإمام تاج الدين السبكي في شرحه.

المصادر الأخرى:

بقي أن نذكر مصادره الأخرى ونحاول أنْ نصنِّفها تصنيفاً موضوعياً حسب مادتها فنقول:

أولاً – مصادره الفقهية:

سبق وأن قلنا: إنّ التاج كان شافعيَّ المذهب، وساهم مساهمات كثيرة في المذهب عند الكلام عن آثاره العلمية.

تعددت مصادره الفقهية سواء المذهبية والتي ركز عليها كثيراً، في تخريج الفروع على القواعد الأصولية، ولا غرابة في ذلك، فإنّ المصنفَ للمنهاج الإمامَ البيضاوي شافعيٌّ، والشارح شافعيٌّ المذهب أيضاً، لذلك

نحاول سرد مصادره حسب وفيات مؤلفيها:

١- الأم للشافعي (٢٠٤هـ).

٢- المختصر للشافعي (٢٠٤هـ).

٣- مختصر البويطي (٢٣١هـ).

٤- التعليقة لأبي حامد الإسفرائيني (٤٠٦هـ).

٥- التجريد للمحاملي (٤١٥هـ).

٦- فتاوى القفال (٤١٧هـ).

٧- الحاوي للماوردي (٤٥٠هـ).

٨- المهذب للشيرازي (٤٧٦هـ).

٩- نهاية المطلب لإمام الحرمين.

١٠- الترجيح بين المذهبين.

١١- التتمة للمتولي ولم يتمه وصل إلى أبواب القضاء وأتمه غير واحد (٤٧٨هـ).

١٢- البحر للروياني (٥٠٥هـ).

١٣- الوسيط للغزالي (٥٠٥هـ).

١٤- التهذيب للبغوي (٥١٦هـ).

١٥- المحرر للرافعي (٦٢٣هـ).

١٦- فتح العزيز للرافعي (٦٢٣هـ).

١٧- المنهاج للنووي (٦٧٦هـ).

١٨- المجموع شرح المهذب للنووي (٦٧٦هـ).

١٩- الكفاية لابن الرفعة (٧١٠هـ).

٢٠- شرح منهاج النووي لتقي الدين السبكي (والد التاج) (٧٥٦هـ).

٢١- التعليقة لأبي إسحاق المروزي.

٢٢- الكافي للزبيدي.

ثانياً - مصادره الحديثية:

وهي إما كتب في متون الحديث، أو كتب في مصطلحه، أو كتب في الرجال.

متون وشروح الحديث

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم.

٣- موطأ مالك.

٤- سنن الترمذي.

٥- سنن أبي داود.

٦- سنن ابن ماجة.

٧- سنن النسائي.

٨- سنن الدارقطني (٣٨٥هـ).

٩- مسند الإمام أحمد.

١٠- صحيح ابن خزيمة.

١١- مسند الشافعي.

١٢- صحيح ابن حبان.

١٣- المستدرك للحاكم (٤٠٥هـ).

١٤- الأذكار للنووي (٦٧٦هـ).

١٥- معرفة السنن والآثار للبيهقي (٤٥٨هـ).

١٦- المدخل للبيهقي.

١٧- مسند أبي حنيفة لأبي محمد البخاري.

١٨- مسند أبي يعلى الموصلي.

١٩- شرح مسلم للنووي.

٢٠- شرح الإلمام بأحاديث الأحكام لابن دقيق العيد (٧٠٢هـ).

٢١- شرح العمدة له أيضاً.

٢٢- شرح أحاديث الأحكام للعز بن عبدالسلام.

٢٣- جامع الأصول لابن الأثير.

كتب مصطلح الحديث

١- الكفاية للخطيب البغدادي.

٢- مقدمة ابن الصلاح.

٣- مقدمة الإمام مسلم في صحيحه.

كتب الرجال (الجرح والتعديل)

١- تاريخ ابن معين.

٢- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي.

بالإضافة إلى ذلك، كان يسأل شيخه الذهبي عن بعض الأحاديث وعن بعض الرجال.

ثالثاً – مصادره في التفسير:

١- التفسير الكبير للإمام الرازي (٦٠٦هـ).

٢- تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧٤٥هـ).

رابعاً – مصادره اللغوية:

١- الصحاح للجوهري.

٢- إصلاح المنطق ابن السكيت.

٣- شرح الكفاية للقاضي أبي الطيب.

٤- الارتشاف لأبي حيان.

٥- التذكرة للفارسي.

٦- ابن جني.

٧- أبو حيان.

٨- البلاغة الزمخشري.

٩- الكتاب لسيبويه.

١٠- النكت لابن الفارضي المعتزلي.

خامساً - مصادره العقيدية وعلم الكلام:

١- الطوالع للبيضاوي.

سادساً - مصادره في القواعد الفقهية والأشباه والنظائر:

١- الفروق للقرافي.

٢- الأشباه والنظائر للتاج السبكي.

سابعاً: مصادر متنوعة:

١- مناقب الشافعي للإمام الرازي.

٢- إحياء علوم الدين للغزالي.

المبحث الخامس

منهج التحقيق

من المعلوم أن أهم أغراض التحقيق هو المحافظة على نص الكتاب كما كتبه مؤلفه، ولما كان هذا الغرض المهم لا يمكن تحقيقه إلا بنسخة موثقة للكتاب إما بخط المؤلف، أو بنسخة قُرِأتْ عليه، أو قُوبلت على واحد منهما.

ولما لم يتوفر لدينا أي نسخة للكتاب موثقة يمكن اعتمادها أصلاً لبقية النسخ، اعتمدنا على طريقة النص المختار، فقد حصلنا على أربع نسخ للكتاب، ووضعنا في الأعلى النص الذي نرجحه، وفي الهامش المرجوح أو المساوي.

لكننا ـ بفضل الله ـ اعتنينا ببيان الخطأ في النسخ إن وجد، ولم نستقص جميع الأخطاء في جميع النسخ؛ لكثرتها؛ ولأن بعضها واضح جداً لا يستريب متخصص فيه، ولكننا ذكرنا الأغلب والأكثر والذي ربما يخفى بعضه على غير المتخصص. ونعلل في بعض الأحيان كون النص خطأ ونذلل على ذلك.

وقد سلكنا في تحقيقنا للكتاب بعد إثبات النص والاجتهاد في الاختيار ما هو مقارب للصواب، وما يرجى أن يكون هو الذي كتبه المؤلف المنهج التالي:

١- اعتنينا بخدمة النص من حيث توثيق الأقوال الواردة فيه من المصادر الأصلية قدر الإمكان، وتصحيح نسبتها إن وجد خطأ في ذلك، وبيان ما لم يذكرهم الشارح من أهل القول المشهور.

٢- اعتنينا بتحرير محل النزاع في بعض المسائل المشكلة، وبسط التعليق في بعض المواطن التي يحصل فيها إشكالات إما تضارب بين المصادر، أو اعتراضات على ما قاله الشارح.

٣- كما اعتنينا بعزو الآيات وتخريج الأحاديث الواردة في الشرح، فإن كان الحديث في الصحيحين خرجناه من بقية الكتب الستة غالباً وقد نكتفي بهما أو بأحدهما. وإن كان في غير الصحيحين اعتنينا بتخريجه من غير الكتب الستة، ونحاول أن نذكر حكم الحفاظ على الحديث غالباً.

٤- ترجمنا للأعلام الواردة أسماؤهم في الشرح إلا من ذاعت شهرتهم ككثير من الصحابة وأئمة الفقه والأصول والحديث وغيرهم.

٥- بينا الغريب من الألفاظ، ومعاني المصطلحات التي تحتاج إلى بيان.

٦- ثم فهرسنا الكتاب بالفهارس المعتادة وهي:

- فهرست الآيات حسب ترتيب السور وأرقام الآيات.
- فهرست الأحاديث الشريفة حسب الأحرف الهجائية.
- فهرست الآثار حسب الورود في الكتاب.

- فهرست الأعلام حسب الأحرف الهجائية مع ملاحظة أن ما يبدأ بـ «أبو» يأتي في بداية الهمزة بعد «الآمدي».
- فهرست القواعد الأصولية والكلامية والفقهية مرتبة حسب الورود في الكتاب.
- فهرست المسائل الفقهية مرتبة حسب الكتب الفقهية وحسب الورود داخل كل كتاب فقهي.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرست محتويات الكتاب.

المبحث السادس

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

وقد اعتمدنا كما سبق بيانه على أربع نسخ خطية وإليكم وصفها:

النسخة الأولى: النسخة المغربية: وقد رمزنا بـ «غ»، وهي موجودة في الخزانة العامة بالرباط.

وهي جزءان: الجزء الأول منها تحت رقم: ٦١٠ ق، وهو من محتويات مكتبة تَمَكروت، تحت رقم: ٥٨٩ ص، كما هو مثبت بخاتمها داخل النسخة.

ويبدأ هذا الجزء من أول شرح التاج السبكي رحمه الله، وينتهي إلى آخر مباحث المطلق والمقيد. أي ليس فيه الجزء الخاص بشرح التقي السبكي رحمه الله. وقد كتب على الصفحة الأولى من هذا الجزء: «كتاب الإبهاج في شرح المنهاج، هو الأصولي البيضاوي، ملك لله تعالى، بيد أحمد ابن محمد بن ناصر. كان له الله له آمين. تصنيف أستاذنا وشيخنا ومولانا الشيخ الإمام... قاضي القضاة... تاج الدين... أبي نصر عبدالوهاب نجل حبر الأمة... الإمام قاضي القضاة تقي الدين... أبي الحسن علي الأنصاري الخزرجي السبكي الشافعي، حفظه الله للإسلام...».

ويلاحظ أن هذا الجزء ليس فيه بتر، بل فيه طرر، تدل على أن

النسخة مصححة، ويوجد في أسفله خاتم الخزانة العامة بالرباط.

وعدد لوحاته: ١٨٦ لوحة.

والجزء الثاني منها تحت رقم: ٨١٥ ق، ومصور على الفيلم تحت رقم: ١٠١٣ بالخزانة العامة أيضاً. وهذا الجزء أيضاً من مخطوطات تَمَكروت ورقمه فيه كما هو بداخل خاتمها: ١١٣٠ ص. ويبدأ هذا الجزء من مبحث الخصوص، إذ جاء في أوله بعد البسملة: «قال: الفصل الثاني: في الخصوص، وفيه مسائل...». وهذا يعني أن مبحث الخصوص ومبحث المطلق والمقيد مكرر ذكرهما في الجزء الأول والثاني من هذه النسخة. وينتهي هذا الجزء عند آخر مباحث الكتاب، وليس فيه ذكر ناسخه، ولكن يتضح من الخط أنه هو ناسخ الجزء الأول وهو عبدالله بن عمر الضرغامي. والله أعلم.

ويلاحظ أن هذا الجزء فيه بعض الخرم بسبب الرطوبة، فهناك كثير من الصفحات غير مقروءة، بل ساقطة من أثر الرطوبة وخاصة في وسط الصفحات. وهذا الجزء كذلك فيه تعليقات وتصحيحات واردة في الحواشي، وكشط على بعض الجمل، مما يدل على أن الجزء مقابل على غيره ومصحح، ومع ذلك ففي هذه النسخة بجزأيها بعض التصحيف والتحريف وسقوط بعض الألفاظ والجمل.

وعدد لوحات هذا الجزء: ٢٤١ لوحة. والجزء المكرر فيه (وهما مبحث العموم والخصوص، ومبحث المطلق والمقيد، المذكوران في الجزء

الأول) عدد لوحاته: ٤١ لوحة.

وهذه النسخة من أقدم النسخ، إذ كتبت في حياة التاج السبكي رحمه الله، حيث جاء في آخر الجزء الأول منها: «تم الجزء الأول بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى، وصلى اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرَّم، على يد أقل عبيدالله وأفقرهم إلى رحمته عبدالله بن عمر الضرغامي، غفر الله ذنوبه وستر عيوبه، وغفر له ولوالديه ولمالكه ومن نظر فيه وجميع المسلمين. وذلك سادس شهر الله محرم أول شهر، وعام أربع وستين وسبعمائة. وحسبنا الله ونعم الوكيل».

أما بالنسبة لمقاس الصفحة لهذه النسخة: فعدد الكلمات في السطر بمعدل ١٢ كلمة. وعدد الأسطر في الصفحة من اللوحة ٢٥ سطراً. وكتبت هذه النسخة بخط مشرقي على ورق متوسط.

وهناك جزء موجود في الخزانة العامة بالرباط برقم: ١١٢٧. وهو موجود بمكتبة الزاوية الناصرية بتَمَكروت، برقم ٢٤٨٧. وهذا الجزء هو عبارة عن شرح التقي السبكي رحمه الله تعالى فقط، وخط الناسخ فيه مقارب لخط النسخة المغربية السالفة، والفرق المميز بينهما هو أن هذه منقوطة، والمغربية غير منقوطة، فالله أعلم لعل الناسخ ذاته نقط الأحرف في أول نسْخة، ثم أجهده ذلك؛ لكون الشرح كبيراً، والنسخ في تلك الأعصار ليس متيسراً كهذه الأزمنة، فآثر التخفيف على نفسه بعدم

التنقيط، هذا محتمل لاسيما مع تقارب الخط ووجود النسخة هذه مع تلك في المكتبتين الخزانة العامة ومكتبة تَمَكروت، وكون هذه سابقة لتلك ومكملة لها.

ولذا آثرنا الرمز لهذه بنفس الرمز لتلك وهو «غ». وعلى فرض أن ناسخها غير ناسخ الأولى، فلا تخرج عن كونها مغربية، فالرمز لها برمز واحد هو الأقرب والأرجح.

وبالنسبة لمقاس هذا الجزء: فعدد الكلمات في السطر الواحد بمعدل ١٦ كلمة. وعدد الأسطر في هذه الصفحة الواحدة من اللوحة ١٥ سطراً.

النسخة الثانية: النسخة التركية: وقد رمزنا لها بـ «**ت**». وهي مصورة «ميكروفيلم» من مخطوطة بالمكتبة السليمانية بتركيا. **وهي جزءان:**

الجزء الأول: منها تحت رقم: ١٢٧٤. وفيلم رقم: ٤١٢٨.

ومكتوب على اللوحة الأولى منه على الصفحة الأولى منها بطرتها: «ملكه محمد النواجي وهو لعفو ربه راجي. وذلك في يوم الأحد تاسع شهر شوال سنة إحدى عشرة وثمانمائة، من تركة ابن أبي البنا رحمة الله عليه».

ومكتوب بأعلى الصفحة: «الجزء الأول من كتاب الإبهاج في شرح المنهاج للشيخ الإمام العالم العلامة إمام المتكلمين وسيف المناظرين قاضي القضاة بالشام تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب ابن الشيخ الإمام العالم

العلامة بقية المجتهدين وخلف السلف الصالحين تقي الدين السبكي الشافعي تغمده الله برحمته وأبقى مؤلفه في خير وعافية آمين إنه على ذلك قدير وبالإجابة قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». (ما بعده قوله: آمين – مطموس عليه بختم السلطان محمود خان، ولكن تظهر بعض الكلمات على جوانب الختم وهي تدل على الباقي). وقول الناسخ: «وأبقى مؤلفه في خير وعافية» يدل على أن النسخة كتبت في حياة التاج رحمه الله تعالى.

ومكتوب عليها أيضاً تحت الختم المذكور: «قد وقف هذه النسخة سلطاننا الأعظم والجامات المعظم مالك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان السلطان الغازي محمود خان – وقفاً صحيحاً شرعاً لمن طالع وأفاد، وتعلم واستفاد، أعظم الله أجره يوم التناد. حرره الفقير أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين غفر لهما».

ويبدأ هذا الجزء من أول الكتاب، أي من الجزء الذي شرحه التقي السبكي رحمه الله تعالى، ثم يليه شرح ابنه التاج إلى آخر مبحث المطلق والمقيد.

ويلاحظ أن هذا الجزء فيه تصحيحات وكشط على بعض الجمل في الأصل، مما يدل على أنه مقابل على غيره.

وكتبت عناوين المسائل ولفظ: قال (وهي تذكر قبل متن البيضاوي) فروع، تنبيه بخط كبير محبر.

وعدد لوحات هذا الجزء: ١٨٨ لوحة.

الجزء الثاني: وهو تحت رقم ١٢٧٥. وفيلم رقم ٤١٢٩.

ومكتوب على اللوحة الأولى منه ما هو مكتوب على اللوحة الأولى من الجزء الأول.

ويبدأ هذا الجزء من أول مباحث المجمل والمبين، وينتهي عند آخر الكتاب.

وفي آخر هذا الجزء ذكر الناسخ اسمه فقال: «وهذا كله كلام مؤلفه أيده الله تعالى بحروفه والحمد لله رب العالمين. علقه لنفسه ولمن شاء الله من بعده الفقير إلى رحمة ربه حسب الله بن محمد بن حسب الله أبو (بعده كلمة غير واضحة) عبدالصمد المغربي جده ثم القرافي هو، في ثالث شوال سنة (ستين) وسبعمائة. وحسبنا الله ونعم الوكيل. (قد كتبنا: ستين بين قوسين لعدم وضوحها في المخطوطة لكنا اجتهدنا في قراءتها وبالجملة فالنسخة مكتوبة في عصر التاج، كما سبق بيانه).

ويلاحظ أيضاً أن فيه تعليقات وتصحيحات تدل على مقابلة هذا الجزء بغيره.

وعدد لوحات هذا الجزء: ١٤٥ لوحة. فيكون مجموع الجزأين ٣٣٣ لوحة.

وخط هذه النسخة مشرقي، فيه عدم وضوح في بعض الأحيان، وتتميز هذه النسخة عن بقية النسخ أنها كاملة ليس فيها نقص ولا بتر،

وأخطاؤها قليلة، إلا أنها كثيرة السقط، ولـذلك لم نعتمـدها كنسـخة هـي الأصل بل اخترنا طريقة النص المختار.

أما مقاس هذه النسخة: فعدد الكلمات في السـطر الواحـد بمعـدل ١٥ كلمة. وعدد الأسطر في الصفحة من اللوحة بمعدل ٢٧ سطراً.

النسخة الثالثة: النسـخة المصـرية: وقـد رمزنـا لهـا بــ «**ص**». وهـي محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، تحت رقم: ٤٨٤ أصول.

وهي جزءان:

الجزء الأول منها: يبدأ بـأول شـرح التقـي السـبكي رحمـه الله ثم يليـه تكملة التاج رحمه الله، إلى أن ينتهي بآخر مبحث النسخ.

ويوجد على الصفحة الأولى منه بأعلاها ختم واقفه وهو: «وقف هـذا الكتاب السيد أحمد الحسيني بـن السـيد أحمـد الحسـيني بـن السـيد يوسـف الحسيني. ١٣٢٣هـ».

ومكتـوب عليـه أيضـاً بأسـفلها: «مهـدى مـن حضـرة السـيد حسـين الحسيني نجل الواقف، في شهر سبتمبر سنة ١٩٢١».

وتحت الإهداء ختم باسم: دار الكتب السليمانية.

وبأعلاها أيضاً اسم الكتاب وشارحيه.

وفي هذا الجزء توجد تعليقات وتصحيحات تـدل علـى أن هـذا الجـزء مقابل بغيره.

وعدد لوحات هذا الجزء: ٥٣٧ لوحة.

الجزء الثاني: ويبدأ هذا الجزء بمبحث السنة وينتهي عند آخر الكتاب. ويوجد على الصفحة الأولى منه بأعلاها رقم المخطوط في دار الكتب المصرية ٤٨٤ أصول ثم اسم الشارح التاج رحمه الله تعالى. كما يوجد ختم الواقف بوسط الصفحة وبأسفلها. وإهداء نجله بأسفلها، وختم: دار الكتب السليمانية.

وهذا الجزء مصحح لما فيه من الطرر الدالة على أنه مقابل على غيره.

وعدد لوحات هذا الجزء: ٣٥٩ لوحة.

ويلاحظ أن هذه النسخة كتبت بخط مشرقي جميل وواضح ومنقوط غالباً، إلا أنها كثيرة الأخطاء والتصحيفات والتحريفات، والسقط فيها أقل من النسخة التركية، فهي من هذه الناحية مهمة، وهي أحدث النسخ، إذ كتبت في القرن الرابع عشر، حيث جاء في آخر الجزء الأول قول الناسخ: «تم بحمد الله وعونه على يد كاتبه محمد علي يس الأجهوري بلدة الشافعي مذهباً، في صباح يوم الخميس ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٣١ غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين يارب العالمين».

وهي منسوخة من نسخة كتبت في عصر التاج رحمه الله، إذ جاء في آخر الجزء الأول منها: «تم الجزء الأول من تجزئة المصنف فسح الله في مدته».

أما مقاس هذه النسخة: فعدد الكلمات في السطر الواحد بمعدل ٧ كلمات، وعدد أسطر الصفحة ٢١ سطراً.

النسخة الرابعة: النسخة الكتانية: وقد رمزنا لها بـ «ك» وهي نسخة مصورة عن مكتبة الشيخ عبدالحي الكتاني.

كتب على صفحة العنوان: ٦٨٤ المكتبة الكتانية لمالكها محمد عبدالحي الكتاني بفاس وكتب تحته عنوان الكتاب: ..... الأول من الإبهاج في شرح المنهاج تأليف الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي تغمده الله برحمته.

وكتب على حاشيتها اشتريت هذا الجزء الأول مما وجد من الإبهاج ومن تكملته المشتمل على شرح المنهاج من أوله إلى مبحث المجمل والمبين في أوائل جمادى ثاني عام ١٣٢٢هـ ..... .

عدد لوحاتها: ٢٧٣ لوحة وتبدأ من أول الكتاب وتنتهي كما ذكر في صفحة العنوان آخر باب العموم والخصوص. كتب في آخرها: يتلوه إن شاء الله في السفر الثاني الباب الرابع في المجمل والمبين والحمد لله وحده وصلواته وسلامه على محمد وآله وصحبه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد كتبت بخط مشرقي واضح ولم يكتب عليها تاريخ النسخ ولا اسم ناسخها والظاهر أنها متأخرة النسخ.

أما مقاس هذه النسخة فعدد الأسطر ٢٣ سطراً بمعدل ٩ كلمات في السطر.

المبحث السابع

في بيان المصطلحات التي استخدمها الشارح

لكل عالم مصطلحاته الخاصة، في شرحه وهي عبارة عن اختصار لعناوين الكتب، أو ألقاب خاصة ببعض العلماء، يستعملها طلباً للاختصار وقد استخدم الشيخ تاج الدين السبكي مصطلحات مختلفة في شرحه بعضها يخص بعض العلماء وبعضها يخص كتبهم، وهي كالتالي:

الإمام: ويريد به الإمام الرازي.

أبو الحسين، أو البصري: أبو الحسين البصري المعتزلي صاحب المعتمد.

الشيخ الإمام: والده تقي الدين السبكي.

المصنِّف: الإمام البيضاوي.

الشيخ: أبو إسحاق الشيرازي.

الشيخ أبو حامد: أبو حامد الإسفراييني.

الأستاذ: أبو إسحاق الإسفراييني.

القاضي: أبو بكر الباقلاني.

شيخنا: يراد به الذهبي.

قال الغزالي: أي في المستصفى إلا ما ندر.

قال الآمدي: أي في الإحكام.

قال ابن الحاجب: أي في المختصر الأصولي.

أصحابنا أو الأصحاب: يعني بهم الشافعية.

العراقيون: أصحاب الشافعي الذين تتلمذوا عليه في العراق.

المتأخرون: من جاء بعد الشيخين الرافعي والنووي.

النص أو نصَّ عليه الشافعي: يراد به أن الشافعي ﷺ نص على حكم المسألة، ويكون في مقالبه وجه ضعيف أو قول مخرج[١].

القديم: ما قاله الشافعي ﷺ بالعراق قبل انتقاله إلى مصر سواء كان رجع عنه وهو الغالب، أو لم يرجع وهو قليل، وأشهر رواة القديم أربعة: الإمام أحمد بن حنبل، والحسن بن محمد الزعفراني، والحسين بن علي الكرابيسي، وأبو ثور إبراهيم بن خالد، وقد رجع الشافعي عنه، وقال: لا أجعل في حلّ من رواه عني[٢].

الجديد: ما قاله الإمام الشافعي ﷺ بمصر أو بعد خروجه من بغداد تصنيفاً أو إفتاءً، وأشهر رواته أربعة: يوسف بن يحيى البويطي، وإسماعيل ابن يحيى المزني، والربيع بن سليمان المرادي، وحرملة[٣].

وقال الماوردي في الحاوي: «وإذا كان في المسألة قولان قديم وجديد، فالجديد هو المعول عليه، إلا في نحو تسع عشرة مسألة أفتى فيها

---

(١) ينظر: المجموع:١٠٧.

(٢) ينظر: المجموع:١٠٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

بالقديم»[1].

وجهان لأصحابنا: أو الوجوه هي الآراء التي استنبطها أصحاب الشافعي المنتسبون إليه من الأصول العامة للمذهب، بتخريجها على ضوء القواعد التي رسمها لهم الإمام[2].

ظاهر النص: هو الرأي الظاهر من حيث القوة والرّجحان، ومقابله يكون قولاً أو وجهاً غريباً[3].

قال الرافعي: أي في العزيز شرح الوجيز.

قال الماوردي: أي في الحاوي.

قال النووي: في المنهاج في أغلب الأحيان إلا ما ندر، ويقيد بالكتاب، كقوله قال النووي في الأذكار...

صاحب التهذيب: الإمام البغوي.

الكتاب: منهاج الوصول للبيضاوي.

الشافعي في المختصر: مختصر المزني.

النهاية: نهاية المطلب لإمام الحرمين.

وفي الختام؛ نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ونسأله تعالى أن يتقبله.

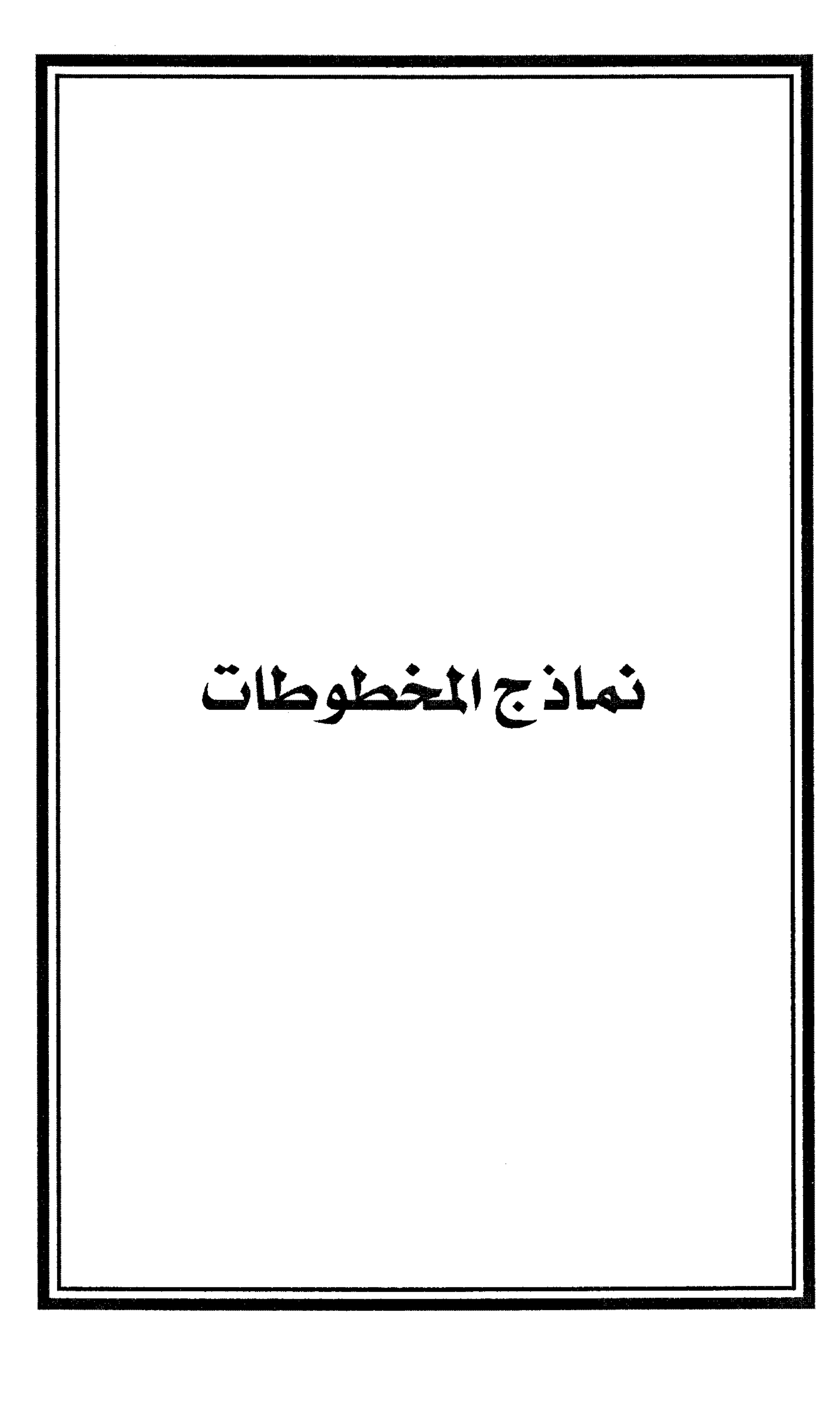
---

(١) ينظر: الحاوي للماوردي:٤٠.

(٢) ينظر: المجموع:١٠٧، وتحفة المحتاج:٤٨. والمراد بها والله أعلم هي تلك المسائل التي عدل عنها عما أفتاه في العراق. فلا يعني بالجديد نسخ ما قاله في العراق.

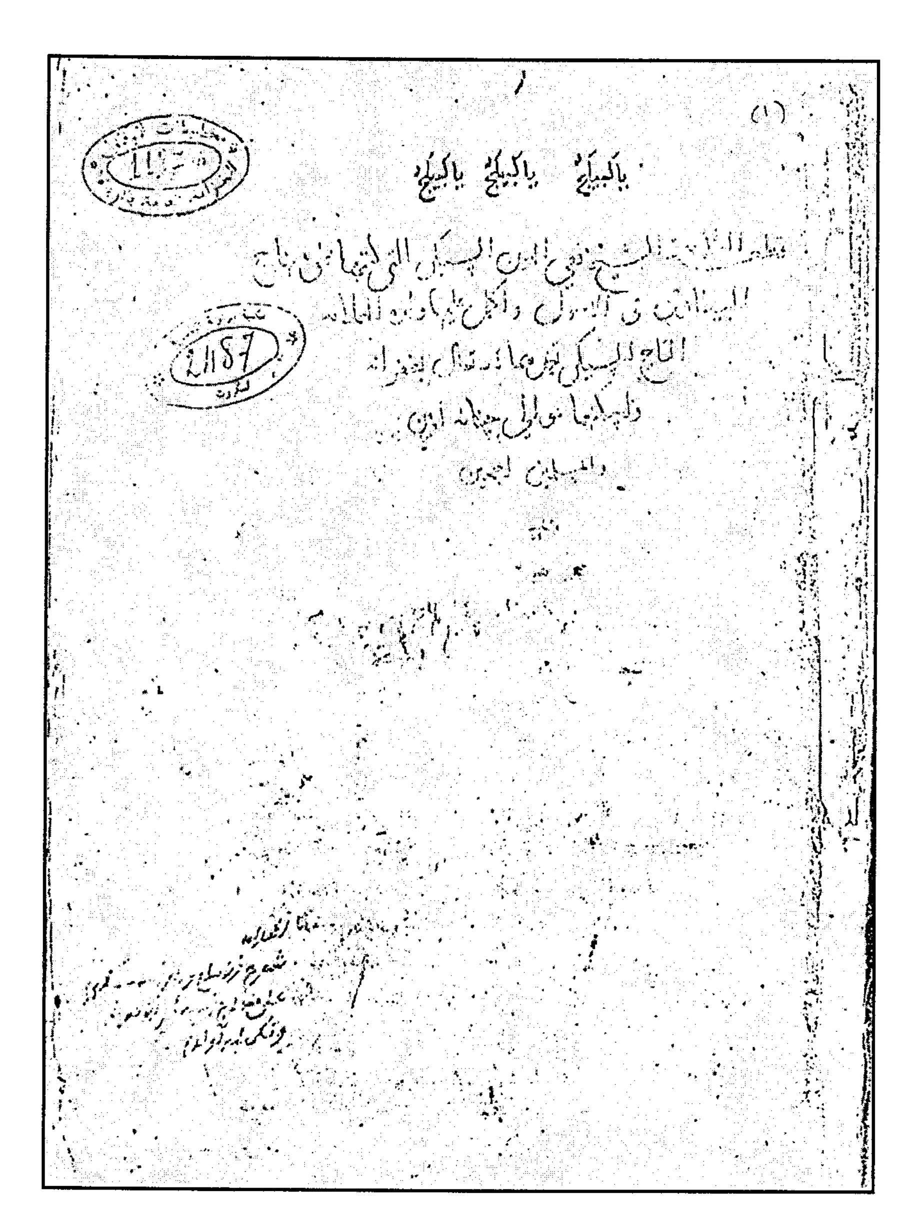
(٣) ينظر: مقدمة تحقيق الغاية القصوى:ص١١٨.





نماذج المخطوطات

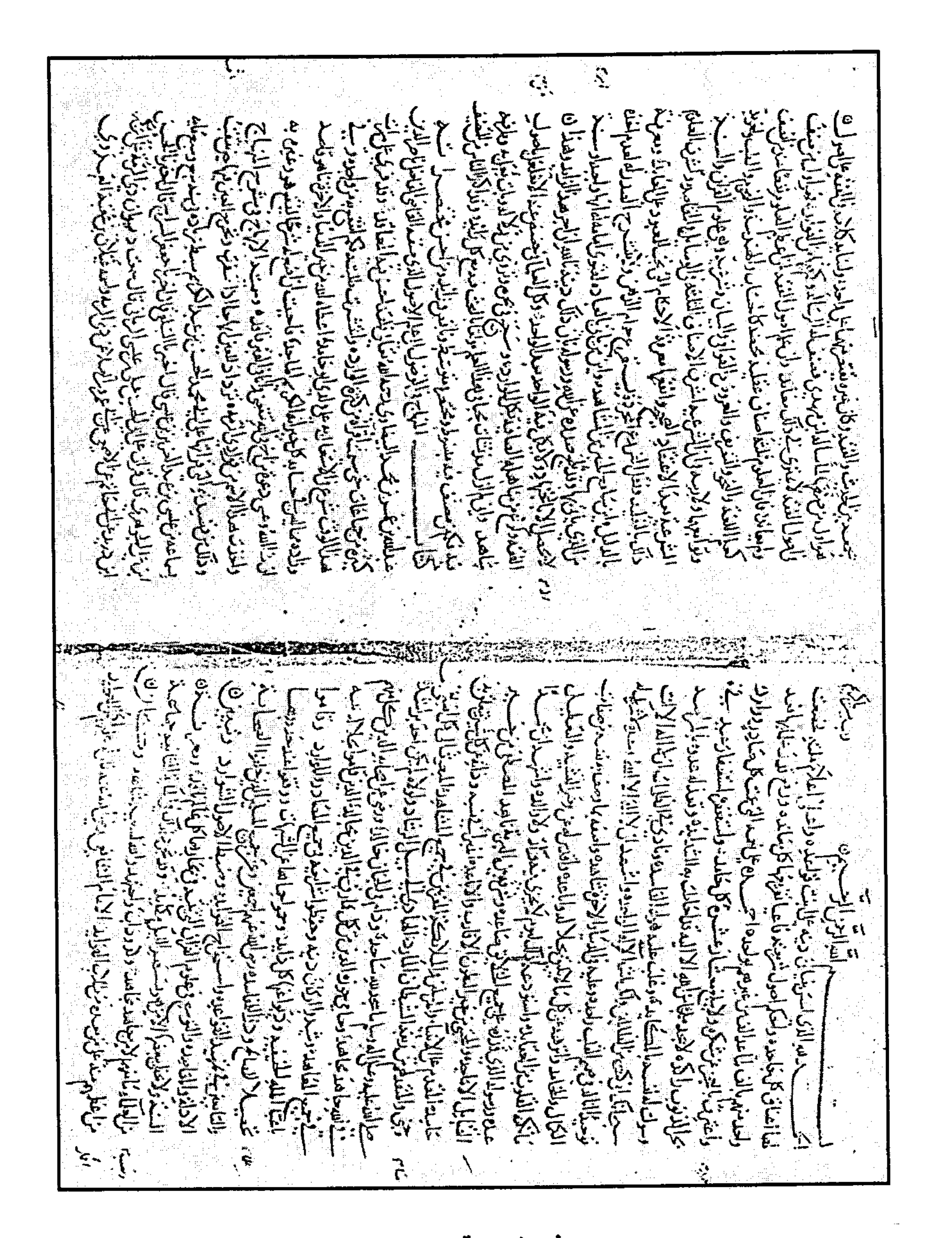




نموذج رقم (١)

اللوحة الأولى من نسخة (غ)

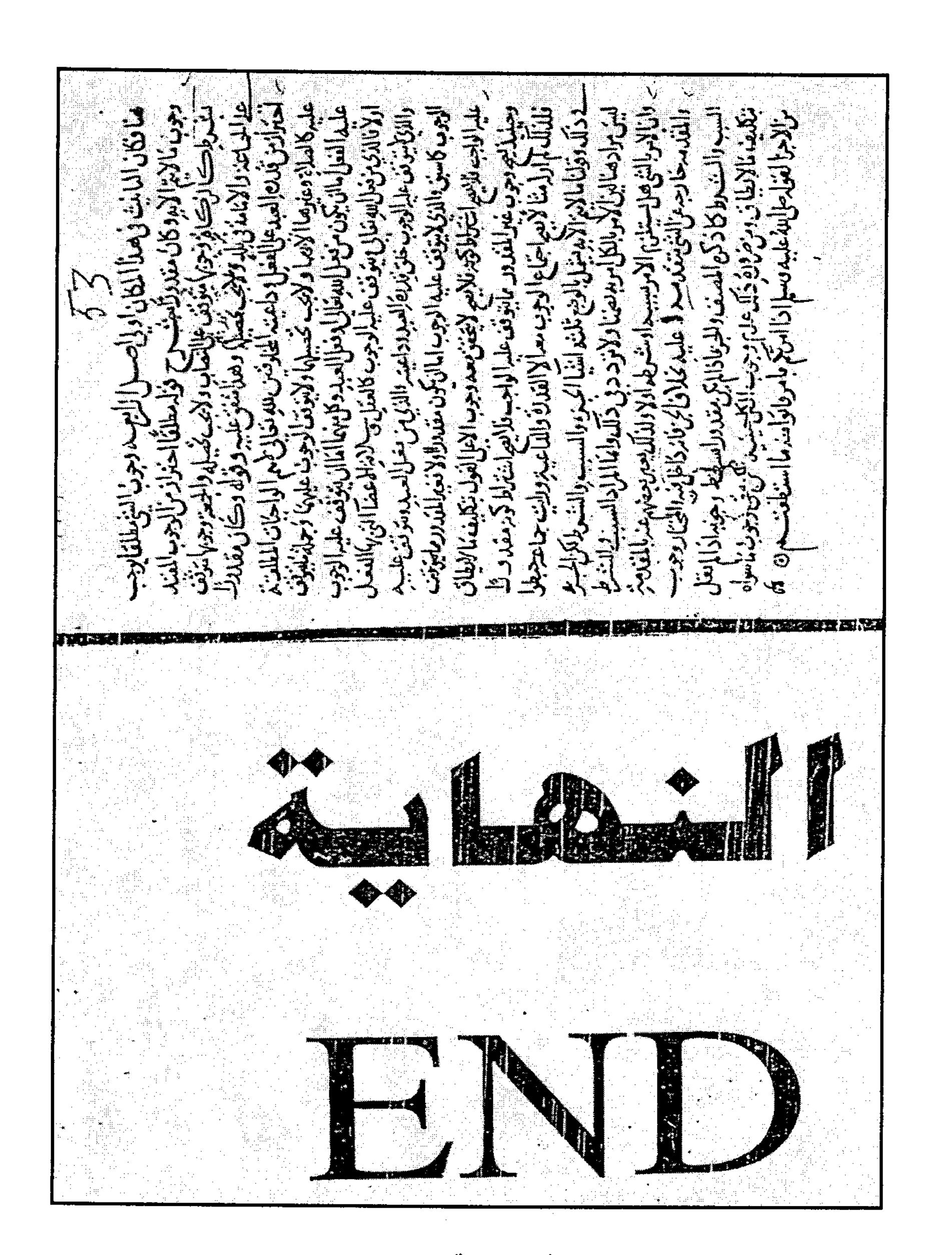
من الجزء الخاص بشرح التقي السبكي



نموذج رقم (٢)

اللوحة الثانية من نسخة (غ)

من الجزء الخاص بشرح التقي السبكي



نموذج رقم (٣)

اللوحة الأخيرة من نسخة (غ)

من الجزء الخاص بشرح التقي السبكي

نموذج رقم (٤)

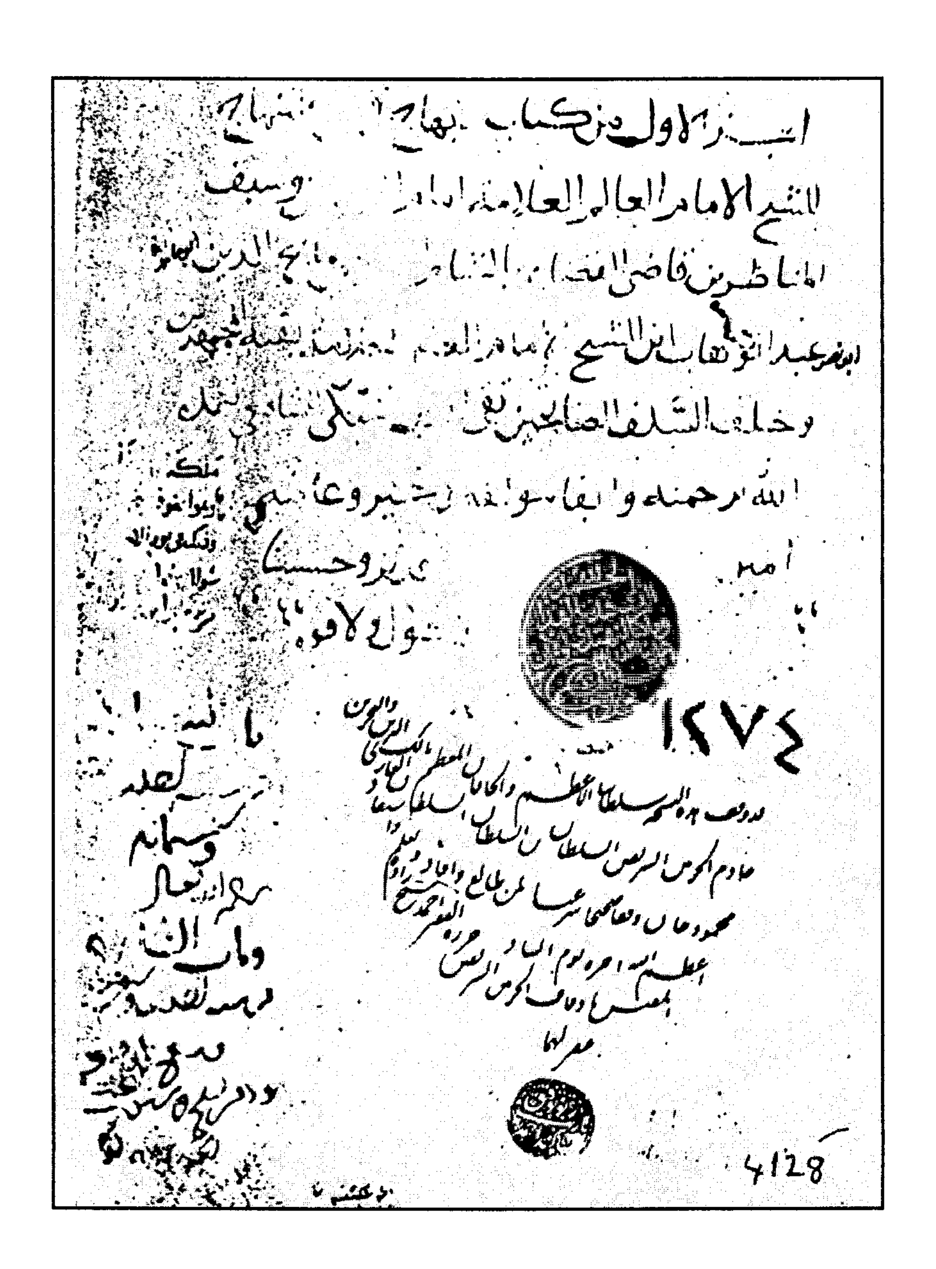
اللوحة الرابعة من نسخة (غ)

من الجزء الخاص بشرح التاج السبكي

نموذج رقم (٥)

اللوحة الأخيرة من نسخة (غ)

من الجزء الخاص بشرح التاج السبكي



نموذج رقم (١)

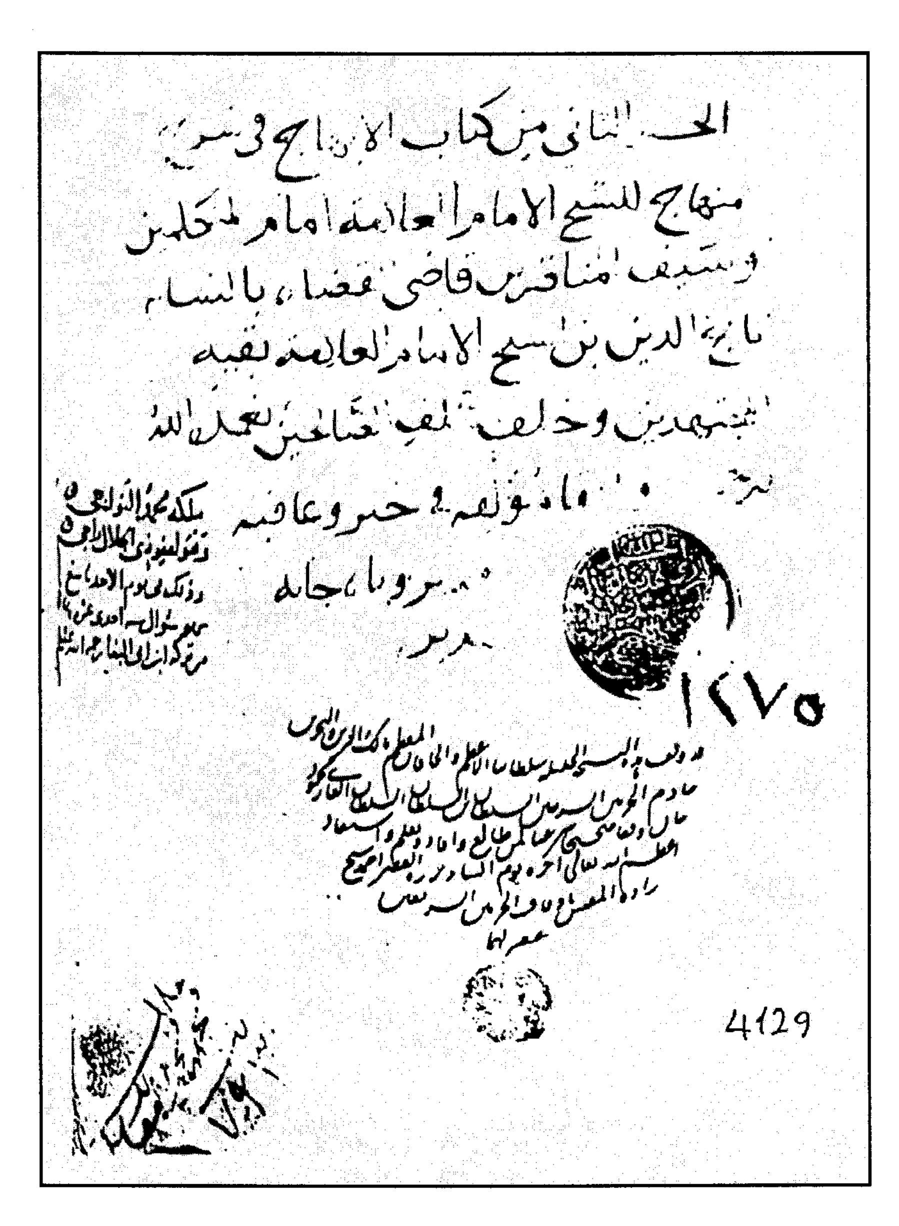
اللوحة الأولى من الجزء الأول من نسخة (ت)

نموذج رقم (٢)

اللوحة الثانية من الجزء الأول من نسخة (ت)

نموذج رقم (٣)

اللوحة الأولى من الجزء الأول من نسخة (ت)



الجزء الثاني من كتاب الابتهاج في شرح
منهاج للشيخ الإمام العلامة إمام المتكلمين
وسيف المناظرين قاضي القضاة بالشام
تاج الدين بن شيخ الإمام العلامة بقية
المجتهدين وخلف السلف الصالحين تغمده الله

١٢٧٥

4129

نموذج رقم (٤)

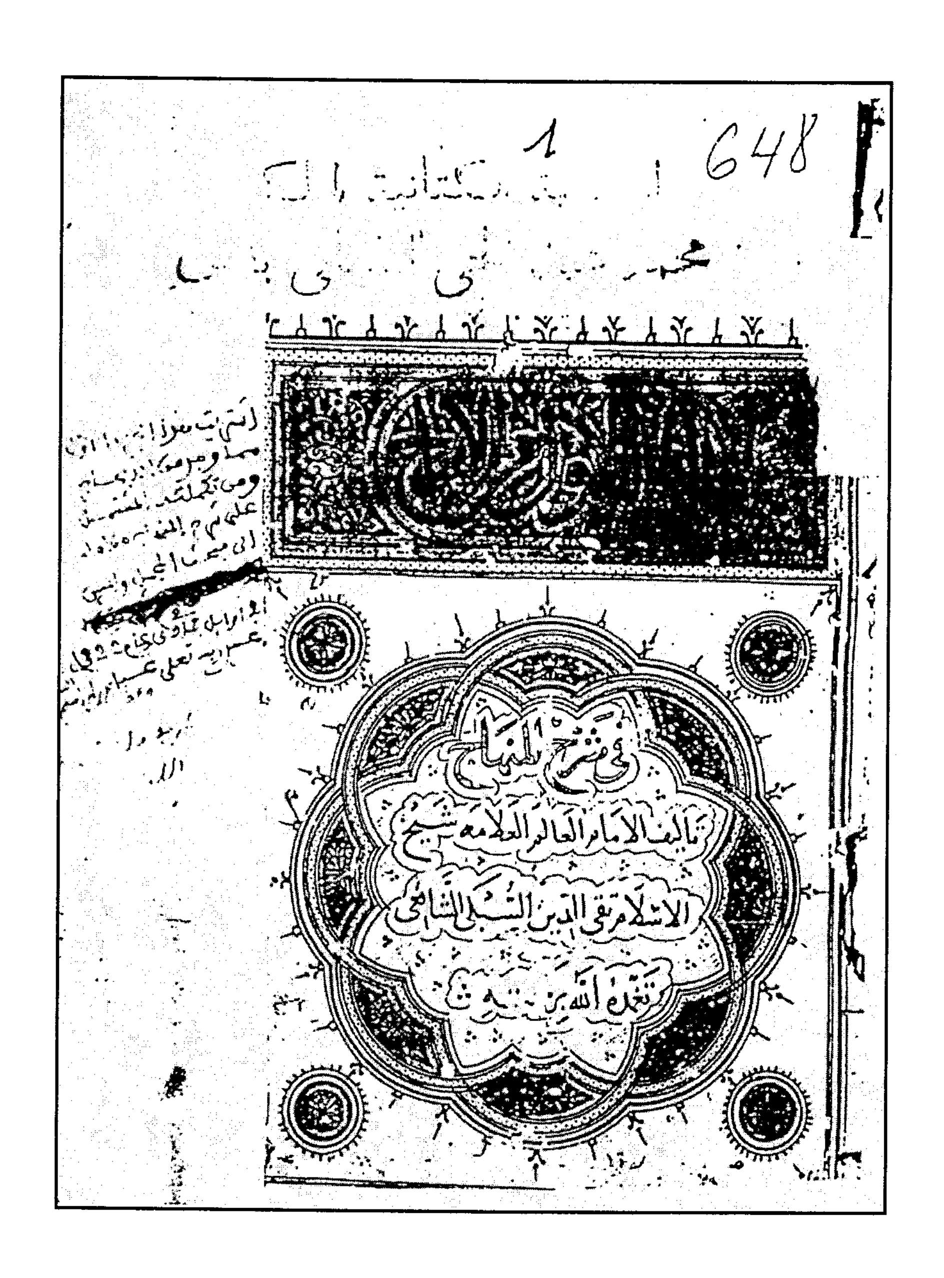
اللوحة الأولى من الجزء الثاني من نسخة (ت)

نموذج رقم (٥)

اللوحة الثانية من الجزء الثاني من نسخة (ت)

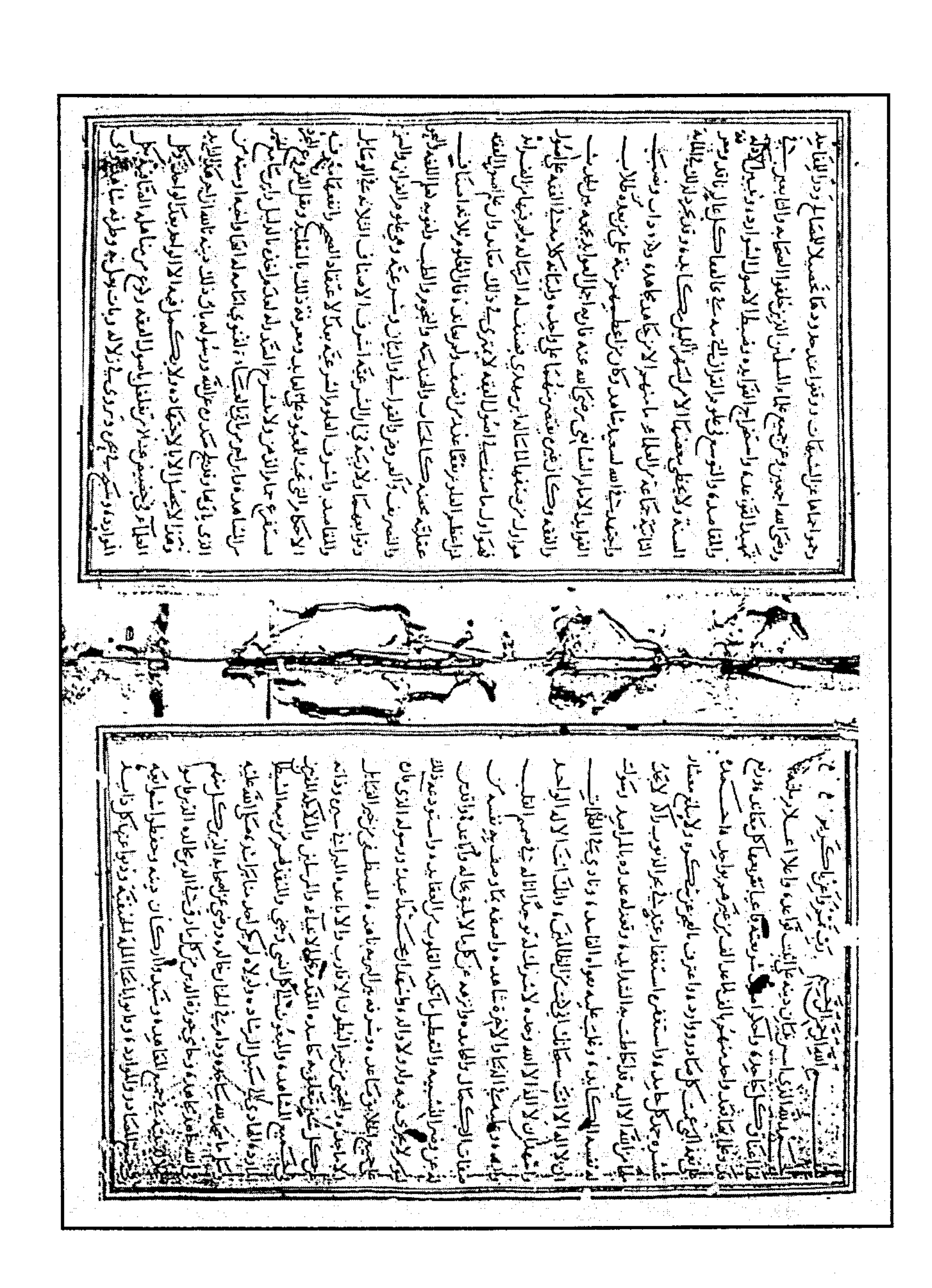
نموذج رقم (٦)

اللوحة الأخيرة من الجزء الثاني من نسخة (ت)


في شرح المنهاج
تأليف الإمام العالم العلامة شيخ
الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي
تغمده الله برحمته

نموذج رقم (١)

اللوحة الأولى من نسخة (ك)

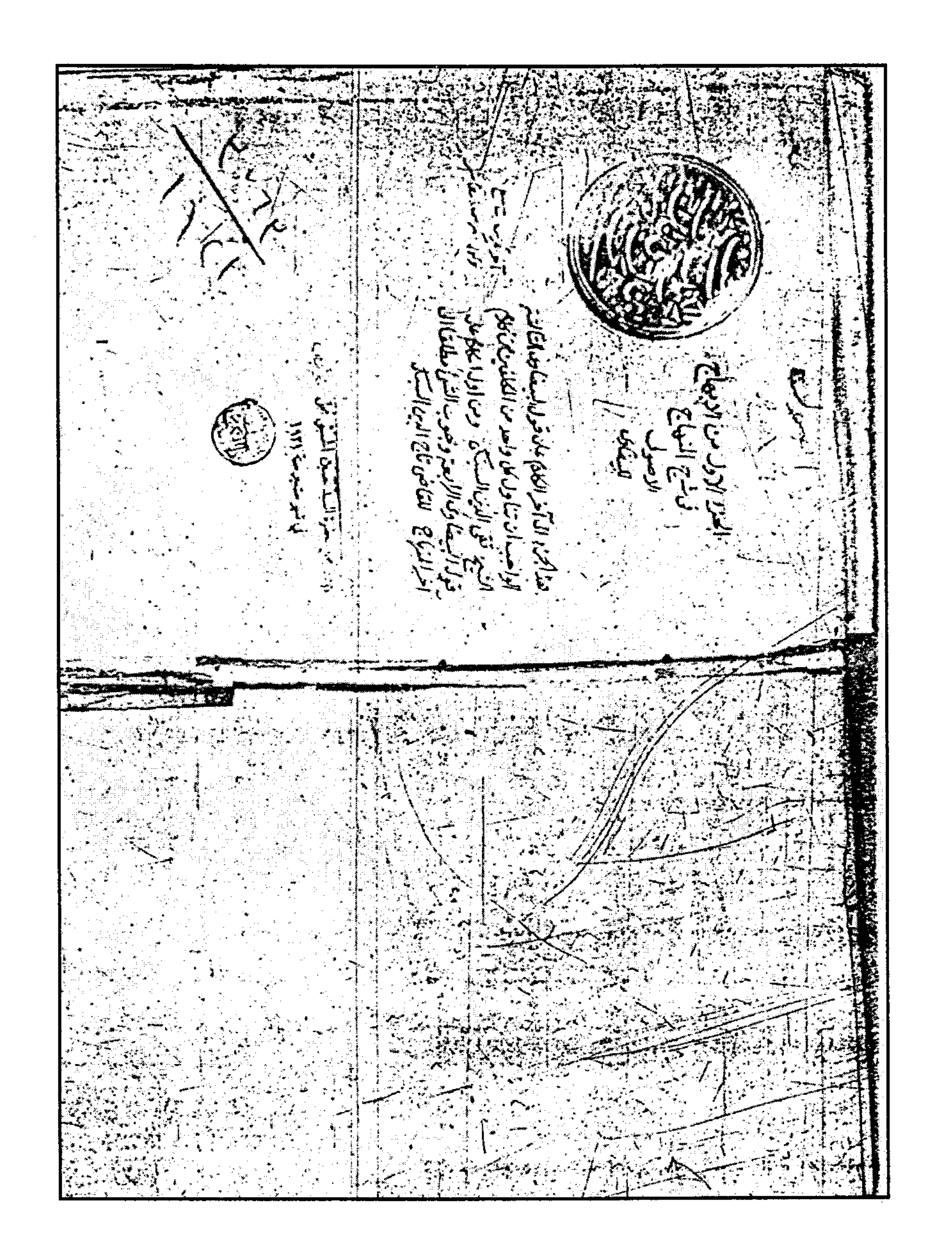


نموذج رقم (٢)

اللوحة الثانية من نسخة (ك)

نموذج رقم (٣)

اللوحة الأخيرة من نسخة (ك)



نموذج رقم (١)

اللوحة الأولى من الجزء الأول من نسخة (ص)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم قال الشيخ الامام
العالم العلامة القدوة المحقق الحافظ شيخ
الاسلام بقية العلماء الاعلام قدوة الائمة
فخر المجتهدين حجة الله على العالمين سيدنا
ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى قاضي القضاة
تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي
ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام الانصاري
الخزرجي الشافعي نفع الله به قاضي القضاة
بالشام المحروس كان رحمه الله تعالى الحمد لله
الذي اسس بنيانه على اثبت قواعد واعلى اعلام
ملته فخضعت لها اعناق كل جاحد واحكم
اصول شريعته داعيا تفريعها كل معاند ورفع
قدر علمائها فعد واحد منهم بالف لما عدا الف
من غيرهم بواحد احمده على نعمه التي عمت
كل صادر ووارد واعترف بالعجز عن شكره
ولا يبلغ معشار عشره حمد كل حامد
واستغفره استغفار عبد في بحر الذنوب
راكد لا يجد ملجأ من الله الا اليه وقد احاطت
به الشدائد وتعددت عليه المراصد وسولت
له نفسه بالمكايد وغلبت عليه هواه الفاسد ونادى

في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت
من الظالمين وانك انت الاله الواحد واشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة من
اناله صميم القلب واحد وعليه الله شاهد
والاخرة شاهد واصفه بما وصف به
نفسه من صفات الكمال والمحامد وانزهه
عن كل ما لا يليق بجلاله واقدس له عن وصف
التشبيه والتعطيل ما تكنه القلوب من
العقائد واستودعه ذلك ليوم لا يجزي
فيه ولد ولا والد واشهد ان محمدا عبده ورسوله
الذي قدره على جميع الخلائق صاعد وشرفه
بين البرية ناهد المصطفى من خير القبائل
الاماجد والمجتبى من خير البطون الاقارب
والاباعد للمراد نسبه وذاته عن كل شين
يتعلق به حاسد المقدم على الانبياء والمرسلين
والملائكة المقربين في جميع المشاهد والمبعوث
الى كل انسي وجني والمنقذ لهم من ربقة الشيطان
المارد الهادي الى سبيل الرشاد ولولاه لم يكن
احد منا براشد صلى الله عليه وسلم ما سجد
لله ساجد ودام في الجنان خالد ورضي عن
اصحابه الذين كل منهم في الله مجاهد وحامي

نموذج رقم (٢)

اللوحة الثانية من الجزء الأول من نسخة (ص)

لان البضع تابع عند القتل غير مقصود
ويلتحق به أيضا ما في الرافعي عن التتمة
من انه لا يجوز توكيل المرأة في الاختيار
في النكاح اذا اسلم الكافر على اكثر من
اربع نسوة لان الفروج لا تستباح
بقول النساء وفي الاختيار للفراق
وجهان لانه وان تضمن اختيار الاربع
للنكاح فليس اصالة فيه بل تابعا فاغتفر
وكذلك اذا اذن السيد للعبد في النكاح
واطلق فزاد على مهر المثل فان الزيادة
تجب في ذمته يتبع بها اذا اعتق بلا
خلاف ولا ينقدح هل الا جرى في ثبوت
هذه الزيادة في ذمة العبد بغير اذن
السيد خلاف كما جرى في ضمان العبد
بغير اذن السيد لان الالتزام ههنا
جرى في ضمن عقد ماذون فيه وقد
يمتنع الشيء مقصودا واذا حصل في
ضمن عقد لم يمتنع ونظيره يصح خلع
العبد قولا واحدا ويمتنع من تمليك
السيد بعقد الهبة على اصح الوجهين
ومسائل هذا الفصل تخرج عن حد العد

واما

وأما لو قال الراوي هذا منسوخ لم يقبل
لجواز ان يقوله عن اجتهاد منه ولا يلزمنا
ذلك الاجتهاد ولا يقتضيه راينا وقال
الكرخي ان بين الراوي الناسخ كقوله
هذا نسخ هذا فالامر كذلك لجواز ان يقوله
عن اجتهاد [illegible] بل [illegible] على
مجرد قوله منسوخ قبل لانه لولا ظهور
النسخ فيه لما اطلق لفظ النسخ اطلاقا
قال الامام وهذا ضعيف [illegible] فانه
لعله ظنه في الامر كذلك وليس
كذلك وبالله التوفيق والعون
تم الجزء الاول من تجزئة
المصنف [illegible]
في عدة [illegible]



تم بحمد الله وعونه على يد كاتبه محمد على [illegible] الجمهوري [illegible]
الشافعي مذهبا في صباح يوم الخميس ١٢ ربيع الاول سنة [illegible]
غفر له ولوالديه والمسلمين اجمعين يارب العالمين

نموذج رقم (٣)

اللوحة الأخيرة من الجزء الأول من نسخة (ص)



أصول
٤٨٤

الثاني من الابهاج في شرح القاضي
العلامة ناصر الدين البيضاوي
تغمده الله برحمته لمولانا شيخ
الاسلام خطيب الخطباء تاج
الدين أبي نصر عبد الوهاب بن
العلامة شيخ الاسلام أخر
المجتهدين تقي الدين علي بن عبد
الكافي السبكي الشافعي
رحمهما الله تعالى

نموذج رقم (٤)

اللوحة الأولى من الجزء الثاني من نسخة (ص)



بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

قال رحمه الله الكتاب الثاني في السنة وهي

قول الرسول صلى الله عليه وسلم او فعله وقد

سبق مباحث القول والكلام في الافعال وطريق

ثبوتها وذلك في بابين الباب الاول في افعاله

وفيه مسايل الاولى ان الانبيا عليهم السلام

معصومون لا يصدر عنهم ذنب الا الصغاير

سهوا والتقرير مذكور في كتاب المصباح

ش السنة في اللغة الطريقة والسيرة وفي الاصطلاح

ما ترجح جانب وجوده على جانب عدمه

ترجيحا ليس معه المنع من النقيض ويطلق

السنة على ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم

من الاقوال والافعال التي ليست للاعجاز وهذا

هو المراد هنا ويدخل في الافعال التقرير

لانه كف عن الانكار والكف فعل على المختار

كما سبق فاذا اردنا تعريف السنة التي عقد

لها هذا الكتاب قلنا هي الشي الصادر عن محمد

المصطفى صلى الله عليه وسلم لا على وجه الاعجاز

وقد سبقت مباحث القول باقسامها من

الامر والنهي والعام والخاص والمجمل والمبين

والناسخ والمنسوخ وكلامنا الآن في الافعال

والباب الاول معقود لها وفي الطرق التي

يتوصل بها الى ثبوت الافعال والباب الثاني

معقود لذلك وفي الباب الاول مسائل الاولى

في عصمة الانبيا عليهم الصلاة والسلام

واعلم ان الكلام في هذه المسئلة يحاه علم

الكلام واختيار المصنف قد عرفته جماعات

ويشترط عند من يقول بوقوع ذلك بطريق

السهو ان يحصل الذكر والذي نختاره نحن

وندين الله تعالى انه لا يصدر عنهم ذنب

لا صغير ولا كبير لا عمدا ولا سهوا وان

الله تعالى نزه ذواتهم الشريفة عن

صدور النقايص وهذا هو اعتقاد الشيخ

الامام الوالد ايده الله وعليه جماعة منهم

القاضي عياض بن محمد رحمه الله اليحصبي

ونص على القول به الاستاذ ابو اسحاق في كتابه

في اصول الفقه وزاد انه يمتنع عليهم النسيان

ايضا واما دعوى الامام في الكلام على الطرق

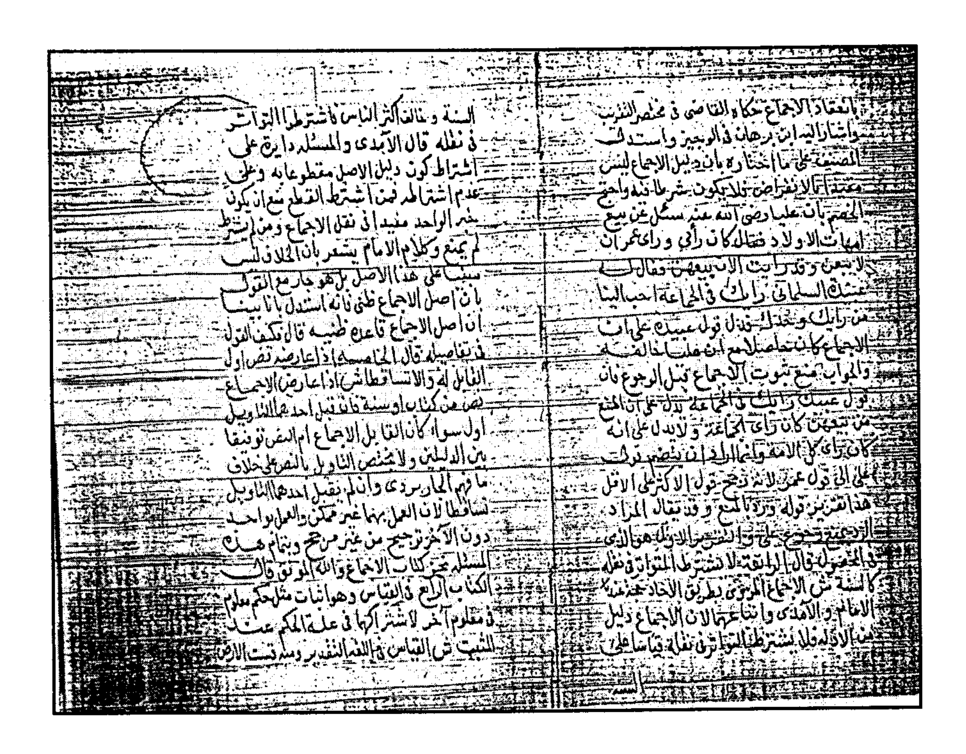
الدالة على القطع بصحة الخبر ما عدا المتواتر

في الكلام على خبر الرسول صلى الله عليه وسلم

انه وقع الاتفاق على جواز السهو والنسيان

نموذج رقم (٥)

اللوحة الثانية من الجزء الثاني من نسخة (ص)



نموذج رقم (٦)

اللوحة الأخيرة من الجزء الثاني من نسخة (ص)

فهرس المحتويات

[الدراسة]